محمّد جميل بيهم

العروبة

والشعوبيات الحديثة

نقاش مع الأساتذة :

الزعيم انطون سعاده

الزعيم كمال جنبلاط

العلامه سلامه موسى

الدكتور أمير بقطر

وتعليقات على مقدمة ابن خلدون

مقدمة الكتاب

●

صراع قديم بين الشرق والغرب بوز الى الوجود مذ خف الناس الى التوسع في الامصار ، وكانت الحرب بينهما سجالا : فتارة يكون النصر حليف الشرق ، وتارة يكون حليف الغرب. واما النصر في معركة القرون الأخيرة فقد كان من نصيب الغرب ، فبرز في اعقاب ذلك الاستعمار .

وقد شاء المستعمرون ، على اختلاف دولهم ، ان يقوّضوا اركان كل مناعة في الاقطار التي احتلوها فلجأوا الى سياسة الافقار والتفريق واضعاف الاقوياء ، والحط من شأن قومياتهم ، فنشأت من جراء ذلك الشعوبيات الجديدة بألوان مختلفات .

وكان للبلاد العربية نصيب واف من هذه الشعوبيات ، ولا سيما في مصر ولبنان ؛ ومنها سياسية شبت وترعرعت خلال عهد الحمايات والانتدابات قصد الوقيعة بين عناصرها ، وبغية اثارة الاقليات على حكوماتها ابان نضالها في سبيل الاستقلال ؛ ومنها علمية ترمي الى الحط من شأن العرب والعروبة ، والى تسفيه القوميات بغية بلبلة افكار الشبيبة الناشئة ، وحملهم على التكتل

حول وحدات اقليمية ، ومنظمات عقائدية يناوىء بعضها بعضاً ، وكلها حرب على العروبة .

وقد زالت الشعوبية السياسية ، أو كادت بزوال الاستعمار ، فلا نتعرض لها الا لماماً من قبيل الاستعراض؛ ولكن الشعوبيات التي تقوم على المبادىء الفكرية ظلت قائمة رغم تمتع البلاد باستقلالها، وظل فريق منها يشن حربا شعواء على العرب والعروبة مباشرة بينما يحمل فريق آخر على القومية العالمية على وجه عـــام ، وعلى القومية العربية على وجه خاص .

هذا ولما كانت الأمم تفتقر في عهد بعثها ونهوضها الى الثقـة بحاضرها وماضيها ، والى الفخار بقوميتها للاعتماد على نفسها رأينـا من الواجب ان نبادر الى الدفاع عن العروبة في المعركة التي لا تزال تخوضها ، وقصدنا بذلك تطهير افكار الشبيبة مـــن سموم تضعف فيهم الحمـاس لقوميتهم ، وتشتت كلمتهم في حين ان العروبة هي امضى سلاحنا في هذه المعركة .

وقد اخترنا موضوعاً لكتابنا النقاش مع اربعة من اساطين الفكر في العالم العربي المعاصر : اثنان منهم لبنانيان ؛ وهما الزعيمان انطون سعادة، وكمال جنبلاط. واثنان مصريان وهما العلامة سلامه موسى والدكتور امير بقطر . ومهدنا لهذه المناظرة بكلمة استعرضنا فيها انواع الشعوبيات في الامصار العربيـــة التي رافقت عهد الحماية والاستعمار .

ونقاشنا مع الاستاذ انطون سعاده لا يتوخى التعرض لمباديء حزبه كلها . لان غيري عني بتمحيصها ومناقشتها ، وانمـا مداره

تحليل اقوال ابن خلدون التي استشهد بها هو وصحبه . وهي اقوال طالما ردّدها اعداء العروبة . فكان من الواجب الاسهاب في تحليلها ، وتعليل اسبابها ، والرد عليها ، خصوصاً وان ابن خلدون يتمتع بمكانة علمية تجعل اراءه حجة على قومه ان حملت على غير محملها .

واما الاستاذ جنبلاط فانا ، وان كنا سنناقشه في موضوع خطاب دل على برودته نحو العروبة وعلى معارضته «باسم الانسانية» للقومية والوطنية ، الا اننا نفخر به كشاب لبناني جريء مخلص جمع بين الحسب والعلم ، وشاء ان تقوم مكانته على غير ما قامت به زعامة اسلافه الاقطاعيين ، فتزعم حركة علمية اشتراكية على رأس حزب انشأه ، وهو الحزب التقدمي الاشتراكي .

وقد ساقنا النقاش مع الاستاذ جنبلاط الى القضية الفلسطينية : القضية التي افردنا لها كتاباً خاصاً اصدرناه في سنة ١٩٤٦ بعنوان «فلسطين اندلس الشرق» ذلك لأن الحلول التي ارتآها الاستاذ جنبلاط لم تكن موفقة ، فعلقنا عليها ، وختمنا هذا الكتاب بفصل دحضنا فيه مزاعم الصهيونية التي توهم بعض الناس بانها حقائق ، وبرهنا على ان العرب ، مسيحييهم ومسلميهم ، هم احق من اليهود بالبلد المقدس حتى في الناحية التاريخية .

فجاء هذا الكتاب بمثابة مجموعة دفاع عن العرب والعروبة حيال حملات من قبل اصحاب مبادىء نعتبرها هدامة ومغرضة ، كما جاء بالتالي كمعجم مختصر لحضارة العرب في الشؤون السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية .

على انا وان كنا نتألم اشد الألم لان تشاؤمنا في سنة ١٩٤٦ ، حينما وضعنا كتاب « فلسطين اندلس الشرق » قد تحقق خلال عام ١٩٤٨ ، بيد اننا اصبحنا الآن جد مغتبطين لايماننا بان مصير اندلس اليوم سوف يكون غير مصير اندلس الأمس .

وبعد فان الأمم ترفع الأعلام والبنود كرمز لأوطانها وكمنارة لكيانها ، ثم تلتف حولها التفاف الاطفال حول الأم ، وتحميها حماية اللبوات لاشبالها . وهذا علم العروبة يخفق عالياً من شواطىء المحيط الاطلنتي الى سيف البحر في خليج فارس ، ويرفرف على اعظم مركز استراتيجي في القارات الثلاث ، تجري تحته انهار من الذهب السيّال . وسواء اكان هذا العلم من نسيج الحرير الغالي ، ام هو من خيوط القنب الرخيصة فهو راية عالم ينطق بلسان واحد تجمع بينه الآلام والآمال . فجدير بنا ، سواء اكنا من العرب حقاً ام من المستعربين فحسب ، ان نلتف حوله ، وان نحميه من كل شعوبية تحاول ان تمزقه ، وان نمشي وراءه حتى نرى الناس ، بعد قليل ، تزداد احتراما لنا ، وتحسب حسابا لوجودنا في هذا الصراع العالمي .

وعلى هذا القصد وضعنا هذا الكتاب بين أيدي ناشئتنا على رجاء ان نكون قد وفيّنا بعض ما علينا لأمتنا . اما اذا كنا قصرنا في اداء الواجب فستشفع لنا نيتنا الحسنة ، حيال هذا التقصير ، وانما الأعمال بالنيات .

(بيروت) في ١٥ آذار ١٩٥٧
١٣ شعبان ١٣٧٦

محمد جميل بيهم

الفصل الأول

الشعوبيات مطايا السياسة والاستعمار

يقول المثل الشائع « اذا سقطت البقرة كثرت السكاكين . » وهو قول حق ، ومثــــله في الصواب « اذا سمنت البقرة وتلبد شحمها ولحمها شحذت حولها السكاكين . »

وهذا ما يصدق على العرب ، فانهم ما ان استولوا على الامصار ودكوا اركان دولها ، وبسطوا سيطرتهم على شعوبها حتى شرعت تلك الشعوب تستثقل حكمهم ، وتتبرم منهم لضياع استقلالها ، ولاسيما منذ ان استعادت تلك الشعوب تفكيرها بعد الذهول الذي اصابها اثناء الاندحار .

وكانت خطوة هذه الشعوب الاولى عقب اليقظـــة تعرضهم للعرب بالمثالب . وكان يحملهم على ذلك ليست الكراهية للاستعباد فحسب ، بل ما بدا من قبل العرب الفاتحين ، بعـد عصر الخلفاء الراشدين ، من استعلاء على العناصر الاخرى المحكومة ، بالاضافة الى اعتقاد راسخ عند هؤلاء المحكومين انهم خير من العرب الذين كانوا ، في الامس القريب ، مضرب الامثال في الجهل والفقر ،

وكان بعضهم رعية لهم .

غير ان هذه النعرة الشعوبية ظلت مكبوتة خافتة في الصدور خلال الدولة الاموية ، لان الامويين كانوا متعصبين لقوميتهم لا يتسامحون بان يوجه احد اليها الانتقاد . هـذا فضلاً عن انهم كانوا قلما يستخدمون الموالي في مهام امورهم . ولكن الحالة تبدلت في العهد العباسي ، وذلك لان قيام الدعوة للعباسيين في فارس وما تلاها من ممارسة هؤلاء الفرس والموالي بعض اعمال الدولة جعلا بني العباس يشعرون بانهم مدينون للاعاجم منذ نشأتهم فحاسنوهم وقربوهم اليهم ، على قدر ما كان العرب في الامصار يظهرون العداء لخلفاء بغداد ، وتسامحوا معهم . فافضى هـذا الى تسرب السلطة للاعاجم تدريجياً حتى استأثر بها الترك في آخر الامر .

وحينئذ وقد شعرت الشعوب التي استخضعت من قبل بانها اصبحت صاحبة القوة وانها صنو العرب في الدولة ، واعتقد بعضها انهم ارفع من العرب مدنيةً اخذت هذه الشعوب تأنف من سيادتهم وتتذمر من فخارهم ، وشرعت ، متأثرة بديمقراطية الاسلام ومشجعة من نزعة العباسيين الاسلامية دون العربية ، تحارب ارستوقراطية العرب حرباً سلمية مدارها نقاش قومي حول المفاضلة في الاصول انتهت بتوجيه حملات شعواء على العرب ، ولا سيا في القرن الثالث للهجرة .

وقد وضع بعض الشعوبيين كتبا طافحة في المثالب ضد العرب ، ونزع بعضهم الى المغالاة في نقدهم وذلك بتشجيع من خاصتهم . ولما الّف علان الشعوبي كتابا في مثالب العرب اظهر طاهر بن

الحسين ارتياحه لهذا الكتاب ، وكافأه عليه بثلاثين الفا. بل تجاوز الامر هـذا الحد حتى ان بعض الشعوبين أظهروا جفاءهم للاسلام كرها بالعرب .

وكان يقع كل هذا في عهد ازدهار الحضارة العربية ، وخلال ممارسة العرب الحكم . ثم لما سقطت البقرة وزالت سلطة قومنا في الشرق والغرب ، انقضت عليهم الفؤس تهشمهم من كل صوب .

والى جانب هذه الحملات الشعوبية في داخل الامصار الاسلامية ظهرت حملات اخرى في خارجها ، ولا سيما في اوروبا : فقد استهلت النهضة الاوروبية بعثها بصدور كتب كثيرة حملت على العرب ودينهم ونبيهم حمـلات شعواء مستوحاة من العواطف الملية ، والنزعات السياسية . وتحت هذه التأثيرات فان الاوربيين ما ان اخذوا يؤرخون المدنيـة حتى تجاوزوا العرب الى اليونان متناسين الحضارة العربية ، حتى كأن هذه لم تكن حلقة زاهرة في سلسلة التمدن العالمي ، وحتى كأنها لم تكن كذلك صلة الوصل بين التمدن القديم والحديث .

والواقع ان الاوربيين ليسوا هم وحدهم الذين تناسوا العرب ابان ما صار هؤلاء رعيـة جاهلة لسواهم تؤمر فتطيع ، وتهان فتصبر . بل ان العرب انفسهم تناسوا تاريخهم ، ونسوا قوميتهم وامجادهم .

ثم ما ان استيقظوا في عصر القوميات ، وبادروا إلى ترديد ذكريات مفـاخرهم أولا ، ثم الى الدعوة لقوميتهم واستقلالهم ثانياً حتى ابتلاهم الاستعمار بشعوبيات جديدة فوقت سهام التحطيم

نحو صدري كل من قوميتهم ومدنيتهم، وساهم في هذه الشعوبيات كثيرون من مواطنيهم .

وقد برزت هذه الشعوبيات الجديدة على شكل واضح حينما انبرت القومية العربية بأجلى مظاهرها الى اثبات وجودها ، من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي، والى الاعراب عن تصميمها على التحرر من الاستعمار .

وجاءت الحرب العالمية الأولى فتوهم العرب بأنهم على قاب قوسين ام ادنى من ادراك مثلهم الأعلى استناداً الى وعود الحلفاء وتصريحاتهم ! ولكن الحرب انتهت، في الواقع، على غير تمنياتهم، انتهت باقتسام الدول المنتصرة بلادهم، فأدرك الاستعمار بذلك مرامه من السلطنة العثمانية التي كان يطلق عليها « الرجـــل المريض » ويترقب ان يرثها عاجلاً ام آجلاً .

غير ان العالم العربي الذي خدعه حلفاؤه لم يستكن للاستعمار، بل كانت هذه الخدعة حافزاً له على استخدام المزيد من الجهود في النضال للتحرر . فكان على المستعمر ان يقابل هذا النضال بنوع جديد من المقاومة تتفق مع سياسة العصر . فعني بمحاربة القومية بالاساليب السلمية تارة ، وبالقوة والعنف تارة اخرى .

ووراء هذا القصد استعان المستعمر على تفريق العرب وتهديم مثلهم الاعلى بشعوبيات جديدة تستوحي مباديها من تاريخ كل قطر من اقطارهم. وهذا ما سنستعرضه بايجاز في الاقسام التالية .

● **الشعوبية في مصر**

● وجد المستعمر بمصر في القومية الفرعونية امنيتـــه المنشودة

استناداً الى وجود تاريخ خاص بمصر حافل بالامجاد سابق للتاريخ العربي ، فدفع بعض المفكرين من الاقباط الى تبنيها اعتماداً على ما دونه الاستاذ اوليري وغيره من الاجانب الداعين الى هذه القومية .

وكان المصريون جميعهم من دعاة الجامعة الاسلامية على اعتبار ان مصر اسلامية في دينها وحضارتها، وهي جزء من عالم اسلامي يلتف حول الخلافة، وتجمع بين اجزائه الأخوة الدينية . لذلك فان المصريين، الذين كانوا يعانون الآلام من اعمال دولة الحماية انكلترا دون سواهم من رعايا السلطنة العثمانية، انكروا على الشريف حسين امير مكة وعلى انصاره اتفاقهم معها خلال الحرب العالمية الاولى، وشجبوا ثورتهم على الخليفة .

غير ان انتشار الفكرة القومية في العالم الغربي ورواجها كان له مع ذلك اثر فعال فيما بعد على الاوساط المثقفة بمصر حتى اذا برز انصار القومية الفرعونية، ومن ورائهم دولة الحماية، وجدوا لصوتهم صدى في بعض هذه الاوساط التي كانت تتلمس سبيلاً الى القومية في عصر لم تعد اهدافه تتفق مع الجامعات الدينية المكشوفة . فكان من عواقب ذلك ان قامت بمصر بلبلة في الافكار وتشتت في المقاصد وذلك خلال الصراع الذي حدث بين جامعة اسلامية تتنكر لكل قومية ، وبين قومية فرعونية تجاري النزعات القومية وتكافح كل كتلة دينية .

وخلال هذا الصراع بين المبدأين ، وخلال هذا البحران من

الفوضى التي جاءت على ما يريـد الاستعمار برزت فكرة القومية العربية بمصر ، واخذت تشق طريقها بصعوبة بين هذين التيارين . وكان يحمل علمها بعض المفكرين، وعلى رأسهم احمد زكي باشا الذي كانت داره تدعى منذ سنة ١٩٢٥ دار العروبة . وظلت العروبة بمصر تتعثر في تقدمها ، وظل دعاتها يتعرضون لكثير من النقد ، ولا سيما بعد ان ظهرت خيانة الحلفاء للعرب ونكول انكلترا التي اغرتهم وساقتهم للمشي في صفوفها ضد دولة الخلافة .

وهنا يجدر التنويه بما كان لفلسطين من اثر طيب في جمع شتات الامة العربية وفي تأييد القوميين العرب بمصر ، وفي صدد اعتراف الدول بوجود قضية عربية واحـــدة . ذلك أن الخطر على فلسطين فضلاً عن انـــه اهاب بالعرب ، في اي قطر كانوا ، للتعاون على درئه تعاونا عمليا بعـــد ان كان تعاونهم لا يتعدى الاماني ، فان هذا التضامن عزز فكرة العروبة وانتزع من لندن انتزاعا الاعتراف بوحدتهم ووحدة قضيتهم. وكان ذلك بالدعوات التي وجهتها وزارة الخارجية بلندن لكل دولة من دولهم لمؤتمر المائدة المستديرة في سنة ١٩٣٩ لبحث مشكلة فلسطين، وذلك حينما اصبح العالم على قاب قوسين او ادنى من حرب مقبلة .

وكانت ممارسة هذا التعاون بصورة عملية حافزة للعرب على السعي لتحقيق الوحدة المنشودة : فلما لمست لندن هذه الرغبة الملحة منهم خلال الحرب العالمية الثانية شاءت ان تجعلهم في منجـاة من دعايات الهر هتلر التي امتلأت بها اجواء العالم العربي . وكلها تنفير من الحلفاء وتقريب من محور برلين رومـا فاعلنت بلسان السيد

انطوني ايدن وزير خارجيتها وقتئذ، وذلك في ٢٩ اذار ١٩٤١ ، عطفها على تأييد العرب في سعيهم الوحدة، وانها تنتظر ان تكون المبادرة الى ذلك صادرة من قبلهم .

وهذا التصريح، الذي كان له دوي وأثر كبيران في كل الامصار العربية، كان حافزاً على انتعاش فكرة العروبة بمصر انتعاشاً عظيماً وعلى التفاف الناس هناك حولها بعد تردد طويل.

وكان مصطفى النحاس باشا يرأس الوزارة وقتئذ فتزعم ، هو وصحبه ، الحركة العربية في مصر وشرع يرعاهـــا وينوه بمصالح العرب في كل مناسبة كامـــة واحدة ، كما عني بتأييد الامصار العربية عند كل ازمة تعرض لكل واحدة منها . ونحن في سوريا ولبنان لا نزال نذكر ايادي وزارته البيضاء اثنـــاء نضالنا ضد الانتداب الافرنسي ، كما ان فلسطين والمغرب لا يزالان يذكران حدبها عليهما تباعاً . وكان في جملة التدابير التي اتخذتها الوزارة النحاسية وقتئذ اصدار قانون يقضي باستعمال اللغة العربية دون سواها في دوائر الحكومة . وكان هذا التدبير خطوة طيبة نحو تعريب لغة الحكومة بمصر .

وبهذا التشجيع وامثاله تألفت في مصر الجمعيات والاندية التي تعني بالعروبة اسوة بسائر البلاد العربية : فأنشىء في سنة ١٩٤٢ نادي الاتحاد العربي، وألّف طلاب الحقوق في جامعة فؤاد الاول جمعية رابطة العروبة ، بينما ان الاقلام التي كانت تحارب العروبة بمصر قبل سنين تحولت الى سيوف ماضية ، واحداً بعد الآخر ، للدفاع عنها .

وما ان دعا مصطفى النحاس باشا في سنة ١٩٤٣ الدول العربية لمشاورات الوحدة حتى ضمن لمصر مركز الزعامة في موكب العروبة . ولكن تلك المشاورات برهنت على ان هذه الدول لم تكن متأهبة لتحقيق هذه الامنية التي تدغدغ قلوب الامة ، ذلك لان المشاورات للوحدة انتهت على غير مدلولها ؛ وكان مرد هذا الى ان المتشاورين وجدوا انفسهم حيال اوضاع لا تسمح لهم بالحصول على اكثر من جامعة دول عربية (١٩٤٥) .

على ان هذه الخطوة وان جاءت دون المرام الا انها كانت خطوة طيبة في توثيق عرى العالم العربي . وكان من عواقبها الاولى ان مصر لم تلبث ان جنت ثمرة جهودها حينما خفّ العالم العربي لتأييدها سنة ١٩٤٥ اثر رفض لندن مطاليبها ، وانقطاع المفاوضات بينهما. ولم يصدر هذا التأييد من قبل الجامعة العربية فحسب ، بل صدر ايضاً عن المجالس النيابية والحكومات العربية بالاضافة الى مؤتمر انشاص الذي عقد في ٢٨ ايار ١٩٤٦ وشهده ملوك العرب ورؤساء جمهورياتهم . هذا فضلاً عن مواقف أخرى كان لفلسطين الفضل بها في جمع كلمة العرب ؛ وفي عدادها مبادرة الدول العربية للاتحاد ضد اسرائيل سنة ١٩٤٨ .

غير ان حرب فلسطين كانت سيئة العواقب ليس في مصيرها فحسب بل في امال العرب المعقودة على اتحادهم ايضاً . اجل انها كانت نكسة شملت العروبة ، ولا سيما في مصر من جراء جمود الجيشين الاردني والعراقي في مكانيهما بوحي انكليزي ابان ما كانت اسرائيل تقتحم الجيش المصري في النقب والعوجا .

وهذه النكسة اثرت على الشعب المصري تأثيراً سيئاً ترك المجال فسيحا للقومية الفرعونية لان تكسب جمهوراً كبيراً من القائلين بالعروبة. وقد خبرت ذلك بنفسي عندما زرت مصر ورأيت احد الاصدقاء من اساتذة الجامعة المصرية يرتد عن العروبة الى الفرعونية ، ويجادلني في صواب ما ذهب اليه بينما كان في الأمس ، قبل كارثة فلسطين ، يعتبر من دعاة العروبة المخلصين . كما ان الفشل في حرب فلسطين كان من عواقبه تضعضع جامعة الدول العربية من جراء فقدان الثقة بين اعضائها : فلما دعا مجلس الجامعة الدول الاعضاء لاجتماع يعقد بالقاهرة في تشرين الثاني ١٩٤٨ رفض النقراشي باشا رئيس الوزارة المصرية ، في اول الأمر ، تلبية الدعوة قرفاً من الحالة ؛ كما ان عمان وبغداد صارتا تتلكآن عن حضور جلسات الجامعة ، وتحملان عليها ، بحجة انها تجنح الى تأييد الجانب الآخر الذي ينافس الهاشميين . فأمست بذلك جامعة الدول العربية تمشي على عرج وتتعثر في خطواتها رغم المحاولات الكثيرة التي بذلت في سبيل تقويمها .

ولكن الله شاء انقاذ العرب من هذه البلبلة التي وقعوا فيها ، وشاء انقاذ مصر بصورة خاصة من جمودها ومن الشعوبية التي كشرت عن انيابها . فاذا بالثورة تستأصل الملكية ، واذا بها تعلن الجمهورية ، واذا بدستور مصر الذي وضع في عهد الجمهورية يعلن صراحة ، لأول مرة في التاريخ ، عروبة مصر رسمياً . وكان من حسنات هذا الانقلاب الفجائي بمصر القضاء على شعوبية القومية الفرعونية ، كما كان من حسناته رد الحياة

لجامعة الدول العربية بعـد ان اشرفت على الاحتضار فضلا عن اظهاره العروبة ، التي استأنفت نشاطها ، بمظهر قوي جديـــد بـدا في اروع موقف وقفـه العرب متحـــدين من المحيط الاطلسي الى خليج فارس منـذ اعلان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦ .

هذا وقد شاء الرئيس جمال عبد الناصر بايعازه الى الاذاعات والصحف المصرية بأن تنشر انباء هـذا التضامن ليقول للمصريين الذين كانوا يوجهون اليه اللوم لسياسته العربية ويتهمونه بأنـــه ينصرف عن مصر للقضايا العربية ، ليقول لهؤلاء الشعوبيين « اسمعوا وعوا كم تفيد مصر من انتسابها للعروبة ؟ »

ثم لما فوجئت مصر بحرب العدوان المثلث ، وهـزّ الرئيس جمال عبد الناصر علم العروبة خفتت في وادي النيل كل الاصوات الشعوبية ، وتجاوبت الامصار العربية ، كلها مرددة : الله اكبر الله اكبر .

● الشعوبية بلبنان

● مذ احتل الافرنسيون لبنان بعد الحرب العـــالمية الأولى وعهدت اليهم عصبة الأمم بالانتداب طمعوا بان يخلقوا فيه امـة اذا طالبت بالاستقلال فانما تطالب بالاستقلال عن العروبة وعن كل شيء يتصل بها . وطمعوا ايضا بان يجعلوا من وطننا ذا وجه غربي اذا تلفت الى الماضي فانما يولي وجهـه شطر الفينيقية ، واذا التفت الى الحاضر فانما يتجه بقلبه الى الغرب عامة ، والى الأم الحنون

خاصة ، وذلك على أمـــل أن يبقى لبنان ، يوم تزلزل الارض زلزالها ضد الاستعمار في بلاد الشام ، مستقراً أميناً لهم ومركزاً استراتيجياً في شرقي البحر المتوسط .

وقد استهلت دولة الانتداب عملها بتهديم كل مناعـــة عند المعارضين : فأقصتهم عن المناصب المرموقة ، وحرمتهم من المنافع العامة ، بينما اخذت تباعد بين المواطنين وتنشط الشعوبيات. وكاد يبلغ بها الحرص على التفريق بين المسلمين والمسيحيين وبين السنـة والشيعة مستوى ما تقوم بـه بمراكش في صـــدد التفريق بين العرب والبربر .

وكأن دولة الانتداب كانت ترى في القومية العربية العقبة الكأداء التي تقف في وجهها بلبنان فساقت اليها البعثات ، وكانت احدى الارساليات الدينية الفرنسية لا تزال تمشي في الطليعـة . فوضع هؤلاء الكتب ونشروا الصحف، وكلها حرب على العروبة وما يتصل بها .

وكان يطيب لهؤلاء ان يستشهدوا ، بصورة خاصـة ، ببعض علماء المسلمين كابن خلدون والحـاج خليفة . ثم اذا وضع احدهم كتاباً عن لبنان ككتاب « ادباء القرن التاسع عشر » للأب شيخو اخرجه للناس على شكل يوهم القارىء بان لبنان كان خالياً من المسلمين الا ما ندر حتى في النواحي الثقافية .

وشاءت دولة الانتداب ان تجند ايضاً وزارة التربية الوطنية ومدارسها لخلق ناشئة جديدة تكاد لا تعرف عن بلادها الا النذر القليل الذي اختاره الانتداب ، ولكنها عليمة بكل شيء يتعلق

بفرنسا ، ولاسيما بمآثرها ومآتيها . هذا فضلاً عن انها استخدمت فريقاً من اساتذة المدارس لوضع كتب مدرسية اذا قرأها التلميذ خرج منها على اعتقاد انه كان من فضل الباري على لبنان ان خلقه خلقاً مستقلاً عن اولئك العرب جيرانه الذين لا شغل شاغل لهم الا الفتن ، وانه كان من فضله تعالى على هذا البلد ان جعله آمناً مصوناً من كل فاتح وأعده ملجأ للمظلومين .

وشاءت دولة الانتداب ايضاً ان تشمل هذه العقيدة الكبار، اسوة بالصغار، فجندت لها بعض رجال الدين والكتاب لترديدها، في المناسبات وفي غير المناسبات ، على اعتبار انها حقائق مقررة .

وكان لا بد لها اذن ان تربط لبنان بماضيه البعيد كما ربطت حاضره بها، فراحت توحي الى صنائعها ان يوجهوه الى الفينيقية على غرار فرعونية مصر . فاذا بنا نرى بعض الفئات يدعون الى هذه الشعوبية ويتغنون بها ، ويطرونها شعراً ونثراً ، ويؤلفون باسمها الجمعيات الادبية والشركات الاقتصادية ، ويصدرون المجلات والكتب . غير ان الحماس لهذه الشعوبية لم يلبث الا قليلاً حتى اصابه الفتور لأن دعاتها وجدوا انفسهم لا يزالون يرجعون في الاصل اللبناني الى جزيرة العرب : ذلك لان الفينيقيين هم موجة من الموجات التي صدرت عن هذه الجزيرة . وحينئذ برزت شعوبية جديدة بالدعوة الى القومية المتوسطية ، نسبة للبحر المتوسط . فأنشأ بعض الوجهاء والادباء « الجمعية الوطنية للمحافظة على الثقافة اللبنانية » ووضعوا نظامها باللغة الفرنسية وذلك على اساس محافظة لبنان على وجهه التقليدي ، وعلى رابطته بثقافة البحر المتوسط .

غير ان الدعوة لهذه الشعوبية الاخرى لم يكن حظها في الحياة خيراً من الأولى فذبلت قبل ايناعها . ومع ذلك فان دعاة عزلة لبنان عن العرب والعروبة لم يتطرق اليهم اليأس فالتفوا حول منظمات جديدة كان اهمها الكتائب اللبنانية والكتلة الوطنيـة . وظلوا يأتمون بفئة من رجـــال الدين لا يرون بقاءً لنفوذهم اذا انصرف اللبنانيون عن الطائفية الى القومية الشاملة .

وخلال الصراع بين القومية العربية وبين القومية اللبنانية الاعتزالية برز الاستاذ انطون سعادة وانشأ الحزب القومي السوري على مبدأ « سوريا للسوريين ، والسوريون امة تامة » وان لبنان ، في ماضيه وحاضره ، جزء من سوريا الكبرى الجغرافية التي لا تمت للعرب ، على قوله ، بصلة الا صلة غزو طارىء قام به العرب ، وصلة اللغة المنتشرة التي لا سبيل لانكارها .

غير ان هذه الشعوبية الجديدة التي دعا اليهـــا زعيم الحزب القومي السوري لم تأت على هوى دولة الانتـــداب ، ولم ترق لانصارها دعاة عزلة لبنان لانها جاءت تبشر بوحدة سورية ؛ وهم اعداء كل وحدة . فكان نضالاً حاداً بين هذا الحزب وبين منظمة الكتائب ، ومن ورائها المفوضية الافرنسية والحكومة اللبنانية ، طورد خلاله الزعيم سعادة وصحبه ، وسجنوا حتى برزت المناسبة المعلومة التي افضت الى محاكمتهم ، محاكمة صورية ، وقضت باعدام الزعيم وبعض اركان انصاره وحل حزبه .

غير ان هذا الحزب ظل ثابت الاركان ولم تستطع الزوبعة ان تقوضه بعد اعدام مؤسسه وزعيمه ، لكنه اظهر بعض الضعف

حينما اختار المصانعة وتخلى عن اسمه ليتخذ اسماً جديداً لا سورية فيه ، وهو « الحزب القومي الاجتماعي » . وقد عزا الناس ثباته الى انه كان يستمد القوة من الاجـــانب : ففي حياة الزعيم سعادة ، ولا سيما خلال الحرب العالمية الثانية ، كان هـذا الحزب على اتصال بالنازي والفاشيست ؛ ثم اعتمد من بعـد على مساعدة الولايات المتحدة بدليل ما عثر عليه بين ملفاته من مفاوضات مع واشنطن اكتشفت اثر مطاردة الحزب في سوريا بعد قتل العقيد عدنان المالكي سنة ١٩٥٥ .

كما اعتمد اخيراً على حكومة السيد نوري السعيد ومن ورائها انكلترا في تدبير ثورة فشلت على حكومة سوريا حاول هذا الحزب ان يقوم بها في سنة ١٩٥٦ بالاشتراك مع فريق من المعارضين .

ولا يزال هذا الحزب قائماً في لبنان يعقد جلساتـــه ويصدر الصحف ويدعو الى مبادئه . اما اولياء الأمر فلم يتجاهلوا وجوده فحسب، بل ان بعضهم اتّهموا بأنهم يحمونه ، وذلك لان بعض المحكومين من اعضاء الحزب بدمشق في قضيـة قتـــل العقيـــد عدنان المالـــكي نائب رئيس اركان حرب الجيش السوري لا يزالون يرتعون في لبنان رغم مراجعـات حكومة سوريا المتكررة من اجل تسليمهم لها . ومثلهم الذين حكموا من بعد في قضية الثورة التي فشلت بسوريا سنة ١٩٥٦.

ويقول قائل ان حماة الحزب القومي الاجتماعي في لبنـان انما يتظاهرون بمؤازرتهم ويحمونهم خوفاً من بطشهم وهم الذين قتلوا الرئيس رياض الصلح في عمان سنة ١٩٥٣ انتقاماً منه للزعيم سعاده لان

الحكم الذي صدر باعدام هذا الزعيم انما صدر في سنة ١٩٥١ ايام وجود الصلح رئيساً للحكومة .

ويقول قائل آخر ان سبب ذلك يعود الى الرغبة في كسب اصواتهم حين الانتخابات النيابية المقبلة . هذا فضلاً عن تقولات اخرى تروج في سوريا وغيرها مدارها ان رفض لبنـــان تسليم اولئك وهؤلاء المحكومين لسورية انما يعود الى تدخل اجنبي وان ارتدى طابعاً قانونياً .

وهذا موضوع اثاره النائب الاستاذ حميد فرنجيـه في جلسة المجلس النيابي يوم ٢٧ – ١١ – ١٩٥٦ حينما سأل عن سبب رفض تسليم المحكومين الى سوريا التي كررت طلبهم سبع مرات .

واما العروبة بلبنان فانها كانت كصخرة في البحر تتلقى الموجة اثر الموجة ولكنها لا تتزحزح عن مكانها، بل انها ظلت تعارك هذه الشعوبيات حتى ربحت المعركة الأخيرة .

هذا ويمكن اعتبار يوم استقلال لبنان في سنـة ١٩٤٣ بمثابة نقطة تحول في تاريخ لبنان واستقرار في موضوع عروبة لبنـان ولبننة سائر اهله : فقد كان سكان لبنان في العهد الفرنسي ، غير متفقين، وينقسمون الى قسمين : قسم يقول بالعروبة ولا يعترف بتجزئة لبنان عن سوريا ، وقسم ينادي بلبنان وطناً مستقلاً لا صلة له بالعروبة. فقام في ذلك اليوم التاريخي، خلال نشوة الانتصار المشترك على الاستعمار، شبه ميثاق قومي بين اللبنانيين ارتضى فيه انصار الوحدة السورية بالاعتراف بانهم لبنانيون بينما وافق جماعة لبنان القائلون بالقومية اللبنانية، دون العربية، على تصريح السيد

رياض الصلح رئيس الوزارة وقتئذ « بان لبنان ذو وجه عربي » وذلك بالخطاب الذي اعلنه باسم الحكومة .

وكان ذلك التصريح متفقاً عليه مع الشيخ بشاره الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية السابق. ومنذ ذلك واكب لبنان القافلة العربية في جميع مراحلها غير عابىء بدعاة العزلة . ثم لما انتخب الاستاذ كميل شمعون رئيساً للجمهورية، وكان فوزه على منافسه الاستاذ حميد فرنجية يرجع الى تأييد انصار العروبة له يومئذ اكثر من سواه ، اعتبر فوزه انتصاراً على الانعزالية التي كانت الكتائب اللبنانية والكتلة الوطنية لا تزالان تجنحان اليها . وقد تحدث فخامته في تشرين الاول ١٩٥٣ عن سياسة لبنان في عهده، داحضاً ما قيل وقتئذ، عن انحرافها فأعلن ما يلي :

« ان لبنان لن ينحرف قيد شعرة عن السياسة التي سار عليها منذ عام ١٩٤٣ ، تلك السياسة التي تجعله في طليعة الدول العربية اهتماماً بقضايا العرب وسعياً وراء توحيد الكلمة وجمع الشمل وتقوية الروابط . »

وفعلًا فان لبنان سار في موكب العروبة يداً بيد مع الدول العربية الأخرى ، وكان عضواً فعالا في مجموعتها . وبوسعنا ان نقدر النجاح الذي اصابته العروبة بلبنان ما بين ١٩٤٣ و ١٩٥٦ بالمقابلة بين موقفي حكومتي لبنان من العروبة في هذين العامين : ففي سنة ١٩٤٣ لم يستطع الاستاذ رياض الصلح، في معرض ذكر العروبة بلبنان ،ان يصف هذا البلد باكثر من أنه ذو وجه عربي، واما في سنة ١٩٥٦ فان الدكتور عبدالله اليافي رئيس الحكومة

والاستاذ عادل عسيران رئيس المجلس النيابي اعلن كل منهما بمناسبات متعددة عروبة لبنان، ولم يترددا حين التعليق على مشروع الاتحاد الفدرالي بين مصر وسوريا عن اظهار سرورهما لنبأ هذا الاتحاد، وعن الأعراب عن املهما بأن يشمل الدول العربية كلها بما فيها لبنان .

اضف الى ذلك تلك البادرة العظيمة التي بدرت من جانب الكرسي البطريركي الماروني لأول مرة في التاريخ ، واعني بها مباركة غبطة البطريرك بولس المعوشي العروبة ، ودعوته الى الاتحاد بين الاوساط اللبنانية، وذلك مذ تسنم هذه الكرسي. وكان بذلك يتكلم باسم لبنان جميعه .

ومن الجدير بالذكر ان هذا النجاح الذي اصابته العروبة بلبنان لم يحصل بسهولة، بل اعترضته مصاعب جمة كان انصار العزلة، ومن ورائهم عمال الاجانب والشعوبيون، يثيرونها في كل خطوة يخطوها لبنان شطر العروبة ، وذلك ابتداء من عهد مشاورات الوحدة العربية في مصر سنة ١٩٤٣، وابان وضع بروتوكول الاسكندرية الخاص بجامعة الدول العربية ، الى عهد المفاوضات بين سوريا ولبنان من اجل الوحدة الاقتصادية والاتفاق العسكري. ولكن حكومات لبنان مضت بالرغم عن كل المصاعب في سبيلها مع التيار العربي ، ومشت في طليعة الموكب اكثر الاحيان .

ولما برزت قضية تأميم شركة قناة السويس في صيف ١٩٥٦ وما تلاها من حرب العدوان المثلث برزت مناسبة جديدة لظهور لبنان بمظهر العروبة والتضامن معها . ورغم ان بعض المتخلفين عن

الركب كانوا قد احتجوا على رئيسي المجلس النيابي والحكومة لما صرحا به في مناسبة مشروع الاتحاد الفدرالي بين مصر وسوريا فان لبنان برئيسه الاول وبرئيسي القوة التشريعية والقوة التنفيذية وباذاعته مشى في طليعة مؤيدي مصر وزعيمها الرئيس جمال عبد الناصر معتبراً ان قضية القناة انما هي قضية العرب كافة، وان الدفاع عن سيادة مصر انما هو دفاع عن سيادة العرب وكرامتهم . ولا يزال خطاب رئيس الجمهورية الذي القاه وقتئذ في مسقط رأسه دير القمر يرن في الاذان .

وخلال ذلك بدرت بوادر اخرى دلت على تطور لبنان في صدد العروبة ، وكان ابرزها اشتراك الاستاذ حميد فرنجية في المؤتمر الشعبي العربي الذي عقد بدمشق في ايلول ١٩٥٦ ، وانتخابه بالاجماع رئيساً للمؤتمر . ولقد القى الاستاذ فرنجية في المؤتمر كلمة البلاد العربية فقال :

« اني اعتقد ان الأمة العربية قد انطلقت وعلى الدول الغربية ان تعلم بان كل محاولة للاعتداء علينا وعلى امانينا القومية وكرامتنا لن تزيد الامة العربية الا تماسكاً واندفاعاً في سبيل اهدافها العليا . »

واذا علمنا بان الاستاذ فرنجية هو رئيس اللجنة السياسية في المجلس النيابي ، وهو من اقطاب ساسة لبنان ، وان انصار العزلة الموالين للغرب كانوا يعتبرونه زعيماً من زعمائهم ادركنا اي تطور وقع بلبنان شطر العروبة.

ولقد قرر المؤتمر المذكور الذي كان يرئسه الاستاذ حميد فرنجية ، فيما

قرر ، ما يلي :

« توحيد صفوف الشعوب العربية ودفع حكوماتها الى التضامن لتعبئة جميع القوى والامكانات لاجل تحطيم الاستعمار والصهيونية ورفع شأن العرب . »

هذا وكان في جملة تلك البوادر الطيبة التي برزت ايضاً خلال حرب العدوان المثلث على مصر ما جاء في المادة الثالثة من المقررات التي اتخذتها الكتائب اللبنانية في مؤتمرها خلال شهر ايلول ١٩٥٦ وذلك في صدد حرصها على الجامعة العربية . هذا فضلا عما جاء في الكتاب المفتوح الذي وجهه رئيسها الشيخ بيير الجميل الى رئيس الجمهورية حيث قال :

« ليس بين اللبنانيين من مخلص يرضى التنكر للعروبة وموجباتها ، وليس هناك من يقبل المتاجرة باسمها دون خدمة مصالحها . اذا كانت العروبة هي اللغة المشتركة والاهداف المشتركة والعاطفة المتبادلة والخدمة لتحقيق هدف ، فبكل اعتزاز اقول ان لبنان اكثر عروبة من سواه . »

على انه من الجدير بالذكر في الختام ان لبنان وان مشى في موكب العروبة قدماً الا انه ظل ، مع ذلك ، يراعي علاقاته الخاصة بالدول الغربية ، فلم يسترسل في مجافاتها ، كما انه التزم الحياد بين المعسكرين المتصارعين. وقد بدا ذلك في مناسبات متعددة آخرها مناسبة مؤتمر ملوك ورؤساء الدول العربية الذي عقد في بيروت ابتداء من ١٣ تشرين الثاني ١٩٥٦ ، كما بدا ذلك بمناسبة مشروع الرئيس الاميركي ايزنهاور .

غير انا سمعنا صوتاً يرتفع في ٢٨-١٢-١٩٥٦ من الكسليك، حيث يعتزل الشيخ بشارة الخوري منذ تخليه عن رياسة الجمهورية اللبنانية، سمعنا صوتاً موجهاً الى اللبنانيين بمناسبة اختلاف وجهات نظرهم في مقاطعة الافرنسيين والانكليز، وذلك ابان انعقاد مؤتمر ملوك ورؤساء العرب، يدعوهم الى التمسك بشرعة الأمم المتحدة وبميثاق جامعة الدول العربية والضمان الجماعي، ويقول:

«ولا تحولوا وجوهكم عن دنيا العرب فان لكم فيها اخوان فكر وقلب ولسان. وكونوا بجانب من تعرض منهم لخطر، او مسه ضر.»

وكذلك كان شأن نجاح اللبننة في هذا البلد، بل ربما جاء نجاحها على مقدار اوفى: ففي سنة ١٩٢٢ رفض مسلمو لبنان الاقبال على الاحصاء التي قامت به دولة الانتداب كيلا يحملوا من بعد «تذكرة نفوس» تسجل عليهم انهم لبنانيون. واما الآن فقد اصبحوا المخلصون لوطنهم، واصبح اولادهم يتغنون بلبنان بل تعدى النجاح هذا المقدار الى حد ان احد اساتذة المدارس منهم اقتصر دون قصد على ما دونه الاب شيخو في كتابته عن البعث الادبي بلبنان فجاء كتابه يكاد يكون خالياً من ذكر ادباء وعلماء كثيرين انما كان اهمالهم يقوم على سياسة الانتداب. على ان التقارب بين الفريقين جاء بشير خير للبنان كان الفضل فيه الاستقلال.

● الشعوبية في سوريا

● احتل الافرنسيون سوريا بالقوة اثر معركة ميسلون سنة ١٩٢٠، ولكن احتلالهم ظل عسكرياً صرفاً لان نار الوطنية المشتعلة في قلوب الذين ذاقوا لذة الاستقلال، في حكم الملك فيصل، لم تخمد

جذورها . فوطد الافرنسيون العزم على اخمادها واستئصالها بسياسة التفريق بين الافراد والجماعات والبلاد، وباثارة النعرات الشعوبية، ولكنهم كانوا يحاولون عبثاً .

وعلى هذا القصد استهل الجنرال غورو عمله بتقسيم سوريا الى حكومات متعددة بلغت خمساً. فجعل كلا من دمشق وحلب وجبل الدروز واللاذقية والاسكندرونة حكومة مستقلة ترجع كلها، في صغائر الامور وكبائرها، الى المفوضية الافرنسية في بيروت. ونصب على كل من جبل الدروز وبلاد العلويين حاكماً افرنسياً كان يحكم حكماً مباشراً على سياسة شعوبية هدفها التفريق بينهما وبين سوريا، والتبعيد بين شعبيهما وبين العرب والمسلمين، بينما منح متصرفية الاسكندرونة استقلالاً ادارياً وامتيازات خاصة، وبث فيها روح الخلاف بين العرب والترك حتى كأنه كان يعدها لقمة سائغة لحكومة انقره تطالب بها، ثم تحتلها سنة ١٩٣٨ . وذلك بموافقة فرنسا وبالاتفاق مع انكلترا .

هذا واعتمادا على مايعرفه الافرنسيون من حرص بني معروف في حوران والجبل على استقلالهم الذاتي خلال الحكم العثماني ظنوا انهم باعلان استقلالهم هكذا عن سوريا قد بلغوا المرام وكسبوهم. والواقع ان اهل جبل الدروز الأباة ما كانوا يغترون بتبديل الاسماء والمظاهر، ولا يرضون باستبدال سيد بسيد. فاذا بهم يستهلون العهد الافرنسي بثورة سلطان باشا الأطرش، ويتبعونها فيما بعد بالثورة الكبرى التي شملت سوريا خلال سنين ١٩٢٥ — ١٩٢٧ .

وكان من المفروض ان يأخذ الافرنسيون عبرة من هـذه الثورة اسوة بالانكليز في العراق بعد ثورة ١٩٢٠ ، وان يقتدوا بهم في اختيار سياسة تسكن ثائرة الشعب ، ولكنهم بدلاً من ان يحققوا لسوريا امنيتها في اقامة دولة مستقلة بعد الثورة ، كما حدث في العراق ، فانهم كابروا واستمروا على سياستهم القديمة سياسة العنف وسياسة «فرق تسد» . وكانت دعاياتهم في جبل الدروز تثمر تارة وتمحل اخرى الى ان جمع الاستقلال بين الاخوين فاصبح الانتداب رغم كل محاولاته هباء منثورا .

على ان مهمة الافرنسيين في بلاد العلويين كانت اكثر سهولة . فهناك شعب فقير جاهل مقسوم الى عشائر وطوائف كان يحكمه زعماء اقطاعيون ، شعب كان ينظر اليه اهل المدن نظر الامتهان ، فيستعبدون رجاله ويبتاعون بناته للخدمة في المنازل . فبـدا للافرنسيين انهم اذا استبدلوا اسم تلك المنطقة واسموها بـلاد العلويين بدلاً من متصرفية اللاذقية ، واذا خصوا زعماءها بالحكم دون السوريين يستطيعون بذلك ان يروّضوها لسياستهم . ولكنهم لم يلبثوا ان اصطدموا بثورة قام بها الشيخ صالح العلي (١٩١٩ — ١٩٢١) . وما ان اخمدوها حتى مضوا في سبيلهم لتحقيق برنامجهم الاستعماري الذي يتلخص بفرنسة هذا الشعب على غرار الحكم في الجزائر .

وقد بثوا رسلهم بين اوساط هذا الشعب الجاهل يقـولون له ان الشعب العلوي هو بقية من الصليبيين ، وان الدين العلوي جزء من الديانة المسيحية . وهم بـين هـذا وذاك كانوا ينفرّونهم مـن

الاسلام والمسلمين . واستعانوا على ذلك بمدارس للتبشير انشؤها في كل ناحية ؛ كما استعانوا على ذلك ببعض المثقفين من العلويين الذين لجأوا الى سوريا من ولاية اطنه (كليكيا) ، وذلك بعد ان استردها الاتراك من الافرنسيين . وقد أصدر زعماء هؤلاء ، مجلة عربية كان الغرض منها دس هذه الشعوبية الهدامة بين العلويين ، وكان يمولها الافرنسيون .

ثم لما جمعت سوريا شملها بجهادها المستمر وشرعت تطالب بالاستقلال التام لم يتورع الافرنسيون عن مظاهرة سليمان المرشد احد زعماء العلويين حينما ادعى الالوهية واخذ يجند الجنود ويفرض الضرائب ؛ فأمدوه بالمال والسلاح وحملوه على المطالبة بالاستقلال عن سوريا وعلى تأييد فرنسا في كل مناسبة . ولكن مصيره كان القتل ومصير منطقته الالتحاق بدمشق منذ اتيح لحكومتها ان تتصرف المستقل في شؤونها الخاصة .

والى ذلك فلما اضطر الافرنسيون للجلاء عن كيليكيا ، ثم عن اسكندرونة فتحوا صدر سوريا للمهاجرين منهما على امل ان يتخذوا من الشعب الارمني الصلب شعوبية جديدة وعدواً للعرب في سوريا ، كما هو عدو للترك في السلطنة العثمانية . ولكن الارمن ، الذين رباهم الدهر ، ابوا ان يجعلوا ظهورهم مطية للاستعمار فاخلصوا لسوريا ولبنان ، وكانوا عضداً لهما حين الملمات ، فاحسنوا بالتالي لأنفسهم .

بيد ان شعباً آخر من المهاجرين وقع في احابيل الانتداب ، واعني بهم الاشوريين الذين هاجروا من العراق الى الجزيرة في

سوريا بعد فشل ثورتهم هناك. ذلك ان اغراءات رسل الكردينال تبوني زعيم الطائفة السريانية في بيروت اثارت هذا الشعب على الحكومة ابان ما كانت باريس تماطل في التصديق على مشروع المعاهدة الذي وقعه ممثلها بدمشق مع ممثلي الحكومة السورية في سنة ١٩٣٦ . وكان هذا تدبيراً من التدابير التي كانت فرنسا تقوم بها لالهاء سوريا في شؤنها الداخلية عن الوقع السيء المرتقب حدوثه يوم تعلن باريس رفض المعاهدة .

وهكذا كان الانتداب يثابر على أثارة الشعوبيات المختلفة في وجه سوريا قصد القاء العقبات في سبيل استقلالها. ولكن كل ذلك لم يجدِ نفعاً . وما ان تمتعت سوريا باستقلالها حتى خفت صوت هذه الشعوبيات ، والتفّت اجزاؤها وطوائفها حول دمشق العاصمة . ثم خطت سوريا خطوات جبارة ، سواء اكان ذلك في النواحي السياسية ، او العمرانية ، او الاقتصادية ، مما كان دليلاً واضحاً على ان الاستعمار ، الذي يزعم انه جاء لتمدين البلاد ، كان عقبة كأداء في وجه الانطلاق .

ولكن سوريا منيت في عهدها الاستقلالي بشعوبية طارئة لا تزال تعاني منها المشاكل : ذلك انه اثناء ما كان لبنان يطارد الحزب القومي السوري بعد اعدام زعيمه السيد انطون سعادة ، ثم بعد قتل هذا الحزب السيد رياض الصلح انتقاماً منه لسعادة فتحت سوريا ابوابها على رحابها لهذا الحزب واعترفت به ، حتى افسحت له المجال لأن يتمثل في مجلسها النيابي. وكان من عواقب ذلك ان تغلغل الحزب في اوساط الجيش ، ولا سيما خلال حكم السيد اديب الشيشكلي العسكري ، وان يتخذ دمشق قاعدة

لأعمـــاله .

ولما عاد الحكم المدني الى سوريا اخذ هـــذا الحزب يقوم بمؤامرات عسكرية، وذلك بالاتفاق مع الاميركان تارة ومع الانكليز تارة أخرى ، قصد الاستيلاء على زمام البلاد وبغية تحويلها شطر الوجهات التي تتفق مع سياسة هؤلاء الاجانب .

ووراء هذا القصد قتلوا عدنان المالكي رئيس اركان الجيش السوري في الأمس ، ثم تولوا كبر المؤامرة الأخيرة بالاتفـــاق مع السيد اديب الشيشكلي وغيره من ضبـــاط الجيش المسرحين وسواهم . ولكن مؤامرتهم باءت بالفشل ، ولا يزال القضـــاء السوري يحاكم المشتركين فيهـــا ، وبينهم فريق اشتهر بوطنيته واخلاصه غرر به هؤلاء فاغتروا دون علم بما وراء ذلك الانقلاب من ايدٍ اجنبية . فنحن لذلك نرجو ان يشفع ماضيهم بحاضرهم .

● الشعوبية في العراق

● حاولت لندن ، منذ احتلالها العراق ، ان تستغل خلافاً قديماً فيه كان قد نشب بين اهل السنة والشيعة قبل العهد العثماني وخلاله. ولكنها لم تفلح لأن الوطنية البارزة في الرافدين غمرت كل خلاف بين الطوائف وجمعت بينها صفاً واحداً ضد الاستعمار ، فكانت الثورة التي اشتعلت بشدة ضد الانكليز منذ صيف سنة ١٩٢٠ .

على ان انكلترا وان استطاعت، في النهاية ، ان تقمع الثورة، ولكنها لم تستسلم للعاطفة في النكاية بالمعارضين شأن فرنسا بسوريا بعد ثورة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ . وانمـــا راعت رغبات العراقيين في

الاستقلال، فانشأت دولة لهم رفعت على رأسها الملك فيصل بن الحسين، ملك سوريا السابق، وذلك على اساس معاهدة تعقد بين لندن وبغــداد .

ولكن العراقيين لم يغترّوا بهذا الحكم الصوري الذي كانت لندن تهيمن عليه فاستأنفوا النضال السلمي في سبيــل تعديل معاهدة بعد معاهدة حتى يدركوا استقلالهم الحقيقي . فــكان بينهم وبين الانكلــيز صراع متواصل حمل لندن على وضع العراقيل المختلفــة في وجـه العراق، من سياسية وشعوبية كانت تأخذ برقاب بعضها البعض، قصد تذليله واضعاف صلابته: فلما اقتحم بعض الوهابيين الحـدود العراقية سنـة ١٩٢٧ ابّان ما كانت تجري المفاوضات بلندن بين الملك فيصل الأول وبين الانكليز من اجل تعديل المعاهدة الثانية اعتبر هذا التحدي من اعمال الانكليز قصد تخفيف حدة المفاوض العراقي وتصلبه . ثم لما توالت ثورات الاكراد والسريان وغيرهمــا في العراق وطالب هؤلاء ببقاء الحماية البريطانيــة اعتبرت هذه الثورات في عداد الاعمال الشعوبية بغيــة خلق مبررات للندن على بقاء جيش الاحتلال في المطارات والمعسكرات العراقية .

وكان الأمر كذلك لان دولة الاحتلال ما ان فشلت في اثارة الخلاف بين السنة والشيعة حتى تحولت الى الناحية الشعوبية العنصرية. فبرزت ثورة اكراد السليمانية في سنة ١٩٣٠، وتلتها فتنة اخرى قام بها الشيخ محمود الزعيم الكردي الذي هاجم العراق على رأس قوة كبيرة، ورفع مذكرة الى المندوب السامي الانكليزي كرّر

فيها نغمة انشاء حكومة كردية مستقلة في كردستان تحت الانتداب البريطاني. ولكن حكومة بغداد التي كانت قد قمعت بشدة ثورة اكراد السليمانية انقضّت على الشيخ محمود ايضاً واعتقلته في ١٣ مايس سنة ١٩٣١ وشتتت جموعه.

هذا وكان يسكن في تلك الاصقاع، خلال الحكم العثماني، شعب آخر من السريان يقال انه من بقايا الأشوريين مشى في صفوف بريطانيا ضد تركيا خلال الحرب العالمية الأولى. فلما دخلت الموصل في نطاق الانتداب الانكليزي جاءت لندن بهؤلاء الانصار واسكنتهم في هذه الولاية، واغدقت عليهم رعايتها، فكانوا لها عوناً على اخماد ثورة سنة ١٩٢٠ العراقية. ثم كانوا لها انصاراً خلال نضال العراق في سبيل الاستقلال حتى بلغ من حماسهم انهم رفعوا مذكرة الى عصبة الأمم المتحدة في جنيف يحتجون فيها على مطالبة بغداد بالاستقلال، ويناشدون العصبة بان ترفض اي طلب في صدد جلاء الانكليز عن العراق. ولما قرر مجلس العصبة في ١٤-١٢-١٩٣٢ ردّ احتجاجهم؛ واكتفى بان اوصى بهم خيراً وطلب اسكان الذين لا اراضي لهم خرجوا على العراق بقوة مسلحة، او بكلمة اخرى سيقوا الى الثورة بغية الهاء العراقيّين وصرفهم عن التشديد في طلب الاستقلال. ولكن حكومة بغداد لم ترأف بهم، رغم تدخل الدونينج ستريت، وقضت على ثورتهم بشدة.

ومضى العراق في سبيله يناضل بقوة عن استقلاله بالطرق الديبلوماسية حتى اذا ما بلغ هدفه قضى على هذه النزعات الشعوبية وانتفاضاتها، وادرك ما ادرك من الازدهار.

● الشعوبية في فلسطين .

● لاحظت دول الاستعمار في صراعها مع الشرق العربي ، منذ اوائل هذا القرن ، نهضة عنده تتفاعل فيها عوامل التقدم في النواحي الفكرية والقومية مما قد يكون خطراً عليها في المستقبل القريب ، ولا سيما اذا اتيح لهذا الشرق الاتحاد .

ولكن الحرب العالمية الأولى التي نشبت وكان مصيرها ، في اول الأمر ، يبدو مكفهراً بالنسبة للحلفاء حمل هؤلاء على ان يمدوا أيديهم للعرب ليمشوا في صفوفهم . ولم تتورع انكلترا ، التي كانت تفاوض شريف مكة باسم حلفائها ، عن اعطـــاء العرب الوعود والمواثيق في صدد استقلالهم بعد الحرب واتحادهم في حين انها كانت تضمر لهم خلاف ما تعلن . أجل وبينما كانت المفاوضات تجري بين الشريف حسين بن علي وبين السير مكماهون في مصر كانت مفاوضات اخرى بين هؤلاء الحلفاء (بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا) تجري بشأن الاتفاق على قسمة ارث تركيا التي كانت تعرف بلغة السياسة ، بالرجل المريض .

كذلك وخلال ما كانت فرنسا وانكلترا تعدان العرب بانشاء الدولة العربية الموحدة ، وتنثران تصريحات متوالية كلها اغراء لهم كانتا تتآمران ، في نفس الوقت ، ليس على العرب وحدهم ، بل على حليفتيهما روسيا وايطاليا ايضاً في صدد اقتسام هذه التركة . وانتهت هذه المؤامرة السرية بينهما الى عقد معاهدة سيكس - بيكو وذلك في

نفس الشهر الذي عقدتا فيه معاهدة أخرى مع روسيا دون علمٍ منها بما كان يجري بين الحلفاء الآخرين .

ولم تقف هذه الخيانة عند هذا الحدّ بل دخل الانكليز ، في الوقت نفسه، بمحادثات رسمية مع الصهيونيين افضت الى صدور وعد بلفور المشؤوم في تشرين الثاني سنة ١٩١٧ . وهو يقضي باعطاء اليهود حق تأسيس وطن قومي لهم في فلسطين. وكانت غاية الانكليز منه.

اولاً : الاستفادة من قوى اليهود العالمية .

ثانياً : اقامة حاجز اجنبي بين الامصار العربية في آسيا وبين شمالي افريقيا يحدّ من تضامنها على مكافحة الاستعمار .

ثالثاً : اعداد قاعدة استراتيجية لانكلترا على البحر المتوسط بفلسطين تعتمد عليها اذا أفلتت مصر من الحماية .

وقد انتهت الحرب باحراز الحلفاء النصر بمساهمة العرب . ولكن لندن برّت بوعدها للصهيونية. واما البلاد العربية في الشرق الأدنى فكان نصيبها التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا ، واستعمارها تحت اسم جديد يسمى الانتداب . فجاء هذا التقسيم بمثابة المرحلة الاخيرة من مراحل اماني الاستعمار التي طالما تاقت اليها نفوس هؤلاء الحلفاء الاوفياء !

وكانت فلسطين في القسمة من نصيب الانتداب الانكليزي . فتسنى بذلك للندن ان تبرّ بوعدها للصهيونية الشعوبية بما اجزلت لها من مساعدات خلال الانتداب من اجل تحقيق الوطن القومي اليهودي ، حتى اذا ما اطمأنت الى استعداد اليهود الكافي اعلنت سحب انتدابها (١٩٤٨) عن فلسطين تاركة لليهود الفرصة ليعلنوا من بعد

قيام دولة اسرائيل .

ثم لم تقف انكلترا بعد ذلك مكتوفة اليدين ، بل تضافرت مع الولايات المتحدة وغيرها ، وذلك اثناء الحرب التي نشبت بين العرب واسرائيل ، من اجـــل تأمين النصر للصهيونيين بطرق ديبلوماسية ، تلك الطرق التي افضت الى انقسام الصفوف العربية .

وقد اتيح للدولتين بقيام اسرائيل زج شعوبية مسلحة بين البلاد العربية ليس كمثلها شعوبية ، ودسها سرطاناً في قلب هذه البلاد تظنان ان لا شفاء منه . ولكن الظروف جاءت على غير ما تريدان وعلى غير ما يشتهي سائر المستعمرين . فاذا بالعرب يثبون وثبتهم الجبارة فيحررون بلادهم من الاستعمار سياسياً كان ام اقتصاديـــاً ، واذا بهم يقفون في صراعهم ضد الغرب موقف النظير للنظـير ؛ واذا بهم يتأهبون لاستئصال هذا السرطان .

وحينئذ اشفقت انكلترا على مصير لقيطتها اسرائيل فاكتسبت مناسبة تأزم الحالة بينها وبين القاهرة في قضية قناة السويس ، وأمدتها بالاتفاق مع فرنسا ، بالطائرات والمعدات الحربيـــة والاخصائيين ، ودفعتها لمهاجمة مصر على غرة في آخر تشرين الاول سنة ١٩٥٦ . وكانتا ترسلان التصريح اثر التصريح بانها اضطرتا للحرب دفعـاً للخطر الذي يحيق باسرائيل ، مما جعل ساسة العالم يرددون القول : متى كان من العدل والانصاف صب العدوان على صاحب الدار وقتله لترك المجال الى اللص المهاجم كيما يتم عمله ؟

وقد هدم هذا التصرف الاخرق سياسة انكلترا التقليدية التي كان يلتزمها تشرشل الصهيوني حينما كان يتضامن مع الصهيونية

من اجل تحقيق وعد بلفور وقيام اسرائيل بالطرق الديبلوماسية، وكشف هذا التهور القناع عن وجهي لندن وباريس في عهدي ايدن وغي موليه، واظهرهما بمظهر الحامي لاسرائيل والصهيونية علانية .

وقد منيت انكلترا وفرنسا واسرائيل بالفشل المعنوي الذريع في حرب العدوان المثلث ، ولكن لندن وباريس لا تزالان تزينان لربيبتهما كيما تتمرد على قرار هيئة الامم المتحدة القاضي بوجوب الجلاء عن قطاعي غزة وشرم الشيخ قصد ان تتخذ انكلترا من قطاع غزة قاعدة حربية كقبرص تعوّض عليها ما خسرته بالجلاء عن مصر وقناة السويس . ولكن اتحاد العرب، ومن ورائه الكتلة الآسيوية الافريقية ذات النفوذ الكبير في هذه الهيئة، كفيل بان يرد الحق الى نصابه سواء اكان ذلك في هذين القطاعين ام في فلسطين كلها . وكل آت قريب .

● الشعوبية في مراكش.

● وجدت فرنسا ارضاً خصبة في مراكش لاثارة الشعوبية وذلك لكثرة البربر فيها واستنادا الى ما وقع بينهم وبين العرب في التاريخ من التنافس السياسي. لذلك فانها ما ان بسطت حمايتها سنة ١٩١٢ على تلك البلاد حتى انها لم تقتصر على التفريق بين اخوين مواطنين لا يعرفان جامعة لهما غير الاسلام بل انصرفت الى خلق امة جديدة من البربر ليس لها اية صلة بالعرب حتى في الدين، وذلك بمحاولتها الرجوع بالبربر الى تقاليد قديمة شاءت ان تجعل منها شريعة لهم.

وقد ضغطت فرنسا على مولاي يوسف سلطان مراكش حتى استصدرت من جلالته سنة ١٩١٣ (ظهيراً) جاء فيه :

« ان القبائل ذات التقاليد البربرية يجري عليها الحكم والادارة بموجب شرعها الخاص وعاداتها . »

وبذلك استطاعت ان تقسم مراكش المسلمة الى فئتين ذاتي شرعين مختلفين؛ غير ان نشوب الحرب العالمية الاولى بعد عام من صدور هذا الظهير حال بين فرنسا وبين استغلال مشروعها لانها وجدت نفسها مفتقرة الى اجتناب ما ينفّر قلوب المراكشيين الاشداء الذين تعتمد عليهم في الحروب ، فأرجأت تنفيذ الظهير .

لكن ما ان لفظت الحرب انفاسها حتى وجد مسيو لوسيان المقيم العام في مراكش الفرصة السانحة من اجل تطبيق هذا الظهير ، بل لاستصدار ظهير آخر اشد تأثيراً منه في التفريق بين المراكشيين. وتمهيداً لذلك اختار خليفة للسلطان يوسف المتوفي وقتئذ ثالث انجاله؛ وهو سيدي محمد سلطان مراكش الحالي . وقد اختاره دون سائر اخوانه المتقدمين عليه في السن لان عمره كان لا يتجاوز الثامنة عشر ربيعاً . وقد وجد في صغر عمر السلطان الجديد سهولة للحصول على توقيعه على ظهير آخر (١٦ مايس ١٩٣٠) وضعه فورا موضع التنفيذ .

وكان هذا الظهير يقضي باغلاق محاكم الشرع الاسلامي بين البربر لترجع قضاياهم الى هيئة تؤلف منهم تسمى « الجماعة » ترتبط مباشرة بالسلطة الافرنسية ، كما كان يقضي بتنصيب قضاة افرنسيين بين البربر قيل ان الغاية من وجودهم الاستعانة بهم على دراسة وتطبيق العادات

والتقاليد البربرية . واصدر مرسوم يقضي بان يكون قانون الجزاء الافرنسي ساريا على البربر .

وقد قابل العالم الاسلامي في مراكش وغيرها هذا الظهير باحتجاجات شديدة، وكان من اكثر المتحمسين في الاحتجاج عليه الامير شكيب ارسلان في جنيف حيث كان يصدر بالافرنسية مجلة القومية العربية « Nation Arabe » . ولكن المقيم العام الافرنسي في مراكش لم يأبه لهذه الاحتجاجات؛ بل ازداد نشاطاً في وضع تدابير من شأنها تحقيق الاهداف السياسية المتوخات من هذا الظهير .

وكان في جملة ذلك تعبئة الارساليات المسيحية وسوقها الى بلاد البربر ومساعدته لها على نشر النصرانية بحجة ان هؤلاء كانوا نصارى قبل الاسلام . هذا بالاضافة الى اقامته الصعوبات في وجه اختلاط البربر بالعرب حتى اجاز لنفسه ان يرسم بعدم الانتقال بينهما الا بجواز سفر .

وكان لا بد للمستعمر، في سبيل احلال الشقاق محل الوفاق بين المواطنين، من استخدام بعض المائعين من المثقفين المراكشيين، بالاضافة الى الافرنسيين، وذلك لخلق شعوبية جديدة بمراكش مهمتها الحملة على العروبة، واثارة النعرات العنصرية .

ولكن القومية العربية في مراكش كانت كالصخرة على شاطىء البحر لا تؤثر عليها تلك الموجات الاستعمارية، بل كانت تلك الموجات تنحسر عنها وترتد تباعاً فتبدو الصخرة اكثر نقاوة من ذي قبل؛ حتى اذا حان الحين وتمّ استقلال البلاد وتوحيد كلمتها جاء ذلك عن يد ذلك العاهل الذي استغل المستعمر صغر سنه لاخذ توقيعه

على ذلك الظهير المشؤوم ، واعني به منقذ مراكش السلطان محمداً الخامس العاهل القائم الذي قاد شعبه بحكمة وثبات الى ذروة الاستقلال رغم الاضطهاد والتهديد والنفي التي كانت تزيده نشاطاً على نشاط .

ولما خف الجلاوي باشا زعيم البربر المنشقين ، الذي كان يمثل الاستعمار ، الى لقاء السلطان في باريس وذلك اثناء عودة جلالته من المنفى لتسنم عرشه المستقل، وركع امامه مستغفراً ، كان هذا هو الفصل الأخير من مأساة الاستعمار في تلك البلاد العزيزة .

● الشعوبية في الجزائر .

● ان الجزائر التي حملت السيف في وجه فرنسا حين الاحتلال سبع عشرة سنة بقيادة الامير عبد القادر الجزائري ، ثم لم تستكن بعد الاستسلام ، بل والت الثورات عشرين سنة اخرى قبل ان يحظى المستعمر بالاستقرار .. ان هذه البلاد الباسلة برهنت باتحاد كلمة البربر والعرب وبصلابتهم جميعاً على ان اثارة الشعوبية فيها ليس امراً مجدياً. لذلك فان باريس عمدت منذ الاحتلال الى استئصال كل مناعة في تلك البلاد .

وقد خيّل للجمهورية الرابعة ان الاستعمار قد اكتمل حينما اعلنت ان الجزائر قطعة من فرنسا. والواقع أنه كان من جهلها اساليب السياسة انها استخفت بوميض البرق الذي ظل خافتاً تحت الرماد ، ولم تحسب لضرامه ايّ حساب، وراحت رغم اعتبارها الجزائر جزءاً منها ، تميّز في المعاملة والحقوق بين المسلمين وبين الافرنسيين والمتفرنسين من شذاذ الافاق ؛ فاذا بالجزائريين من بربر وعرب

ينتفضون انتفاضة الاسد ، ويعودون الى امتشاق الحسام؛ كأن قرناً وربع قرن استعمل فيهما المستعمر كل قواه لفرنستهم لم يأتيا عليهم ، وكأن مهمة الامير عبد القادر الجزائري لمّا تنتهي حتى الآن .

اما حرب الابادة التي اعلنتها عليهم حكومة باريس في البر والبحر والجو منذ سنتين ونيف ، واستخدمت فيها قرابة نصف مليون جندي مزودين باحدث المعدات وافظع المدمرات فهي وإن اتيح لها ان تبيد جمعاً غفيراً من الجزائريين المقاتلين وغير المقاتلين فلن تستطيع ان تبدل شيئاً من ايمانهم ، ولن تستطيع ان تثنيهم عن عزمهم . ولابد لهم من ادراك الاستقلال التام .

● الشعوبية في تونس .

● واجهت فرنسا حين احتلال تونس مدنية عربية زاهرة وعرشاً ثابتاً وجهاز حكومة منظمة ، فكان عليها ان تقاوم هذه المناعة بطرق شعوبية مختلفة الألوان ، وباساليب سياسية متنوعة الاشكال . من ذلك ان المستعمرين فتحوا في اواخر عام ١٩٣٢ امام التونسيين ابواب التجنس بالجنسية الافرنسية اسوة بما فعلوا من قبل بمراكش ؛ واستصدروا من رجال الدين فتاوى تنصّ على ان تجنس المسلمين هذا لا يتعارض مع الدين ؛ فخلقوا بذلك شعوبية جديدة تألفت من المتجنسين الذين يعتبرون مواطنين افرنسيين ، لهم ما للافرنسيين من ميزات وتسهيلات وفوائد ؛ وكان اكثر هؤلاء من اليهود وشذاذ الآفاق ؛ واقلهم من طلاب المنافع من المسلمين .

ولكن التونسيين اظهروا سخطهم الشديد على هـــذه البدعة الاستعمارية ، وكفّروا المتجنسين منهم وقاطعوهم الى حد انهم رفضوا دفنهم في مقابر المسلمين . وقد ادى ذلك ليس الى التفرقة فحسب ، بل ادى الى وقوع اصطدامات جديدة افسحت المجال للجيش لان يتدخل . هذا فضلاً عن انه لما شـــاء المستعمرون انشاء المجلس الاستشاري ، قبيل الحرب العالمية الاخيرة ، عمدوا الى تمييز المواطنين الافرنسيين عن غيرهم فقسموا هـــذا المجلس الى قسمين : قسم الافرنسيين ، وكان له القول الفصل ، وقسم التونسيين الذي لم يكن له من الأمر شيء ، وذلك تشجيعاً للتجنس ، فضاعفوا نقمة اهل البلاد عليهم .

ولكن ما ان نادى منادي العروبة « حيّ على الاستقلال » حتى برز ذلك النمر سليما معافى لم يُقلّم له ظفر ، ولم يشذب منـه ناب ، فانقض على الاستعمار انقضاضاً ، وما زال يعاركه حتى قطّع احابيله الاستعمارية وحمله على الانسحاب ولسان حاله يقول « السلامة غنيمة » .

● الشعوبية في ليبيا .

● حينما غزت ايطاليا ليبيا سنة ١٩١١ كانت تلك البلاد ، وهي موطن الطريقـة السنوسية القوية ، لا تتحسس الا بالجامعـــة الاسلامية . وبهذا الشعور خفت الى قتال المعتدين ملتفّـة حول جيش عثماني قليل العَدد والعِدد ، ولم تعبأ بسياســة التفريق بين ترك وعرب التي لجأ اليها ساسة روما .

ولما اضطرت السلطنة العثمانية الى عقد الصلح مع ايطاليـــا (١٩١٢) للتفرغ الى حرب دول البلقان المتحدة عليها، تلك الحرب التي جُرّت اليها جراً، تعهدت استامبول في المعاهدة بسحب جيشها من ليبيا وبأن تسدي النصح الى اهلها للتفاهم مع ايطاليـا. ولكن الليبيين ظلوا يناضلون بضراوة ولا يعبأون بمظالم الايطـاليين ولا بقوتهم. ولولا قيام الفاشيست في روما لكان تحرير البلاد وقتئذ امراً مرتقباً. غير ان موسوليني ظل يسوق الحملات عليهم مدة تسع سنين منذ ١٩٢٩ الى ١٩٣١ الى ان استطاع الاستيلاء على ليبيا.

وقد اختار الفاشيست في استعمار ذلك القطر المنهاج الذي اصطفاه الافرنسيون في الجزائر لأنفسهم: فاستولوا على الاراضي الزراعية، واسلموها الى جاليتهم، وعملوا على قتل اللغة العربية لافساح المجال للغتهم؛ ولكنهم، خلافاً للافرنسيين، درجوا، اثناء تطبيق هذا المنهاج، على طريقة مصانعة اهل البلاد واسترضائهم بطرق اخرى. وما كان اكرمهم في منح القاب الشرف الايطاليـــة، واجراء المرتبات على بعض دعاتهم، وعلى فريق من رجال الدين؟

وكانت دعاياتهم لا تقتصر على الداخل بل تتعداها الى الخارج: فكانت تصلني جريدتان باللغة العربية تنوهان بمآتي الطليان في ليبيا من مثل انشاء المساجد والمدارس، فضلاً عن ايرادها أنباء الأوسمة التي كانت تمنحها السلطة بكرم حتى خيّل لي انه لم يبق احـــد هناك بدون وسام أم لقب!

غير ان حكومة الدوتشي انتهت في سياستها الاستعمارية الى ما انتهت اليه فرنسا في الجزائر اذ قررت في اواخر عـام ١٩٣٨

اعتبار ليبيا جزءاً لا يتجزأ من ايطاليا . ولكنهـا لم تجن اية ثمرة من هذا الضم لان الجلاء عن ليبيا كان امراً مقضياً بعد ان باءت مع المانيا بالفشل في الحرب العالمية الثانية .

وكم كنت احزن على اخواني في ليبيا لما انتابهم من المصائب اثناء تلك الحرب لان موقعها الجغرافي جعلها ساحة قتال للمعسكرين في مدهما وجزرهما . ثم لما تقرر النصر هناك للحلفاء احتلت بريطانيا برقة (١٩٤٣) فطرابلس، بينما احتل الافرنسيون فزان ومنطقتها. ومع كل ذلك فان اهل ليبيا لم يرزحوا تحت سنابك المصائب ، بل خفوا الى المطالبة باستقلال وطنهم يؤيدهم في ذلك اخوانهم العرب في مؤتمراتهم واحزابهم وفي جامعة الدول العربيـــة حتى ادركوا امنيتهم سنة ١٩٥٢، وبايعوا ملكاً عليهم هو زعيم مجاهديهم السيد ادريس السنوسي الذي قضى حياته مناضلاً في سبيل استقلال وطنه. وقد اتيح لي ان اتشرف بمعرفته اثناء وجوده بمصر .

وشاءت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الامـــيركية كسب صداقتهم بغية استبقاء ليبيا مركزا استراتيجيا لهما ، فوالتـا امدادها بالمساعدات الحربية والمالية. على ان ليبيا وان شكرتهما على مدهما اليها يد المساعدة الا انها ظلت عربية مخلصة، وظلت جزءاً من الوحدة العربية الروحية حتى انها لم تتخلف ، عندما برزت مشكلة تأميم قناة السويس ١٩٥٦ ، عن ركب الدول العربية ، بل اظهرت في تأييدها لمصر اخلاصاً وجرأة تغبطها عليها شقيقاتها : فان وكيل وزير خارجيتها أبلغ ممثلي الدول رسميا تأييدها لمصر. وفضلا عـن ذلك فانه هدّد وزير اميركا المفوض في طرابلس بان حكومته

لا تستطيع ان تضمن سلامة المطار الاميركي ان استخدم المعتدون القوة ضد مصر. ولما سأله الوزير المفوض اذا كان هذا يعتبر انذاراً اجابه المتحدث بلسان وزارة خارجية ليبيا : «نعم هذا انذار يصدر عن جلالة الملك والشعب والحكومة . » وزاد على ذلك قوله: «وربما اضطرت ليبيا لقطع الماء عن المطار . » ثم كان لليبيا مواقف اخرى مشرفة حينما اقدمت انكلترا وفرنسا على مهاجمة مصر بالاتفاق مع اسرائيل .

فبورك بهذا الاتحاد القومي الذي لا تؤثر عليه ، اعطيات ولا مساعدات متى حك الركاب بالركاب في القضايا القومية .

الفصل الثاني

الشعوبيون يستغلون ابن خلدون

نقاش مع الاستاذ انطون سعادة

زارني في بيتي الاستاذ انطون سعادة زعيم الحزب القومي السوري قبيل الحرب العالمية الثانية ، فسررت بلقائه لاني كنت معجباً بقوة حجته واطلاعه واقدامه. هذا فضلا عن تقديري لنجاحه في خلق منظمة بلبنان تحمل اسم « الحزب القومي السوري » ابان ما كان الانتداب وانصاره يستولي عليهم الذعر اذا ذكرت الوحدة السورية . وقد علمت سبب زيارته لي ، على غير تعارف سابق ، بانه جاء ليشكرني على موقفي تجاهه حينما أُلقي في غيابة السجن اثر دعوته الى الوحدة السورية . او ان يكون التقاؤنا على صعيد واحد : صعيد محاربة التجزئة ، شجعه على ان يزورني ويفاوضني في أمر حزبه . ذلك اني كنت قبل ظهور حزبه في طليعة الذين يحملون علم الدعوة للوحدة السورية ، ويشجبون عمل الافرنسيين في التجزئة عملاً بمبدأ « فرق تسد ». وقد نشرت لي الصحف وقتئذ مقالات وخطبا في هذا الموضوع ، ومنها مقال صدر

في جريدة الرأي العام البيروتية يوم ١٣ كانون الأول سنة ١٩٢٣ بعنوان « سورية للسوريين » .

ولكن زائري لم يتعرض لذكر سبب الزيارة. ولما انتهينا من المجاملات حسبت الفرصة سانحة لأعرب له عما كان يدور في خاطري بصدد حزبه، فصارحته برأيي الذي يتلخص بانـه لو قامت دعوة الحزب على اساس القومية العربية للقيَ من الاقبال في كل البلاد السورية مالا يتسنى له ادراكه اذا ظل الحزب يعتبر سوريا امـة كاملة مستقلة عن الأمة العربية .

وقد صارحته بهذا وأنا اعتقد ما اقول لان كلمة الاوساط العربية كانت مجمعة في بلاد الشام على شجب التجزئة التي تولت كبرها دولة الانتداب . ولكن الاستاذ سعادة لم يرتح لنصيحتي لان أولى مبادي حزبه الاساسية تقوم على اساس «سورية للسوريين، والسوريون امة تامة . » وكان صريحاً في اعلان رأيه. ثم لم يتورع عن ان يطرح عليّ هذا السؤال : « هل كان للعرب مدنيـة جديرة بان تحملنا على الانتساب اليهم ؟ » وقبل ان يفسح لي المجال للجواب على هذا السؤال راح يدلل على قصور العرب الفطري ، وعلى تفاهة المدنية العربية مستنداً ، في كل ذلك، الى اقوال ابن خلدون .

ولكني كنت صريحاً ايضاً في الدفاع عن قومي وحضارتهم . ثم افترقنا على غير اتفاق . غير ان هذا النقاش ظل ماثلاً امامي ، وكان حافزاً لي على دراسة مقدمة ابن خلدون دراسة وافية للتثبت ممّـا اذا كان صاحبها يريد الاعراب دون العرب ؛ ام انه كان يريد قومه أنفسهم . واذا كان الأمر الثاني فما هي الاسباب

التي حملت هذا العربي المحقق على انتقاص قومه ؟

وقد عالج هذا الموضوع بعض اكابر كتابنا ؛ وكان آخرهم الاستاذ ساطع الحصري الذي عقد له فصلاً خاصاً في كتابه « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » ، جنح فيه الى تأييد رأي القائلين بأن ابن خلدون استعمل كلمة العرب للدلالة على البدو والاعراب ، دون العرب ، مما قد يغنيني عن الرد على المستشهدين باقوال ابن خلدون في هذه الناحية .

بيد اني وان كنت اذهب هذا المذهب الا انه لا يسعني الا الاعتراف بان صاحب المقدمة سلك احياناً سبيلاً يكتنفه الألتباس ؛ هذا فضلاً عن ان اقواله في العرب أنفسهم كانت تأتي احياناً اخرى على شيء من المناقضة فيما بينها ، وعلى شيء من الغموض .

اما وان ذلك الكاتب البليغ ، الذي يأتي بالبينات اذا شاء ان يعبر عن ضميره ، كان بوسعه ان يسلك سبيلاً آخر في الكلام على قومه دون ان يعتوره هذا الالتباس ، ودون ان تحيط به الظنون واما وانه لم يفعل فقد حملني هذا على الاعتقاد انه كان يتعمد هذا الاسلوب لغاية في نفسه ؛ ثم جعلني احاول كشف الستار عن هذه الغاية بغية ان لا يبقى للشعوبيين مجال آخر للاعتماد على الشبهات في اقواله حين محاربة العرب والعروبة على اعتبار ان ابن خلدون هو واضع علم فلسفة التاريخ .

والجدير بالذكر هنا ان الحزب القومي السوري الذي اتخذ فيما بعد اسم « الحزب القومي الاجتماعي » مداراة للسياسة شرع يلطف موقفه من العروبة بعد وفاة زعيمه وذلك مجاراة للرأي العام . وها هو يصدر بعض النشرات التفسيرية لمبدأ حزبه تظهر

زعيمه في مظهر الحريص على اللغة العربية الصحيحة ، وانه كان لا يرضى بديلًا عنها في حديثه وفي مناقشات حزبه. وصدّر الحزب احدى تلك النشرات بالعبارة التالية : « نحن حماة الضاد ومصدر الاشعاع الفكري في العالم العربي . » وهذا تحول محمود ارجو ان نلتقي في نهايته عند صعيد الاماني العربية واهدافها .

غير ان هذا التحول في سياسة الحزب ، سواء أكان في صدد تبديل اسمه ام في موقفه من العروبة، لم يتطرق، في الواقع ، الى مبادىء الحزب بالنسبة للعرب والعروبة . فقد اهدتني اخيراً عمدة اذاعة الحزب سفراً صدر للاستاذ سامي الخوري في الرد على كتاب الاستاذ ساطع الحصري « دفاع عن العروبة » حاول فيه مؤلفه تأييد ما جاء في كتاب « نشوء الامم » لزعيم الحزب « بأن مدلول كلمتي العرب والعروبة يرتبط مع مدلول البدو والبداوة والصحراوية . » وهو في ذلك يستند ايضاً الى مقدمة ابن خلدون حيث انتهى به المطاف في تعريف البدو والبداوة الى القول (البحث الثاني من الفصل الثاني) ما يلي :

« واما من كان معاشهم في الابل فهم اكثر ظعناً وابعد في القفر مجالاً لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغني بها الابل في قوام حياتها عن مراعي الشجر بالقفر وورود مياهه الملحة ، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً من اذى البرد الى دفء هوائه وطلباً لماخض النتاج في رماله ؛ إذ الابل اصعب الحيوان فصالاً ومخاضا، واحوجها في ذلك الى الدفء ؛ فاضطروا الى ابعاد النجعة ، وربما زادتهم الحامية عن التلول ايضاً فأوغلوا في القفار

نفرة عن الضعة منهم ، فكانوا لذلك اشد الناس توحشا وينزلون من اهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم . وهؤلاء هم العرب ؛ وفي معناهم ظعون البربر وزناتة بالمغرب ، والاكراد والتركمان والترك بالمشرق . »

وقد مسخ الاستاذ سامي الخوري قول ابن خلدون هذا مسخاً كيما يوهم القارىء بان ابن خلدون كان يريد به العرب انفسهم دون الاعراب في بداوتهم ، وكيما يجيز لنفسه ان يقول : « وهذا المدلول الاجتماعي هو الذي يطلقه ابن خلدون على العرب في كل مقدمته . »

والواقع ان ابن خلدون انما كان في هذا القول يتكلم على الاعراب فحسب : الاعراب اهل البادية ، اذ جاء قوله هذا في فصل عنوانه : « العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل » . واما العرب المتحضرة قبل الاسلام وبعده فكثيراً ما اشاد بهم في مقدمته ، واطرى مدنيتهم وعمرانهم .

لذلك كان عليّ ان استهل هذا الكتاب بالرد على اولئك المواطنين الذين ما زالوا يختارون من اقوال ابن خلدون ما يتفق مع اهوائهم للحط من شأن العرب . وهم لو انصفوا لمضوا في تأييد نظريتهم دون التعرض بسوء لقومية يقيمون بينها ابان ما هبت الى مصارعة الاستعمار ببسالة واتحاد ، قومية يقدسها ملايين من الناس ، ويؤيدها العالم الاسلامي من اقصى الشرق الى اقصى الغرب .

١ – هل كان ابن خلدون يوجه الذم للاعراب ام للعرب ؟

● وردت في الجزء الثاني من مقدمة ابن خلدون[١] فصول اربعة بالعناوين التالية :

● ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط .

● اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب .

● ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوءة أو ولاية.

● ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك .

وقد كانت هذه العناوين ، بما جاء فيها ، حجة للشعوبيين تمسكوا بها للتنقيص من شأن العرب . والواقع ان ابن خلدون انما كان يتكلم في هذه الفصول الاربعة على البدو الذين هجاهم القرآن الكريم بقوله : « والاعراب اشد كفراً ونفاقاً . » ذلك لانها وردت في الجزء الذي عنوانه : « في العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل . » هذا فضلًا عن ان ابن خلدون كان واضحاً في الدلالة على انه كان يريد هؤلاء البدو دون سواهم بما ورد في هذه الفصول من عبارات لا تصدق الا على البدو وحدهم كقوله :

● « ان العرب ابعد نجعة واشد بداوة لانهم مختصون بالقيام على الابل . »

● « ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط . »

---

(١) ان الاقوال التي نوردها لابن خلدون في هذا البحث مأخوذة عن مقدمته التي اصدرتها المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٩٠٠ م .

● انهم بطبيعة التوحش الذاتي فيهم اهل انتهاب وعبث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرون الى منتجعهم بالقفر . »

● «فالحجر مثلاً انما حاجتهم اليه لنصبه اثافي القدر من المباني ، ويجرونها عليه ويعدونه لذلك ، والخشب ايضاً انما حاجتهم اليه ليعمروا خيامهم ويتخذوا الاوتاد لبيوتهم .»

واما العرب فقد اشاد بهم ابن خلدون كل الاشادة في الفصول الاخرى ، سواء من كان منهم قبل الاسلام ام بعده . وقال في معرض الاشادة بهم :

● « ما كان في القديم لاحد من الأمم في الخليقة ما كان لاجيالهم من الملك . ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك . ثم دولة مضر في الاسلام: بني امية وبني العباس. »

● « ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له ، وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه الأمم ، حتى اذا تبجحوا من السلطان والدولة ، واخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم ، وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى الاطلاع على العلوم العقلية . »

● « وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر ، وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم ، وانتسخت الكتب ، واجيد كتبها وتجليدها ، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له ، وتنافس اهل الاقطار في ذلك ، وتناغوا فيه » .

● « ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية ، وتناقص ذلك اجمع ، ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط

والكتابة ، بل والعلم الى مصر والقاهرة . فلم تزل اسواق بهـــا نافقة لهذا العهد . »

● « واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لمـّا كثر عمرانها في صدر الاســـلام ، واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم ، وتفننوا في اصطلاحات التعليم ، واصناف العلوم، واستنباط المسائل والفنون **حتى اربوا على المتقدمين وفاقوا المتأخرين** . ولما تناقص عمرانها ، واندعو سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جملة ، وفقد العلم بها والتعليم ، وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام . »

وعلى هذا النحو مضى ابن خلدون في اطراء قومه كل الاطراء في مواضع أخرى من مقدمته مما يحملنا على التساؤل مستغربين كيف اجاز الاستاذ انطون سعادة لنفسه ان يتجاوز هــــذه الشهادات الطيبة، التي لم يقل احد بأنها وردت في حق غير العرب، الى اقوال أخرى وجهها صاحب المقدمة الى البدو دون العرب ؟ ولماذا اقره عليها بعض خلفائه ؟

٢ ـ مصدر الالتباس في مقدمة ابن خلدون .

● لقد كان ابن خلدون جلياً في انه كان يذم البدو دون العرب وذلك بالفصول الأربعة التي جاءت تحت عنوان «في العمران البدوي والامم المتوحشة والقبائل . » كما كان واضحاً ، فيما بعـد ، بانه كان يطري العرب ويشيد بهم وبحضارتهم في الاسلام وما قبله .

ولكن مصدر الالتباس يرجع الى انه في الحالتين استعمل كلمة العرب فترك المجال للشعوبيين لان يتجاوزوا قصد المؤلف الى التمسك بالكلمة دون المعنى ، والى اتخاذهـا حجة لهم للتنديد بالعرب ، وللحط من شأنهم .

أضف الى ذلك ورود نصوص لابن خلدون في بعض المواضع جاء فيها شيء من الابهام إذ تظهر احياناً كأنها متناقضة ، واحياناً كأنها تتنقص استعداد العرب الفطري وحضارتهم . مثلاً فبينما هو يعدّ العرب في مصاف الأمم العمرانية وذلك فيما اوردناه عنه من الامثلة نقلاً عن الصفحتين ١٥٢ و ٤٢٠ من مقدمتـه ، وبينما هو يخص بعض امصار الجزيرة العربية بالاطراء ، كما في الصفحتين ٨٥ و ٤٠٤ ، اذا به يقول في مكان آخر عنوانه ان العرب « اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب » « وانظر الى ما ملكوه وتغلبوا عليه في الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانـه ، واقفر ساكنه ، وبدلت الارض فيه غير الارض . » مستدلاً على ذلك بقوله : « فاليمن قرارهم خراب الا" قليلاً من الامصار ، وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس اجمع ، والشام لهذا العهد كذلك وافريقية (تونس) والمغرب لما جاز اليها بنو هلال وبنو سليم منذ اول المائة الخامسة ، وتمرسوا بها لثلاثماية وخمسين من السنين قد لحق بها ، وعادت بسائطه خرابا كلها . » ثم يستدل على ذلك ايضاً بالكوفة والبصرة في العراق والقيروان في تونس .

ويبدو التناقض هنا ظاهراً ولا سيما حيـنما يستشهد بخراب

الامصار والمدن العربية في العهد الاسلامي في سياق كلامه على البدو وانهم اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب.

كما انه وقع في مثل هذا التناقض في الفصل ٢٨ من الفصل الثاني حيث قال في الصفحة ١٥٢ بعد الاشارة الى ان طباع العرب تتنافى مع العمران والسياسة، وهو يريد البدو، قال ما يلي :

● « وانما يعودون اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من انفسهم . وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه . واعتبر ذلك بدولتهم في الملة لما شيد لهم الدين امر السياسة بالشريعة واحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهراً وباطناً وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم . »

● « كان رستم اذا رأى المسلمين يتجمعون للصلاة يقول : « اكل عمر كبدي يعلم الكلاب الاداب » ثم انهم بعد ان انقطعت منهم اجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا الى ثغرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع اهل الدولة ببعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة ؛ فتوحشوا كما كانوا . »

وهي اقوال لا تتفق مع ما اوردناه له من الاقوال الاخرى عن العرب في الاسلام وعن انتقال عزهم من قطر الى قطر ، وعن استمرار حضارتهم في عصر ابن خلدون في بعض الاقطار ، كما انه يتنافى مع الواقع والحقيقة اذ قال « انهم توحشوا كما كانوا . »

اضف الى ذلك ان ابن خلدون ، الذي اشاد بحضارة العرب في العهد الاسلامي وفيما قبله ونوّه بمآتيهم ، لم يتورع عن التنقيص

من شأن هذه الحضارة في بعض المواضع ومن شأن مساهمتهم فيها : ففي الفصل الثامن من الفصل الخامس الذي عنوانه : « في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى من كان قبلها » . برهن (الصفحة ٣٥٨) على صحة قوله هذا بما يروى عن عمر بن الخطاب حينما استأذنوه في اعادة بناء الكوفة بالحجارة ، وذلك بعد ان التهمتها النيران وكانت مبنية بالقصب . وكان مدار استدلاله ان الخليفة اجابهم : «افعلوا ولا يزيدنّ احد على ثلاثة ابيات ، ولا تطالوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة . »

وعقّب ابن خلدون على ذلك بقوله : « ولما بعد العهد بالدين والتحرج في امثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف ، واستخدم العرب امة الفرس ، واخذوا عنهم الصنائع والمباني ، ودعتهم اليها احوال الدعة والترف ، فحينئذ شيدوا المباني والمصانع. وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة . ولم ينفسح الامد لكثرة البناء واحتفاظ المدن والامصار الا قليلًا . وليس كذلك غيرهم من الامم : فالفرس طالت مدتهم آلاف من السنين ، وكذلك القبط والروم ؛ وكذلك العرب الاولين من عاد وثمود والعمالقة طالت امادهم ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهيا كلهم اكثر عدداً وابقى على الايام . »

وهذا الاسلوب الذي اختاره ابن خلدون في مقدمته، مع ما يبدو فيه من المناقضات افسح السبيل للشعوبيين للاستناد الى بعض اقواله في كل مرة يحاولون الحط من شأن العرب . بل افسح المجال

ايضاً الى بعض علماء العرب لأن يعدوه في مصاف الشعوبيين . ومنهم احمد امين الذين لم يتردد في اعلان شعوبية صاحب المقدمة حيث قال في كتابه ضحى الاسلام (الصفحة ٥٩) « يصح لنا ان نعدّ ابن خلدون شعوبياً بهذا المعنى ، ورأيه في اشد العنف والقسوة على العرب . »

٣ـ ماهي الأسباب التي دفعت ابن خلدون لاختيار هذا الاسلوب؟

● ان هذا الاسلوب الغامض الذي اختاره ابن خلدون في التحدث عن العرب خالطاً فيه بين طبيعة البداوة وواقع الحضارة كان سبباً لزج الالتباس بين الناس، فراح بعض قادة الفكر مثل احمد امين ينكرون عليه حملته على العرب دون التفريق بين بدوهم وحضرهم ؛ والتمس له آخرون العذر ، ومنهم ساطع الحصري ، على اعتبار انه كان يوجه الذم للاعراب دون سواهم .

والواقع ان ابن خلدون ، ذلك الكاتب اللبق الفصيح ، كان بوسعه ان يتحاشى هذا الالتباس فلا يزجنّ العرب على وجه عام في بحث فياض بنقائص اهل الوبر بحيث يمسي كلامه حجة للشعوبيين ضد قومه ؛ كما كان بوسعه ان يفرق بين طبائع بدو العرب والمتحضرين منهم، فلا يتكلم، من بعد، على اهل الدولة والحضارة كما لو كان هؤلاء لايزالون على البداوة وملابساتها، في حين ان البداوة سبقت الحضارة عند كل الأمم ولكنها لم تستقرّ في طباعهم بعد رسوخ الحضارة .

٤ - لماذا ركب ابن خلدون هذا المركب الخشن المريب ؟

● ليس بمقدورنا ان نرد ذلك الى اضطراب فكري يرجع الى اضطراب احوال الشعوب الاسلامية التي كان صاحب المقدمة يتنقل بينها ، او يعود الى توتر اعصابه نتيجة للصدمات التي كان يلاقيها . وذلك لان مقدمته تنم عن اتزان عميق كان يتحلى به ، وعن تفكير عال كان يزدان به رفعاه الى الذروة بين مفكري العالم في الشؤن الاجتماعية .

لذلك ترجح عندنا ان هذا الابهام، الذي نأخذه عليه، يردّ الى تموجات نفسانية كان صاحب المقدمة عرضة لها في حياته . فهو اما ان يكون متعمداً هذا الغموض بغية ان يتخذ من هجو قومه زلفى عند اصحاب السلطان من البربر الذين كانوا، في ذلك الحين ، يستطيبون سماع النقد على العرب ، او انه كان يقع فيه نتيجة لتأرجح قلمه بين غايته الخاصة وبين عاطفته القومية . فكأن الغاية كانت تدفعه والحقيقة تردعه فيأتي كلامه على هذا الابهام .

اضف الى ذلك تأثير واقع العصر على صاحب المقدمة : فقد عايش جيلاً كان الناس فيه لا يزالون يذكرون الاهوال التي لاقاها المغرب قبل قرنين من جراء رحلة بني هلال وبني سليم اليه؛ ولا يزالون يرون اثار التخريب هنالك التي خلفها هؤلاء ويتحدثون عن مفاسدهم فاذا به يصف مصير العرب بمصير هؤلاء البدو حينما قال : «انهم توحشوا وراحوا الى قفرهم .. »

وهو قول لا ينطبق على العرب الذين حملوا لواء الحضارة ، وكانوا لا يزالون في عصر ابن خلدون يقيمون في بلادهم رغم زوال

سلطانهم في اكثر البلاد ، وظلوا يتمتعون بالنضوج العلمي حتى ان معظم مشاهيرهم ظهروا في تلك الحقبات الأعجمية ، كما ان لغتهم ودينهم ظلا سائدين بعد زوال سيادتهم عن الدول المتغلبة .

اما وقد اتهمنا ابن خلدون فكان علينا ان لانرسل الكلام جزافاً لان بعض الظن إثم ، وكان علينا ان ندلل على صحة هذا الاتهام بما اتصل بنا من سيرته الخاصة واحوال عصره . وهذا ما سنحاول ان نسترشد به في البحوث التالية :

– العرب والبربر في المغرب واسبانيا –

● ثبت البربر في وجه الفاتحين العرب ثباتاً لم يواجهه قومنا في بلاد اخرى . وقد سلخ عمال الامويين خمسين سنة في محاولات متوالية لادراك الاستقرار في المغرب بينما هم لم يحتاجوا الى اكثر من شهر واحد لتدويخ اسبانيا واحتلالها . ويعتقد كوستاف لوبون ان عمال الأمويين في المغرب لم يكن قصدهم من فتح اسبانيا يعود الى رغبتهم في اتساع رقعة الملك ، وانما يرجع الى الرغبة في اشغال البربر بالحروب ، وصرفهم عن متابعة الفتن والثورات .

على ان العرب لم يلبثوا الا قليلاً حتى زهدوا بمواطن البربر ، لكثرة مشاكلها وقلة مواردها ، وانصرفوا عنها تباعاً : الامويين فالعباسيين فالفاطميين الى الامصار الأخرى في اسبانيا والشرقين الأدنى والاوسط . وقد تخلى العباسيون طوعاً عن التبعات في تلك البلاد الى دولة بني الأغلب العربية (١٨٤ هـ – ٢٩٦ هـ = ٨٠٠–٩٠٩م) وكان مقرها في تونس. فوفت هذه الاسرة الحكم حقه

سواء اكان ذلك في السياسة ام في الحضارة. ولما قضى الفاطميون عليها في بداية القرن العاشر للميلاد ثم انتقلوا الى مصر، فانشغلوا بها وبما حولها من الشرق الاوسط اتاحوا الفرصة للبربر لاسترداد استقلالهم. وقد ظلوا سادة بلادهم الى ان جرفتهم موجة الفتح العثماني في القرن الساس عشر.

وكانت تعاصر دولة بني الاغلب دولة اخرى تستوي على عرشها اسرة من اشراف العرب. واعني بها دولة الادارسة في مراكش (١٧٢-٣٧٥هـ). ولكن هذه الدولة وان كانت عربية برأسها ولغتها الا ان هيكلها كان مطبوعاً بالطابع البربري لقلة عدد العرب وقتئذ في تلك البلاد، ولاستئثار زعماء البربر بمناصبها. وكان مصيرها مثل مصير دولة الاغالبة اذ جرفها، بعد نحو جيل من انقراض دولة بني الأغلب، التيار الفاطمي (٣٧٥هـ - ٩٨٥م)، فاسترد البربر هناك استقلالهم، بينما انصرف الفاطميون الى شؤون الشرقين الأدنى والاوسط.

وخلال ذلك كانت اسبانيا العربية تتمتع بعصرها الذهبي في ظلال الامويين فقدر للبربر ان يتأهبوا منذ ذلك الوقت لان يمثلوا الدور الذي كان يمثله الترك في بلاد العباسيين. وكلاهما استهل عمله بالاقبال على خدمة القصور الى ان نال حظاً من الزعامة؛ ثم ما ان اقبل على التجند وادرك في الجندية المناصب حتى تضاعفت زعامته. وانتهى الامر بان استهانت بالعرب السلطنات التركية بالشرق والسلطنات البربرية بالغرب فانقضت عليهم وازاحتهم عن عروشهم واقامت على انقاضهم دولها المختلفة.

ولقد بدأ نجم البربر يتلألأ في اسبانيا منذ خلافة عبد الرحمن الثالث الأموي (٣٠٠–٣٥٠هـ) في القرن العاشر للميلاد حينما بلغت الحضارة العربية الذروة. ذلك ان استرسال العرب في الرفه ونعيم الحياة جعلهم يشعرون بالحاجة الملحة الى تجنيد الاجناد من العناصر الأخرى. فاذا بالبربر يجتازون الى اسبانيا ويتطوعون في جيوشها اسوة بالترك عند العباسيين. ودار الفلك دورة ثانية فاذا بهؤلاء الاجناد يصبحون اسياد الموقف القابضين على زمام السلطة.

ولما استتب الأمر لمحمد بن هشام الأموي في قرطبة سنة ٣٩٩هـ=١٠٠٩م راودته نفسه بان يخلّص دولته من سيطرة البربر فاقبل على قومه يعتمد عليهم. ولكن البربر ما ان ادركوا قصده حتى تآمروا عليه وبايعوا هشاماً بن سليمان، ثم سليمان بن الحكم. فكانت حروبا بين الفريقين انتهت بفوز البربر. وكان ذلك مما بسط لهم اسباب الاستئثار في الاحكام واقتسام المقاطعات فيما بينهم، ومما ترك لهم مجال الاستبداد والنكاية بالمعارضين. وتلك الامور كان من عواقبها اثارة فتن افضت الى زوال الدولة الاموية في اسبانيا.

وكان العرب خلال ذلك قد تغيروا على الدولة الأموية بعد ان اصبح زمامها بيد البربر فأخذوا يلتفون حول امراء منهم ويعلنون تباعاً استقلالهم. فتكونت منهم دويلات كثيرة اتفق المؤرخون على تسميتها بملوك الطوائف، دويلات كانت تغطي ضعفها بستار مزخرف من ابهة الملك وشعائره. وقد احسن ابن

الخطيب في وصفها حيث قال :

حتى اذا سلك الخلافـة انتثر وذهب العين جميعا والاثر
قام بكل بقعة مليـــك وصاح فوق كل غصن ديك

وكان الاسبان خلال ذلك يهتبلون هذه الفرص لاجلاء المسلمين تباعاً عن شبه جزيرة ايبريا . بيد انه لما استفحل خطرهم ورأى ملوك الطوائف انهم عاجزون عن دفعه لم يروا بداً مـن تناسي النزعات العنصرية ومن الاتفاق على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين البربر اصحاب المغرب. فاذا بهذا السلطان يجتاز العدوة ويحرز من النصر على الاسبان ما لم يكن في الحسبان . ولكنه رأى في اسبانيا ما لا عهد به في المغرب فاستطاب البقاء فيهـا . ثم خلف الموحدون المرابطين عليها، وهم ايضاً من بربر المغرب.

وانّا نفسح المجـــال لابن خلدون ليحدثنـا عن تلك الحقبة . قال :

« وذلك ان اهل الاندلس لما انقرضت الدولة العربية منهم وملكهم البربر من لمتونه (المرابطين) والموحدين سئموا ملكتهم وثقلت وطأتهم فاشربت القلوب بغضهم . وامكن الموحـدون والسادة (يعني امراء العرب) في آخر الدولة كثـيرا من الحصول للطاغية (اي ملك اسبانيا) في سبيل الاستظهار بـه على شأنهم من تملك الحضرة مراكش . فاجتمع من بقي بها من اهل العصبية القديمة معادن من بيوت العرب تجافى بهم المنبت عن الحاضرة والأمصار بعض الشيء ، ورسخوا في العصبية مثل ابن هـود وابن الاحمر وابن مردنيش وامثالهم. فقام ابن هود بالأمر ودعا بدعوة الخلافة

العباسية بالمشرق، وحمل الناس على الخروج على الموحدين . فنبذوا اليهم العهد واخرجوهم . واستقل ابن هود بالامر في الأندلس . ثم سما ابن الاحمر للأمر ، وخالف ابن هود في دعوته . فدعا هؤلاء لابن ابي حفص صاحب افريقية من الموحدين ، وقام بالأمر وتناوله بعصابة قريبة من قرابته » الى ان قال « ثم سما لصاحب من ملوك زناتة وتناوله امل في الاستيلاء على الاندلس فصار اولئك الاعياص عصابة ابن الاحمر على الامتناع منه الى ان تأصل امره (اي ابن الاحمر) وآلفته النفوس، وعجز الناس عن مطالبته، وورثه اعقابه لهذا العهد . »

وهكذا فان العوامل السياسية التي افضت الى خلاف الأخوين العرب والبربر، اثناء ما استأنفت اوروبا الحروب الصليبية في المغرب، كان من عواقبها المشينة ان صار كل من الفريقين يستنجد، في كثير من الاحيان، بعدوهما المشترك على الفريق الآخر، ويبذل في سبيل الحصول على نجدته خيار البقاع حتى انتهى الأمر الى إجلاء المسلمين الى سيف البحر المتوسط ، فلم يبق لهم في عصر ابن خلدون من ذلك الملك العظيم الا دولة بني الأحمر. وكانت تعاني آلام الاحتضار . الى ان سقطت غرناطة في سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م، فزال بسقوطها آخر حكم للمسلمين في الفردوس المفقود .

على ان هذه العوامل السياسية كان من عواقبها بعث الشعوبية بين صفوف البربر اسوة بما حدث في الشرق الاسلامي . فاعتنق بعضهم مذاهب الخوارج وخفوا الى مناصبة العداء للعرب اسوة بالباطنيين في الشرق الذين أيدوا العباسيين والفاطميين ضد اهل

السنة متأثرين بعوامل سياسية خفية .

وآبان ما صار المغرب في اقسامه الثلاثة : مراكش والجزائر وتونس ، بالاضافة الى ليبيا مشاعاً بين دويلات مختلفة من البربر أمسى العرب رعية ليس لهم فيها ولا في غيرها بالشرقين الأدنى والاوسط ظل لسلطان ما عدا بعض امارات لا شأن لها في جزيرتهم ؛ وامسوا ، للترك في الشرق ، وللبربر في المغرب ، اتباعاً مضطهدين لا يرجى برهم ، ولا يخشى شرهم .

ونشأ ابن خلدون في هذا العصر المظلم بالنسبة للعرب ، واعني به القرن الرابع عشر ، وشب في بلاد يحتلها اقطاعيون كان يلذ لهم الحط من شأن العرب الحاكمين الاولين بتأثير السياسة والتاريخ ، إقطاعيون ارستقراطيون علّموا الناس بالضغط والقسوة فنون التملق اليهم ، وانواع المصانعة . وكان صاحب المقدمة سليل بيت الف الوظائف والمناصب فاضطر لان يساير زمانه في سبيل مرضاة مطامعه الشخصية . وكان هذا هو الحافز له على ان يتعمد الابهام في مقدمته عند الكلام على العرب . ولعل سيرته التي سنوردها تكشف لنا الستار عن سر هذا الابهام بما فيها من شئون وشجون يصح ان يعرفها العرب .

سيرة عبد الرحمن بن خلدون

● يقسم الناس في اخلاقهم الى ثلاثة اقسام :

قسم يلبس لكل حالة لبوسها . وقسم صعب المراس لا يتأثر كثيراً بالرأي العام ولا بتوجيه السلطان . وقسم وسط ليس

برطب فيعصر ، ولا بيابس فيكسر .

والى هذا توجد بين الناس فئة تجمع بين النقيضين : فهي صلبة المراس حيال الناس الى حد ان صلابة افرادها تعرضهم لانفضاض الناس من حولهم ، ولكنها مائعة امام اولي الامر حتى تستبيح المصانعة في سبيل مطامعها الشخصية .

وانه ليؤلمنا ان نزج ابن خلدون في مصاف هذه الفئة ، التي قدر لها ان تروج حيناً وتبور أخرى ، استناداً الى سيرته .

ولد ابن خلدون ، سنة ٧٣٣ هـ =١٣٣٢ م ، من اسرة كندية حضرمية كانت قد نزلت الاندلس ، ثم غادرتها الى تونس . وهي من الأسر التي مارست السياسة حينما كانت تستوطن اشبيلية ، وظلت تزاولها بعد ما استقرّت في تونس . وكان لا همّ لافرادها الا ادراك المناصب العالية . وكان جد ابن خلدون ، في وقت من الاوقات ، حاجب احد امراء بني حفص حكام تونس ، وكان والده من كبار رجال الدولة ، وذلك في المناصب الادارية تارة ، وفي المراتب الجندية تارة اخرى .

وشب ابن خلدون على ما شاب عليه اباؤه من حب المناصب ، ومن التقرب لذوي السلطات . ومعلوم ما تستلزم هذه النزعات من اصناف المصانعات ، ولا سيما في الدول الاوتوقراطية التي كانت سائدة في تلك الحقبة . وقد كان عمره لا يتجاوز عشرين ربيعاً حينما نُصب كاتباً للعامة في مدينة تونس ، ولكن وظيفة كهذه لم تكن تتفق مع مطامعه الواسعة فولى وجهه شطر المغرب (٧٥٣ هـ = ١٣٥٢ م) . وهناك لم يستقر في بلدة : فمن بسكرة بالجزائر الى

بوجاية ، ومن هذه الى فاس . فاذا به بعد عام يقضيه في رحاب ابي عنان سلطان بني مرين بمراكش يصبح مستشاره الخاص ؛ ثم لم يمض على ذلك الا مدة قليلة حتى تغير عليه السلطان والقاه في غيابة السجن . وظل فيه سنتين حتى اذا توفي السلطان أخرجه خلفه من السجن ، بشفاعة وزيره الحسن بن عمر ، واعاده الى منصبه .

ولكن الوزير وابن خلدون لم يكونا وفيين لهذا الخليفة ، بل تآمرا عليه مع ابي سالم الذي استطاع ان يستوي على عرش فاس بالقوة ، فكافأ ابو سالم ابن خلدون على ذلك بتقريبه اليه ، وباتخاذه مستشاراً وكاتباً لنفسه .

بيد ان الأمور لم تستتب للسلطان ابي سالم مدة طويلة ، ذلك لأن وزيره عمر بن عبد الله لم يلبث ان تآمر عليه مع بعض زعماء بني مرين وخلعه عن عرشه . وربما كان لابن خلدون اصبع في هذه المؤامرة لانه لم يقنع بعد الانقلاب بمنصب الانشاء الذي اقره فيه الوزير ، بل اخذ يطمع برياسة الوزارة ، ويبدي شيئاً من الجفاء للسلطان الجديد مما اخسر ابن خلدون ثقة الحاكم ، وحمله على الهجرة يائساً من المغرب الى غرناطه (٧٦٤ = ١٣٦٢ م) عاصمة بني الأحمر . وقد استُقبل فيها احسن استقبال وتمتع بثقة عاهلها مدة ، لا سيا بعد ان وفّى المهمة حقها حينما انتدبه لمفاوضة بطرس ملك قشتاله المعروف بالقاسي . ولكن لم يكتب لابن خلدون الاستقرار في الاندلس ايضاً لان خلافاً شديداً وقع بينه وبين الوزير لسان الدين بن الخطيب كان حافزاً له على ان يكاتب ابا عبدالله الحفصي سلطان بجاية في الجزائر ، ولان يشد الرحال اليه .

(٧٦٦ هـ = ١٣٦٥ م) وقد تقلد هناك منصب الحاجب بالاضافة الى الامامة والتدريس في المسجد الكبير. ولكن الحظ لم يسعف ابن خلدون في هذه المرة ايضاً، ذلك لان صاحب قسنطينة لم يلبث ان تغلب على ابن عمه سلطان بجاية في العام التالي، وان تنكر لابن خلدون بما اضطره لمغادرة بجاية الى بسكرة ، فتلمسان التي كانت لآل عبد الواد .

وكان من المفروض ان يستقر بتلمسان لانه ادرك فيها هدفه المنشود بتولّيه منصب رياسة الوزارة (٧٦٩ هـ = ١٣٦٨ م) ، ولكنه لم يستطع الحفاظ على ثقة الحاكم فاضطر لاستئذانه بالانصراف وعاد الى غرناطة . واثناء وجوده في الاندلس اكتسح عبد العزيز سلطان مراكش تلمسان فدعا ابن خلدون ، وعهد اليه ببعض الخدمات ؛ وكأن هذا لم يقنع بها فغادر تلمسان الى فاس فغرناطه (٧٧٦ هـ = ١٣٧٤ م) . وإذ لم يلق فيها الاقبال الذي كان يتوخاه عاد الى تلمسان كرة أخرى .

وهكذا كان ابن خلدون كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر في مكان . وكأن هذه الصدمات المتوالية التي واجهها القت اليأس في نفسه فلجأ الى بليدة هناك كانت تعرف بقلعة ابن سلامه على الشاطىء الايسر من المرفأ المسمى الان طوكزوت Towghzut حيث اعتكف اربعة اعوام منكباً على التأليف. واخرج خلالها مقدمته النفيسة التي هي مصدر شهرته ، وهي الكتاب الأول من تاريخه ، واهداها الى (امير المؤمنين) ابي فارس عبد العزيز من ملوك بني مرين البربر اصحاب فاس مع

كثير من الاطراء بغيـة ادراك رضائه . وقـد ختم هذه المقدمة بقوله :

« اتممت هـذا الجزء بالوضع والتأليف من قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر ، آخرها منتصف عـام ٧٧٩ ﻫ . ثم نقحته بعد ذلك وهذبته ، والحقت به تواريخ الأمم . »

وكأنه لم يدرك من السلطان كلما اراد ، وكأن الحنين الى وطنه تونس بالاضافة الى الأماني التي كانت لا تزال تدغدغ نفسه اثار فيه شهوة العودة الى مسقط رأسه ، فعـاد الى تونس سنة ٧٨٠ ﻫ = ١٣٣٨م بحجة انه يريد الاستعانة بالمؤلفات التي يحتاج اليها لاستكمال وضع تاريخه . واستهل عمله فيها بتقديم نسخة من مقدمته الى خزانة كتب سلطانها ابي العباس الحفصي ، وهو ايضاً من البربر ، فقدر له مجهوده وقربه اليه وشجعه على اكمال تاريخه . ولكن ابن خلدون لم يلبث ان قوبل في بلده بنقمـة عارمة من قبل العلماء ، وعلى رأسهم المفتي ابن عرفه . وربما كانت ثورتهم عليه ترجع الى ما ورد في مقدمته من شبهات تتعلق بالعرب ؟

واشتد الخلاف بينه وبين مواطنيه الى حـد لم تعد رعاية السلطان له مجدية فغادر وطنه متألمـاً ، وقصد الى مصر (٧٨٤ ﻫ = ١٣٨٢ م) مودعاً الوداع الأخير بلاد المغرب .

وكانت مصر مطمح انظاره ، وموضع اعجـابه مذ كان في المغرب ، ولطالما تحدث عنها في مقدمته ، ونوه بعاصمتها وذلك كلما تعرض لمواضيع العمران والثروة والثقافة والصنائع حتى قال في الصفحة ٥٤٥ من مقدمته : « ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ،

فهي أم العالم ، وايوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع .»

ولما هبط مصر لجأ هذا الغريب الى الأزهر ؛ والازهر كان ولا يزال ملجأ لعلماء الاسلام ، وهو بمثابة منبر عام لاظهار المواهب . فاذا بابن خلدون تبرزه مواهبه فيتدرج صاعداً في القاهرة من استاذ في احدى المدارس الى منصب قاضي قضاة المالكية .

ولكن طبيعة ابن خلدون واحدة لا تتغير بتغير البلاد ؛ فسرعان ما اثار عداوة علماء القاهرة، فانهالوا عليه نقداً وشتماً حتى اضطروه الاعتزال . وربما كانت مقدمته في عداد ما اثار عليه اقرانه في مصر اسوة بما كان قد حدث في تونس .

وكانت مصر في ذلك الحين خاضعة للمماليك. وهم كآل حفص في تونس وان اخذوا على عاتقهم رعاية المدنية الاسلامية، وتنشيط الثقافه العربية ، وقلدوا الخلفاء في صعيد تعمير المساجد وانشاء المدارس، الا انهم لم يكونوا يشاطرون الشعب ، مشاطرة بريئة ، في تمجيد العروبة . اضف الى ذلك ان فضل ابن خلدون كان غير منكور وكان يشفع به عند الحكام والمنصفين . فاعادوه الى منصب القضاء ، ولكنه لم يتمتع في المنصب بالاستقرار ؛ واستمر ينصب تارة ، ويعزل اخرى الى ان وافاه الأجل في سنة ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م .

. . .

هذا ابن خلدون في مراحل حياته وان سيرته خير دليل على اتجاهاته . فقد عاصر جيلاً كان يخيم الظلام الدامس فيه على قومه

العرب ، فالتفت ذات اليمين وذات اليسار فلم يجد الا دولاً وامارات اعجمية انتزعت السلطة من العرب بعد نزاع طويل ؛ وكان همها ، تثبيتاً لاقدامها ، تهديم كل سمعة طيبة لاسلافها . فكان امامه في آخر الأمر شيئان : اما انتزاع حب المناصب من قرارة نفسه ، واما اللجوء الى المصانعة والمداراة في سبيل ادراك مطامعه بعد ان احاق به الفشل . اما والأمر الأول مستحيل لان حب المناصب كانت غريزة فيه موروثة عن ابائه فقد اختار ان يسلك في مقدمته ، عند الكلام على العرب ، طريق ذلك الابهام الذي لا يستطيع معه القارىء ان يميز به فيما اذا كان المؤلف يوجه المثالب للعرب ام الى الأعراب .

وتقع عليه هذه التهمة لان ابن خلدون معروف بفصاحة بيانه ؛ وكان بامكانه ، لو شاء ، أن لا يرمي نفسه في احضان هذه الشبهات . والله اعلم .

الردود على الشبهات في مقدمة ابن خلدون

في مقدمة ابن خلدون فصول لا شك في انها كانت تتكلم على البدو دون سواهم . ولكن الشعوبيين ومن جرى مجراهم من جماعة خصوم العروبة اتخذوها ، من قبل ومن بعد ، حجة لهم على العرب في كل مناسبة . وهي كانت في عداد ما استند إليه الاستاذ انطون سعادة امامي في التدليل على انه ليس من الفخار الانتساب للعروبة . وجاءت هذه الفصول في المقدمة تحت العناوين الآتية :

- ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط .

- اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب .
- لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية .
- هم ابعد الناس عن سياسة الملك .

ونحن وان كنا على يقين بان هذه المثالب التي وردت تحت هذه العناوين انما كانت موجهة للبدو دون العرب بدليل انها جاءت في الفصل الذي عنوانه «في العمران البدوي والامم المتوحشة والقبائل» فقد اخترنا ان نجاري الشعوبيين ونرد عليها كأنها كانت موجهة للعرب انفسهم. ثم نناقش النظريات التي وردت في بعض فصول المقدمة التي جاءت متناقضة مع فصول اخرى كان قد أشاد فيها بالعرب وحضارتهم.

- **ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط .**
- هذا القول سواء أكان المقصود به اهل الوبر ام اهل الحضر لا يتفق مع الواقع : ذلك لان التاريخ علمنا ان بلاد الحضر كانت ، منذ القديم ، عرضة للبداوة . فأتيلا زعيم الهون اخترق آسيا ، سهولها وجبالها ، باتجاه الغرب ، واكتسح اوروبا حتى احاط بروما ، وهو زعيم قبائل بدوية . كما ان موجات من بدو الترك كانت تنزل على مقربة من الصين ظلت تتقدم شطر الجنوب والغرب ولا تعبأ بالابعاد ولا تحفل بالمصاعب حتى اجتاز الغزنويون تخوم الهند ، وهدد السلاجقة الامبراطورية البيزنطية . وكذلك المغول فقد زحفوا من جوار الصين شطر بلاد الاسلام ، وبلغوا قونية وبغداد وما يليهما . وما كان اعتماد جنكيزخان امبراطور المغول ، ثم هولاكو احد قادتهم ، الا على قبائل من البدو لم تقف في

وجهها الروابي والجبال .

وإلى هذا فلما انقض المسلمون ، في عهد الخلفاء الراشدين ، على كسرى في العراق ، وعلى قيصر في الشام كان اعتمادهم على قبائل بدوية ما كانت الروابي ولا الجبال تقف حائلًا دون تقدمها .

ثم لما اصبح الحكم ملكاً عضوضا ، وتولاه بنو أمية امتدت فتوحاتهم ، خلال جيل واحد ، من تخوم الصين الى سواحل المحيط الاطلنتي ، ومن الهند الى تخوم بيزنطه على رغم ما في هذه المساحات الشاسعة من جبال عصاء ووهاد كأداء . وقد روى التاريخ ان الوليد بن عبدالملك كان يخرّ ساجداً شكراً لله على كل بشرى تأتيه في صدد فتح جديد ، ولكثرة سجوده قال احد اتباعه : «ظننت انه لا يرفع رأسه . »

وهكذا فان العرب ، سواء أكانوا بدواً ام حضراً ، اثبتوا في الواقع انهم يتغلبون على غير البسائط خلافاً لما ذهب اليه الشعوبيون استناداً الى ابن خلدون .

● **ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب .**

● وكأني بابن الاثير المؤرخ الكبير ينبري للجواب على ذلك في سياق حديثه عن الوليد بن عبد الملك اذ يقول : « ان الناس كانوا وقتئذ اذا تلاقوا لا يسألون بعضهم بعضاً الا عن البناء . »

والواقع ان هذا الخليفة لم يكن فريدا بين الامويين في تشجيع العمارة والعناية بالمرافق العامة . بل كان يضاهيه في هذه الناحية هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد . وقد كشفت

التنقيبات الاثرية الحديثة في سوريا عن اثرين عظيمي الشأن لهذين الخليفتين : قصر الحير الذي بناه هشام مـا بين تدمر ودمشق ، وقصر المشتى للوليد المشار اليه .

وبعد فاذا كان الخراب لم يسارع الى البلاد في عهد الامويين فترى هل يوجه الشعوبيون هذا الافتراء الى العباسيين ؟

وحاشا ان يستطيع احد الصاق مثل هذه التهمة بخلفاء بغداد. فقد كانوا قدوة الممالك الاسلاميـــة بالعمران ، وكان اعتمادهم في ذلك على موارد اقتصادية زاخرة تضفي على هذا العمران الواناً من الازدهار . وقد تحدث ابن خلدون عن ذلك في الصفحة ١٧٣ من مقدمته، وأورد الأمثلة على بذل المأمون والبرامكة في شتى المناسبات ، كما انـه لم يتوان عن التحدث عن عظمـــة موارد العباسيين (ص ١٧٩)

واذا كان لا بد من التدليل فحسبنا الاشارة الى المتوكل احد خلفاء العباسيين الذين اشتهروا بالبذل عـلى العمارة ، وقد قدروا انه انفق على تشييد ثلاثة قصور ما يقارب من مائة مليون درهم.

على ان الثروة التي تفاقم امرها في العهـــد العباسي وشملت الحاكم والمحكوم كان من عواقبها امتداد في العمران،وبذخ في اساليب الحياة ، وتفنن في انواع الترف الى حد يشبه الاساطير . وقد روى جرجي زيدان ان يحي البرمكي ساوم تاجراً على سفط من الجوهر بمبلغ سبعة ملايين درهم فـلم يبعه ، وهو واحد مما في حوزة التاجر . » وتساءل زيدان،بعد رواية هذا الخبر، قائلاً «فما ترى تبلغ قيمة مجموع ما في حانوته ؟»

– اذن فهل سارع الخراب الى بلاد العرب في عهد الفاطميين ؟

– ومن احق من المقريزي في الجواب على هذا السؤال؟ وهو الذي اورد امثلة كثيرة على ثروة البلاد في عهد الفاطميين وعمرانها مما يشبه الخرافات .

واذا كان المقريزي مغرضاً فلنستمع الى بعض مؤرخي الغرب، واحسب ان لكلامهم نفوذاً اوسع عند الشعوبيين .

ولقد نوه غليوم دو تير، مؤرخ الحروب الصليبية، بالقصر الملوكي الذي استقبل فيه احد خلفاء الفاطميين وفداً من الوفود الصليبية في القاهرة ، وانتهى الى القول : « ان عين اوروبي لم تر قط مثله في الهندسة والفن والثروة . »

ولما اعرب مارسيل المؤرخ الفرنسي عن اشفاقه على الجواهر التي باعها المستنصر الفاطمي لتأمين أعطيات الجند حمله اشفاقه على القول : « كأن ثروات العالم قاطبة تلاقت في هذا الجزء من الكون خلال اجيال كثيرة ليكون مصيرها التبديد في سبيل ارضاء هؤلاء الجنود الأخساء . »

والى هذا فاذا كان العباسيون رصعوا عصائب نسائهم وخفافهن بالاحجار الكريمة ، وكان هذا الامر مدار العجب عند المؤرخين، فما قول الشعوبيين بالبذخ الذي كان شائعاً عند الفاطميين حتى بلغ الي حد ترصيع اواني مطابخهم بمثل هذه الجواهر ؟

فالخراب اذن لم يسارع الى البلاد الشرقية حين تغلب عليها العرب. واما اذا كان الشعوبيون يرون انه سارع الى بلاد الغرب فلنرافقهم الى اسبانيا العربية لاطمئنان القلوب .

نحن الآن في اسبانيا نشاهد معالمها ونتفقد مدنها ودليلنا فيها هو المؤرخ الافرنسي سديو (١٧٧٧ - ١٨٣٢) فلنصغ اليه يقول: كان سكان طليطلة يناهز عددهم في العهد العربي مايتي الف شخص، اما الآن فلا يزيد عددهم على عشرين الفا . وكان اهل اشبيلية يعدون ثمانماية الف بينما لا يتجاوز عددهم الآن ستة وستين الفا . واما قرطبة ، التي كانت حافلة بستين الف قصر ، وبمايتي وثلاث وثمانين الف دار، فلم يبق الآن من سكانها، الذين كان يبلغ عددهم مليونين ، غير تسعة وخمسين الفاً . وكذلك ابرشية سلامنكة التي كان فيها ماية وخمسة وعشرين مدينة وقرية فقد امست الآن خاوية من السكان ، وليس فيها الا ثلاث عشرة قرية . »

وبينما كنا نظهر علائم الاستغراب امام المؤرخ سديو من جراء الفرق بين اسبانيا العربية وبين اسبانيا الحاضرة انضم الى حلقتنا كوستاف لوبون وقال بلى « لما أجلي المسلمون عن اسبانيا وأمر الكردينال كزيمانس ان تحرق مؤلفاتهم التهمت النيران في قرطبة وحدها ثمانين الف مخطوطة عربية . وكان الكردينال يتوهم بانه استطاع ان يمحو الى الابد من سفر التاريخ مخلفات خصوم عقيدته . وما درى ان اثارهم الخالدة، التي غطوا بها وجه اسبانيا، تكفي لتخليد اسمهم بالاضافة الى تآليفهم الباقية . »

هذا وكان يرافقنا ايضاً في هذه الرحلة التاريخية شاب مصري رأى الفرصة سانحة عند الكلام على اسبانيا العربية ان ينوه بعمران مصر مستدلاً على ذلك بابن خلدون ، وبما اشاد في وصف القاهرة قبل مجيئه اليها ، فاذا بجرجي زيدان يروي لنا الحادثة التالية :

زار مصر في عهد الدولة الأيوبية (٥٦٤ – ٦٤٨ ﻫ) شاب اندلسي اسمه ابو الحسن بن سعيد و كتب رحلته بسفر اسماه (النفحة المسكية) اعرب فيه عن اعجابه بعمرانها، وبما رآه فيها قائماً من منشآت ترجع الى عهد الفاطميين. ولكنه لم يتورع، مع ذلك، عن اظهار استخفافه بعمران القاهرة والفسطاط بالنسبة لبلاد الاندلس.» ذلك لان عمران اسبانيا لم يبل بذهاب الدولة الاموية هناك، بل ظل قائماً بقوة الاستمرار في عهد خلفائهم ملوك الطوائف ومن جاء بعدهم، ولا سيما في عهد الدولة النصرية آل الاحمر في غرناطه. وحسبنا ان نقرأ ابن خلدون يتحدث في مقدمته عن الثروة الزاخرة التي ظلت تغمر اسبانيا بعد الامويين، ويشيد بعرس المأمون ابن ذي النون في طليطله، حسبنا ان نقرأه يتحدث (في الصفحة ١٧٣ من مقدمته) عن كل ذلك لنشعر معه باننا لا نزال نسمع اخبار الامويين هناك بما فيها من عمران وثراء.

فكان عليّ بعد سماع ما سمعت ورأيت في هذه الرحلة التاريخية ان اتحول الى كبير الوفد الشعوبي الذي كان يرافقنا واسأله اذا كان لا يزال يعتقد ان الخراب يسارع الى الاوطان التي يحتلها العرب ؟

اما وان هذا لم يقع، لا في الشرق الاسلامي، ولا في اسبانيا العربية، فقد بقي علينا ان نستعرض احوال شمالي افريقيا، ولا سيما تونس موطن ابن خلدون التي قامت فيها دولة بني الأغلب (١٨٤–٢٩٦ ﻫ). فاذا بنا نجد ابن خلدون واقفاً هناك مدهوشاً لما خلفه الاغالبة فيها من المنشآت العظيمة، وهو رهين الاعجاب.

ثم سرعان ما نسمع المستشرق الافرنسي سديو يكيل الاطراء في تاريخه لتونس في عهد الاغالبة، ويقول عنهم :

«وقد انشأوا في تونس وطرابلس الغرب مدنا جمعت بين الفن المعماري الروماني وبين زخارف الشرق فجاءت تحفة رائعة تسر الناظرين .»

ويعقّب على ذلك بقوله. «وبالاضافة الى عنايتهم بالزراعة والتجارة والثقافة ربطوا الصحراء الكبرى بساحل البحر المتوسط بطرق معبدة حافلة بالامان ، وذلك بينما كان اسطولهم التجاري، الذي كان قد جعل البحر المتوسط منطقة نفوذ لهم ،يطوق افريقيا من جهة المحيط الاطلسي .» بلى وقد اكتسب الاغالبة ثروة طائلة من الزراعة والتجارة كانت تتجلى في عمران بلادهم . واستمرت هذه الثروة زاخرة بقوة الاستمرار حتى عهد قيام الفاطميين في تونس. وقد روى ابن خلدون في مقدمته (ص١٧٩) «ان جوهراً الصقلي قائد جيش الفاطميين في القيروان حمل معه الف حمل من المال حينما ارتحل الى فتح مصر سنة ٣٥٨ ﻫ ». وعلق على هذا الخبر بقوله «ولا تنتهي اليوم دولة الى مثل هذا .»

وبعد هذا الاستعراض الموجز الذي استندنا فيه كثيراً الى اقوال ابن خلدون يحق لنا ان نتساءل « هل يبقى مجال للشك في ان ابن خلدون انما كان يريد البدو فحسب حينما قال . « ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب .» ?

● **ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية .**

● هذا رأي صحيح بالنسبة لعرب الجزيرة في الجاهلية ، وخلال

عصر الرسالة لِما كانوا عليه من التفكك والتنابذ والفساد في كل ناحية ، و لِما كانت عليه جزيرتهم في الجملة من اختلاف الاديان والنزعات السياسية. فلولا الدين الذي جمع شملهم وآلّف بين قلوبهم ووحد اهدافهم وهذب اخلاقهم وساقهم الى مثلٍ اعلى تسابقوا اليه عن رغبة وايمان،لولا ذلك لاستمرّوا على بداوتهم الى يوم يبعثون.

بيد ان وثبة العرب بالاسلام كانت واحدة من وثبات سبقتها، كما ان دولة الاسلام كانت ايضاً واحدة من دول عربية تقدمتها؛ وما كان الدين مصدراً لتلك الوثبات العربيات في العصور الخالية. فعمالقة العراق وسورية ومصر ، ومنهم الاراميون والكنعانيون والفينقيون والهكسوس؛ ومثلهم ملوك الجزيرة في الجنوب، ومنهم عاد وثمود والتبابعة وحمير، كل هؤلاء الذين اشاد ابن خلدون بهم وبحضاراتهم الغابرة كانوا من جزيرة العرب . ومنهم من حصل لهم الملك في مواطنهم، ومنهم من اقام الدول على مقربة منها وذلك بمعزل عن الاديان .

اضف الى ذلك ان الدين وان كان يرجع اليه الفضل بالاسلام في اجتماع كلمة العرب ، وفي وضع شريعة لهم كانت اساساً لوثبتهم الكبرى ولنهضتهم العظمى الا انه من الجدير بالذكر الاشارة الى ان استعدادات العرب الفطرية من شجاعة وذكاء وصبر على الشدائد كان لها الفضل في نجاح رسالة الاسلام .

واذا كان الدين قد اشعل جذوة النور بينهم ، كما يشعل عود الثقاب الشمعة، فلا ريب في ان الضياء الذي ظل يشع امداً طويلاً من هذه الشمعة انما كان يستمد ايضاً قوته من عناصر الشمعة

نفسها ، ومن الاجواء المناسبة التي اكتنفتها . وآية ذلك ان وثبة العرب تلك وان كان مصدرها الاسلام غير ان هذه الوثبة ما اكتملت الا بالعرب أنفسهم وباستعداداتهم الفطرية وذلك عقب ان عادت العصبية القومية الى شأنها بعد خمسين سنة من ظهور الاسلام . وما كانت غلبة الامويين على الهاشميين ، وفيهم بيت النبوة ، الاّ رجعة الى هذه العصبية ، ودليل على تحول سريع حدث في افكار العرب ، وفي اتجاهاتهم الاجتماعية .

ثم كان ما كان من نجاح العرب منذ الأمويين في ناحيــة اتساع الفتح واقامة الحضارة وذلك خلال بروز القومية واثناء ما خفت عندهم عاطفة التقيّد باحكام الدين . بلى وان اكثر الامويين، سواء منهم خلفاء دمشق ام قرطبة ، اولئك الذين يمثلون العروبة اشد من سواهم لم يكونوا من المتقيدين باحكام الدين . ولما شذ عنهم الخليفة عمر بن عبد العزيز وحاول الرجعة الى سنة الخلفــاء الراشدين كرهه اهله ، على ما روى ابن الأثير وابن خلدون ، وتآمروا عليه فمات مسموماً .

هذا ولعل ابن خلدون جنح الى القول بان العرب لا يحصـل لهم الملك الا بصبغة دينية من جراء تأثره بالمحيط المغربي الذي عاش فيه . فهناك لم يلتفّ البربر حول دعاة بني ادريس في مراكش الاّ لانتساب الادارسة الى صاحب الرسالة . وهناك لم يخفّ البربر الى مناصرة الفاطميين بتونس الا بحـافز تسلسل هؤلاء من السيدة فاطمة بنت الرسول .

هذا فضلاً عن ان دول البربر الكبرى : المرابطين فالموحدين

فبني مرين، انما قامت تباعا بالتفاف الناس حول دعوة رجل منهم كان يتمتع بالتقوى ويعدّ في نظرهم من اولياء الله. ولأنه كان يدعو الى الانضمام لهذا ام ذاك من خلفاء المسلمين العرب . لذلـــك فاني اعتقد ان ابن خلدون قال هذا القول اشارة الى عرب الجزيرة في عهد صاحب الرسالة دون ان يكون قصده عموم العرب .

● **ان العرب أبعد الناس عن سياسة الملك .**

● قال هذا ابن خلدون في معرض كلامه على البدو والقبائل ، ولكن الشعوبيين ابوا الا ان يجعلوه قاعدة كلية تشمل العرب في بداوتهم وحضارتهم .

انهم لا شك ينكرون علينا اذا اتهمنا الرومان ، الذين اشاد التاريخ بفتوحاتهم واعمالهم العمرانية، بانهم ابعد الناس عن سياسة الملك، ويقولون لنا «كيف يسوغ هذا الاتهام وكيف يجوز هذا العدوان على امة كان لها ما كان من سعة الملك وازدهار العمران؟»

اما وان العرب في الاسلام سجلوا لهم في ميادين الفتوحات فخراً لم يبلغه الرومان ، واما وانهم اقاموا حضارة لم يسبقهم الى خلق مثيل لها امة قبلهم فهلاّ يكون من حقنا ان نردّد امامهم ما هو مفروض ان يقولوه لنا اذا بخسنا الرومان حقهم ؟

اجل وكيف يصدق هذا القول على قوم فتحت لهم السياسة الحكيمة القلوب قبل المعاقل، واستعجل بعض الأمصار قدومهم. قوم طاب لي ان اسمع صديقي غبطة اغناطيوس افرام بطريرك انطاكية وسائر المشرق يقول عنهم : « ان مؤرخاً من السريان استهل كتاباً له بالعبارة التالية : « الحمد لله الذي انقذنا من حكم

الروم وادخلنا في حكم الاسلام . » ؟

ثم هل يصدق هذا القول على قوم استطاعوا ان يجعلوا دينهم ولغتهم وحضارتهم دين الاقطار التي فتحوها من الشرق الى الغرب ولغتها وحضارتها ، وحملوا الاعاجم من فرس وترك وبربر وغيرهم على ان يتجندوا لانتشار هذا الدين واللغة والحضارة، وحملوا الذين خلفوهم على الملك ،من هؤلاء الأعاجم، على ان يتمثلوا بهم في الحضارة، وان يحافظوا على لغتهم ودينهم حتى كأن حكم الاعاجم بعدالعرب جاء امتداداً لحكمهم .

لقد فتح البيزنطيون قبل العرب بلاد الشام ومصر والمغرب جميعه ، ولكنهم لم يفتحوا، في الواقع، الا الأرضين رغم استعمالهم العنف ، لأن الرعايا في تلك الامصار لم يزدادوا في عهد الروم الا تمسكاً باديانهم ومذاهبهم ولغاتهم وتقاليدهم ، ولم يزدادوا ايضاً الا كرهاً بهم ومناوأة لهم . واما العرب فما ان احتلوا هـــذه الاقطار وغيرها حتى سارع الناس الى الدخول في دينهم، افواجاً افواجاً ، دون اكراه ، واختاروا لغتهم وشاركوا في بنيان حضارتهم. وكل ذلك كان يعود الى سياسة حكيمة وعدل شامل.

ان قوماً حفل تاريخهم بامثال الخلفاء الراشدين ومعاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبـد الملك من بني امية ؛ والمنصور والمهدي وهارون الرشيد والمأمون من العباسيين ؛ وعبد الرحمن الناصر الاموي في قرطبة ، والمستنصر الفاطمي في القاهرة ،اولئك الذين شهد لهم الغرباء بالسياسة الحكيمة الرشيـــدة ، هل يجوز الزعم بانهم ابعد الناس عن سياسة الملك ؟

ان قوماً « خلقوا في ثلاثة قرون ما عجز عن ادراك بعضه اليونان في وقت طويل . » « وان ادركتهم امة فلم يسبقهم احد » « والى القرن الخامس عشر لا يرد اسم مؤلف تعدى النسخ عنهم » (كوستاف لوبون في كتابه المدنية العربية) .

ان قوماً « لا اخالني مغالياً اذا قلت ان ما نقل عن العرب الى الانكليزية ، وما علق عليه من مؤلفاتهم هو اكثر عدداً ، وادق ترجمة مما نقل عن الانكليزية الى العربية . » (من حديث لرونالد ستورس السياسي الانكليزي المعروف ، اذاعه عن راديو لندن مساء ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥) .

ان قوماً يشهد لهم الغرباء بكل هذه المفاخر هل يجوز لبعض الذين يتكلمون لغتهم وينعمون بخيرات مواطنهم ان يزعموا انهم أبعد الناس عن سياسة الملك، وان يكيلوا لهم غير ذلك من المثالب؟

التحقيق مع ابن خلدون فيما أتهم به العرب

اما وقد فرغنا من الرد على الشعوبيين فيما استندوا اليه من اقوال ابن خلدون التي جاءت في معرض كلامه على البدو والقبائل المتوحشة ، تلك الأقوال التي يحتج بها الشعوبيون رغم انها كانت موجهة للبداوة فحسب ، فانه ليطيب لنا ان نعلق على العبارات الأخرى التي وردت في مقدمته ورأينا فيها ما يدعو للتحقيق .

- **ان حملة العلم في العهد العربي كانوا من الأعاجم والموالي .**
- روى هذا ابن خلدون وعلله بقوله في الصفحة ٥٤٤ بما يلي :

« واما العرب الذين ادركوا هذه الحضارة وسوقها ، وخرجوا

اليها من البداوة فشغلتهم الرياسة في الدولة وحاميتها واولي سياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع الخ . »

وقد كفانا الاستاذ احمد امين في كتابه فجر الاسلام (الصفحة ١٨١) مؤنة التبسط في هذا النقاش إذ اثبت مشاركة العرب للأعاجم، منذ فجر العصر العباسي، في العلوم. ونحن نزيد على ذلك ان العرب في العهد الأموي سجلوا لهم في هذه الناحية مشاركة لا تقتصر على العلوم الدينية والأدبية فحسب ، بل تجاوزت ذلك الى العلوم العملية كالصنعة والطب والنجوم؛ وان كانت محاولة فردية. وهذا خالد بن يزيد، وهو حفيد معاوية الأكبر، فقد كان اول من عني من الاسرة الاموية بنقل علوم الطب والفلك والكيمياء الى العربية ، وأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان، كانوا ينزلون في مصر، وطلب اليهم ان ينقلوا اليه بعض الكتب اليونانية والقبطية. وتعلم صناعة الكيمياء على واحد منهم اسمه مريانوس . واذا كانت آثار الامويين قليلة بسبب تعمد الطمس عليها في العهد العباسي فهي، على كل حال، تشير الى هذه المشاركة. ونزيد على ذلك ايضاً انه على افتراض ان السادة العرب اشغلتهم السياسة بعض الشيء عن مزاولة العلوم فما يضيرهم هذا شيئاً ، وهو لا يصح ان يكون حجة للشعوبيين عليهم ؛ ذلك لان كل عمل انشائي يتطلب انصراف كل فئة من القائمين به الى ناحية منه على قاعدة توزيع الأعمال . امّا الفضل الاول في كل مدنية قامت فانما يعود الى ساستها الموجهين . ومن المعلوم كم كان يبذل ملوك العرب من رعاية للعلوم والآداب

والفنون منذبداية عهدهم بالملك. وقد اورد ابن خلدون، فضلاً عن سواه من مؤرخي العرب والاجانب ، امثلة كثيرة على هذه الرعاية الوافرة ، سواء أكان ذلك في تشجيع اهل المواهب من اية ملة كانوا ومن اي بلد جاؤا ، او في جمع المؤلفات النفيسة والبذل لاهل العلم والفضل واقامة المدارس والمكتبات . اليس هو القائل في الصفحة ٤٢٠ من مقدمته «وطما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر ، وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم ، وانتجت الكتب ، واجيد كتبها وتجليدها ، وملئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كفاء له ، وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيه . »

هذا فضلاً عن تنويه ابن خلدون في (الصفحة ٤٨١) بابي جعفر المنصور وغيره من العباسيين حيث قال :

« بعث ابو جعفر المنصور الى ملك الروم ان يبعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب اوقليدس وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصاً على الظفر بما بقي منها . وجاء المأمون بعد ذلك ، وكانت له في العلم رغبة بما كان ينتحله ، فانبعث لهذه العلوم حرصاً ؛ واوفد الرسل على ملك الروم في استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك فاوعى منه واستوعب ؛ وعكف عليها النظار من اهل الاسلام ، وحذقوا في فنونها ، وانتهت الى الغاية انظارهم فيها ، وخلفوا كثيراً من اراء المعلم الاول ، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ، ودوّنوا في ذلك

الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم في هذه العلوم . »

زد على ذلك ان ابن خلدون حينما تكلم على الفنون ، ولا سيما الغناء والرقص والموسيقى، اشاد بعناية العرب بها شعباً وملوكاً، واورد مثالاً على عناية هؤلاء بها (الصفحة ٤٢٨) الحكم بن هشام العربي الذي ما ان بشر بمجيء زرياب الموسيقي الى قرطبة قادماً من بغداد حتى اعرب عن سروره العظيم . وقد علق على ذلك ابن خلدون بقوله :

« بالغ في تكرمته ، وركب للقائه واسنى له الجوائز والاقطاعات والجرايات ، واحلّه في دولته وندمائه بمكان . فاورث في الاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الى ازمان الطوائف (ملوك الطوائف) . وطما منها باشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها، بعد ذهاب حضارتها،الى بلاد العدوة بافريقية (تونس) والمغرب . »

وقد ذكر المقريزي في كتابه «نفح الطيب» مثالاً على مقدار اقبال الاندلسيين على الكتب وجمعها ، لاسيما في قرطبة ، خلاصته ان رجلاً كان يزيد كثيراً في قيمة كتاب معروض للبيع في سوق الكتب ، ولما سئل عن سبب ذلك قال : « لست بفقيه ولا ادري ما فيه ، ولكن اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بين اعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب . فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه ، والحمدلله على ما انعم من الرزق ، فهو كثير . »

وبعد ، فلولا هذه العناية التي بذلها ملوك العرب ورجال

دولتهم في الشرق والغرب في صدد رعاية العلوم والفنون والآداب أكان بوسع الاعاجم في الاسلام ان يقيموا حضارة مـا ، او ان يبذوا سواهم ويربوا على من تقدمهم في العلوم، على مـا روى ابن خلدون ؟

ولولا الاموال التي بذلها بكرم ملوك العرب وحاشيتهم على اهل العلم والفضل من كل الملل هل كان في طاقة هؤلاء الانصراف الى خدمة تلك الحضـــارة ، وهم كانوا رعية دولة يتقيدون بتوجيهاتها ؟

والواقع ان هؤلاء العباقرة من الاعاجم ، سواء اكانوا من الموالي ام غيرهم ، انما يرجع الفضل الاكبر في انتاجاتهم الى البيئة التي نشئوا فيها، ولاسيما لأولي الامر الموجهين فيها، اولئك الذين كانوا يشجعونهم ويغمرونهم بالعطايا والمكافآت . وهم مدينون ايضــاً الى نزعة طبيعية مدارها نزعة الاقليات للظهور بمظهر الاحترام في الاوساط التي يرون انفسهم فيها أحط من منزلة اهل البلاد . وقد شرح كارل مانهايم احد العلماء المؤسسين لعلم الاجتماع هذه النزعة بقوله :

« ان طائفة من الناس ذات الوضع الخاص في المجتمع تستطيع ان تنمّي بين افرادها ملكات لا يدركها غيرها من ابنــاء ذاك المجتمع . فالأقليات، كاليهود مثلاً ، تحملها ارادة المحافظة على بقائها على متابعة التفكير فيما ينبغي عليها ان تجريه من اجـل التكيّف وفقاً للوسط الذي تعيش فيه . وهكذا فبينا ان اصحـاب البلاد يستمرون على السير وفقاً لتيارات مجتمعهم فان الدخـــلاء من

الاقليات يعتمدون على مجهودهم العقلي لتأمين النجاح في ذلك المجتمع . »

هذا واننا وان كنا نجاري ابن خلدون في القول بان العرب لم يخلقوا مدنية من العدم وانما هم اكملوا رسالة الامم التي سبقتهم ، واستعانوا على ذلك بابناء تلك الامم المعاصرين من هنود واغريق وسريان فانا لا نجد في ذلك اي بأس على العرب . ذلك لان احداً من واضعي المدنيات العالمية ، سواء اكان ذلك في الماضي ام في الحاضر ، لم يقل لمدنيته كوني فكانت ، وانما كان يستعين على عمله بمخلفات سواه . وهو اذ يضع مدنية كان يضيفها حلقة جديدة الى سلسلة مدنية العالم العامة تاركاً الى من بعده استكمال هذه السلسلة .

ألم يبن الفرس حضارتهم على قواعد مدنية الأشوريين والكلدانيين قبلهم مستعينين باهل البلاد التي دخلت في حوزتهم ؟

ألم يقتبس الاغريق مبادىء مدنيتهم ، في اول الأمر ، من الجزر المواجهة لمصر وفينيقيا التي سبق اهلها اليونان الى ثقافة الفراعنه والسوريين ، ثم أخذ الاغريق يبنون مدنيتهم على قواعد الثقافتين المصرية والسورية ؟ . . . . . بلى :

فارسطاطاليس (٦٤٠-٥٤٦ ق م) ، وهو اول فيلسوف يوناني بحث أصل المادة وتركيبها ، انما تتلمذ على مصر وسوريا مباشرة ، ولا سيما ابان رحلته اليهما . وقد اكد هذا فرنسيسكو جبريللي في مقال نشرته له اخيراً مجلة الشرق والغرب التي تصدر بروما . وبيتاغور (٥٧٠ - ٤٩٦ ق م) الذي قال عنه فرنسوا ميلبيار

انه جاء بنظرة جديدة في الحياة والكون ، انما اكتسب معلوماته من صيدا الفينيقية التي ولد فيها وتتلمذ على اساتذتها ، وذلك قبل ان يستقر به المقام في جزيرة ساموس .

وليوسبس (٤٨٥ – ٤١٥ ق م) صاحب نظرية الجوهر الفرد نقل هذه النظرية عن مصر وسوريا اثناء زيارته لهما .

وديمكريتس (٤٦٠ – ٣٧٠ ق م) الملقب بابي الفيزيا لم يضع مذهبه الفلسفي المعروف بالمذهب الذرّي الا بعد عودته من سوريا ومصر حسبما روى بيرار .

وزينون ، مؤسس الفلسفة الرواقية باثينا في اواخر القرن الرابع ق م ، هذه الفلسفة التي تعتمد على العقل ، والتي لا تزال مرعية في التمدن الحديث ، هو من مواليد قبرص ومن تلاميذ سوريا – مصر .

والى هذا فقد اثبت استرابون المؤرخ اليوناني ، وايده في ذلك بيرار ، ان هوميروس استعار من الفينيقيين بعض مواد إلياذته ؛ من ذلك ان اسفار البطل عوليس ملك اتياكا ، التي ورد ذكرها في هذه الالياذة ، جاءت مطابقة لما هو مأثور عن الفينيقيين .

كل ذلك كان حافزاً لشيشرون الخطيب الروماني لأن يقول :

« كان على بتياغور وديمكريتس وافلاطون ان يزوروا البلاد البعيدة (اي مصر وسوريا) طلباً للعلم ؛ وكانوا يعتقدون انه لا بد من السفر اذا شاء أحد كسب العلم . »

وكذلك يصح هذا القول على الرومان . الم تقم مدنيتهم على

قواعد مدنية الأغريق ، وعلى سواعد ابنائهم ؟

الم يستعينوا على ذلك بالأمم الأخرى ، ولا سيما بالسوريين الذين ساهموا أيضاً في الولاية على العرش ؟

واذا كان الأمر كذلك ، من قبل ومن بعد ، فما يضير العرب ان تتلمذوا على من سبقهم ، واستعانوا بمن عاصرهم ؟

● تقصير العرب في المباني والمصانع وضيق مدنهم

● ذهب ابن خلدون في الفصل الثامن من الفصل الخامس (ص ٣٥٨) الى القول :

● « ان المباني والصنائع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة لقدرتها والى من كان قبلها من الدول . »

● « ان اوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر . »

وقد اشار في هذه المناسبة الى عمر بن الخطاب حينما استأذنوه باعادة بناء الكوفة بالاحجار بعد ان التهمتها النيران، وكانت مبنية بالقصب ، فاجابهم هذا الخليفة :

« افعلوا ولا يزيدنّ احد على ثلاثة ابيات ، ولا تطالوا في البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة . »

وعقب على ذلك ابن خلدون بقوله :

« ولما بعد العهد بالدين والتحرج في امثال هذه المقاصد ، وغلبت طبيعة الملك والترف ، واستخدم العرب امة الفرس . واخذوا

عنهم الصنائع والمباني ودعتهم اليها احوال الدعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع ، وكان عهد ذلك قريباً بانقراض الدولة. ولم ينفسح الامد لكثرة البناء ،واحتفاظ المدن والامصار الا قليلاً من السنين . وليس كذلك غيرهم من الأمم : فالفرس طالت مدتهم آلاف من السنين ، وكذلك القبط والروم . وكذلك العرب الاولين من عاد وثمود والعمالقة طالت امادهم ، ورسخت الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهيا كلهم اكثر عدداً وابقى على الايام ».

وفي هذا لا ينكر ابن خلدون قيام المباني والمصانع في الملة الاسلامية بالاضافة الى انه قد فاخر في مواضع اخرى بما ادرك العرب من التقدم في نواحي الحضارة والعمران مما لم يدركه سواهم من المتقدمين والمتأخرين . كما قال في الصفحة ٤٢٠ :

« ثم جاء الله بالاسلام ، وكان لاهله الظهور الذي لا كفاء له ، وابتزوا ملكهم ، فيما ابتزوه للامم ، حتى اذا تبجحوا من السلطان والدولة **واخذ الحضارة بالحظ الذي لم يكن لغيرهم وتفننوا في الصنائع والعلوم** ، وتشوقوا الى الاطلاع على العلوم العقلية الخ . »

هذا فضلاً عن قوله في الصفحة نفسها : « واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها في صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العلم وتفننوا في اصطلاحات التعليم واصناف العلوم ، واستنباط المسائل **حتى اربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين** . »

ولكن الذي نريد ان نعلق عليه من اقوال ابن خلدون هو

ما ورد في سياق كلامه على العرب والمسلمين في النواحي التالية :

١ ــ جواب عمر بن الخطاب في صدد النهي عن المطاولة في العمران .

٢ ــ ان بداية عهد العرب في العناية بالعمران ترجع الى عهد العباسيين .

٣ ــ ان المباني في الامة الاسلامية كانت قليلة وضعيفة بالنسبة لمن كان قبلها من الدول .

٤ ــ ان تشييد العرب المباني كان قريباً من انقراض دولتهم .

٥ ــ ان المباني التي اختطها العرب يسرع اليها الخراب .

٦ ــ ان مدة العرب كانت قصيرة خلافاً لغيرهم .

٧ ــ ان المصانع عند العرب كانت قليلة بالنسبة لمن سبقهم .

ونحن نريد ، بذلك التعليق ، ان لا يبقى للشعوبيين حجة على العرب والمسلمين يلوحون بها في كل مناسبة .

● **الحكمة في نهي عمر عن الغلو في البنيان .**

● لم يرد في الاسلام نصّ على تحريم تشييد القصور والتوسع في المباني . ولكن الحكمة كانت تقضي في عهد الرسول وخلفائه الراشدين بان لا ينصرف المسلمون عن اداء مهمة الرسالة الى الغلو في الدنيا .

وكان المسلمون قد زحفوا في عهد الخليفة عمر لا كتساح بلاد فارس وبيزنطة وذلك بعد ان كان النبي قد كتب في السنة السادسة بعد الهجرة (٦٢٨م) الى كل من كسرى وقيصر يدعوهما الى الاسلام فلم يستجيبا له ، كما كتب لسواهما . ورغم انهم احرزوا

انتصاراً عظيماً على كل من كسرى وقيصر فان مهمتهم لم تكن انتهت ، خصوصاً وان الفرس والروم كانوا لا يزالون يتربصون بالفاتحين الدوائر .

لذلك كان من الحكمة وقتئذ ان يبقى العرب اجناداً يحافظون على الروح الحربية استعداداً للطوارىء، ولاستكمال الفتوحات. ولا يتأتى لهم ذلك اذا انصرفوا بكليتهم الى الاستقرار والتلهي باقامة القصور والمباني وما يتبعها من الاسترسال في الترف والدعة والاطمئنان .

ذلك كان قصد عمر حينما سمح لهم ان يبنوا الكوفة بالحجر على ان لا يطالوا في البنيان بدليل انه قال لهم : « الزموا السنة تلزمكم الدولة . »

اما ان يحمل الجواب محمل الظن بان كاتبه كان منساقاً اليه بتأثير البداوة فهذا غير صحيح؛ لان هذا الخليفة لم يكن من اهل الوبر. بل كان مدنياً حضرياً من مكة . ومكة كانت عريقة في الحضارة وان كانت تحيط بها البداوة . على ان العرب سرعان ما نبذوا وصية عمر حتى في الحجاز مهد النبوة ، وحتى في ايام عمر وذلك لكثرة الأموال التي حملتها اليهم الفتوحات . ثم شجعهم على الاستمتاع بالحياة عثمان بن عفان الذي اشاد القصور وتطاول في بنيانها ، والناس على دين ملوكهم .

● **هل يرجع عهد المسلمين في الاقبال على المباني الى زمن العباسيين؟**

ان قول ابن خلدون تعليقاً على ما رواه في صدد جواب عمر بشأن تجديد بناء الكوفة؛ وهو : « ولما بعد العهد بالدين والتحرج في امثال

هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك والترف ، استخدم العرب امة الفرس واخذوا عنهم الصنائع والمباني » ان هـذا القول يصح الوقوف عنده .

فهل يريد ابن خلدون ان يقول ان بداية عهد اقبال العرب على المباني والمصانع ترجع الى زمن العباسيين الذين قامت دولتهم على سواعد الفرس في نشأتها وفي صدر ايامها ؟

أم انه يريد ان يقول ان الامويين استعانوا ايضاً بالفرس في الشؤون العامة . فان كان يريد الأول فيكون صاحب المقدمة تجـاوز الحقيقة ، وتجاوز على الأمويين ايضاً اذ اعتبر ان العرب لم يقبلوا على العمارة وعلى انشاء المؤسسات الصناعية الا منذ عهـد العباسيين . وربما كان يؤمن بهذا اذ اغفل ذكر دمشق في كل مرة اشاد فيها ببغداد والقاهرة وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة وغيرها .

وان كان يريد الثاني فيكون قد وقع ايضاً في سهو لأن الامويين لم يستعينوا بالفرس من اجل بناء دولتهم ، سواء اكان ذلك في النواحي السياسية والادارية ، ام في النواحي العمرانية . وانما الذين استعانوا بالفرس هم العباسيون .

والذي لا مراء فيه ان الامويين ما ان استتب لهم الأمر في الشام بحدودها الطبيعية حتى عكفوا على الاستفادة من خبرة اهل البلاد في تنظيم جهاز حكومتهم وفي تعمير بلادهم . وكان اهـــل الشام ينعمون ، في ذلك الوقت ، بمدنية مرموقة اكتسبوها من جراء اختلاطهم بالفاتحين خلال زمن طويل ينـاهز السمائة سنة . اضف الى ذلك ان خلفاء دمشق كانوا لا يتورعون ، في بعض

الاحيان ، عن مكاتبة قياصرة قسطنطينية بطلب بعض مشاهير الفنانين البيزنطيين والاخصائيين في العمارة للاستعانة بهم على ما اعتزموا تحقيقه من مشاريع. اما فارس فقد كانت في ذلك الحين بعيدة جداً عن دمشق لما بينهما من قفار غير آهلة بالسكان . لذلك فانها لم تشارك في العصر الأموي في العمران .

اجل فان عناية العرب بالعمران ترجع الى عهد الامويين ، اي قبل العباسيين ، لأن عبدالملك بن مروان الذي يعتبر بمثابة المؤسس الثاني للدولة ما ان استتب له الامر بعد القضاء على منافسيه في الخلافة وعلى الخوارج حتى ولّى وجهه شطر ناحيتين: ناحية تنظيم وتطهير جهاز الدولة من كل مظهر اجنبي ، فحوّل طرازها ولغة الدواوين الى العربية وسك النقود باسمه، وناحية التعمير والانشاء. ولا تزال قبة الصخرة القائمة في القدس اثرا خالداً من اثاره . وقد اطراها كثيرا كل من هاتير وفرکسون ، واتفقت كلمتها على القول بانها اجمل ما خلده التاريخ في الفن .

وخلفه ابنه الوليد (٧٠٥م) على ملك يتمتع بالاستقرار وينعم بثروة طائلة ؛ فعني باستكمال الفتوحات عنايته بالعمران. فاذا براياته تخفق من جبال استوريا، في شمالي اسبانيا، الى حدود الصين، ومن الهند الى قفقاسيا ، واذا بالصروح الفخمة والمنشآت تقوم في بلاده الواسعة . والى المساجد الكبيرة التي انشأها والتكايا بدمشق والمدينة والقدس وغيرها اقام المستشفيات ودور الايتام والمدارس ودور العجزة وملاجيء الجزامى والعميان وحبس عليها الاوقاف، ورعى العلماء والفقهاء ، واجزل العطايا للفقراء ، وحرّم عليهم

السؤال . وعبّد الطرق بين المدن ، واقام عليها الخانات ، وعني بالري والسدود . الى غير ذلك من الانشاءات التي يفخر بامثالها التمدن الحديث . وقد روى ابن خلدون في الصفحة ٤٠٩ من مقدمته : ان الوليد بن عبد الملك « حين اجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام بعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم من حصل له غرضه . » وذكر جرجي زيدان في الجزء ٥ من تاريخ التمدن الاسلامي ان عدد الصناع الذين وفدوا اليه من بلاد الروم بلغ نحو ١٢٠٠ عامل لبناء هذا الجامع ، وانه انفق عليه ١١،٢٠٠،٠٠٠ دينار (كذا) . وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن الثامن للهجرة واطنب في وصفه واطال .

على ان الوليد قضى نحبه قبل اتمام الجامع الاموي بدمشق فأكمله خلفه اخوه سليمان على شكل اعدّه الفنانون تحفة من تحف الفن .

ثم عرضت احوال داخلية وخارجية صرفت بقية الأمويين عن المضي في هذا السبيل وبهذا المقدار ؛ ولكن التاريخ يذكر ، مع ذلك ، ايادي بيضاء لكل من هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وذلك في ناحية العمران . وقد نوه ابو الفدا في الجزء الأول من تاريخه بقصرين بناهما هشام المشار اليه في موضع كان يسمى بالشام رصافة هشام .

على ان الغزوات الاجنبية ، التي منيت بها بلاد الشام ، ولا سيما في اواخر ايام العباسيين ، وان درست تلك المعالم ، ما كان منها

للأمويين ام لغيرهم، فان التنقيبات الاثرية الحديثة شرعت تظهرها للعيان فتنصف الامويين . وكان بينها قصر الحير أحد القصرين اللذين بناهما هشام بن عبد الملك، وهو الذي شيده في سنة ١٠٩ هـ=٧٢٧م. فانك تكاد تراه ماثلاً امام انظارك في متحف دمشق، فتأخذك الروعة وتقدر، على الفور، مقدار الرقي الذي ادركه الامويون في فن العمارة . كما ان قصر المشتى الذي عمره الوليد بن يزيد وكشفت عنه التنقيبات الحديثة يأتيك ببرهان آخر على مبلغ الأمويين من التقدم العمراني . ولعل الزمان يظهر ايضاً ما بقي من آثارهم تحت التراب فلا يبقى اثر من بعد لما تجنّى عليهم به خصومهم السياسيون .

وعلى كل حال فان آثارهم التي لا تزال قائمة في بلاد الشام، وابرزها الجامع الاموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس، تدلل على ان ما ذهب اليه ابن خلدون في صدد تأخر اقبال العرب على العمران الى عهد العباسيين، وذلك حينما استخدموا الفرس، كان قولاً يحتاج الى المزيد من التحقيق .

● هل كانت المباني الاسلامية قليلة بالنسبة لما كان قبلها عند الدول ؟

● نرجح ان ابن خلدون كان يريد الاشارة الى ما خلفه الاقدمون من هياكل ضخمة واهرامات حينما زعم ان المباني في الامة الاسلامية كانت قليلة وهزيلة بالنسبة للامم التي سلفت . وهذا صحيح لاشائبة فيه اذا كان هذا قصده، لاننا حيث وجهنا انظارنا الى مواطن الفراعنة وقدماء المكسيكيين واليونان والرومان والصينيين، والى البلاد التي دخلت في حوزتهم نشاهد

اثاراً كثيرة من هذه المباني العظيمة التي لم تبل ببلى الدولة على حين اننا لا نعثر على شيء مثلها في ديار المسلمين .

على ان هذا لم يكن يعود الى عجز العرب والمسلمين عن تشييد امثالها ، وانما كان مصدره ان الاسباب التي حملت الأقدمين على اقامة تلك المباني الضخمة ذهبت بذهابهم ، ولم يبق لها اثر في العهد الاسلامي. ذلك ان الحوافز لاقامة تلك المباني كانت تعود مباشرة الى عقائد تلك الامم ، وهي العقائد التي حاربها الاسلام ، كما ان مباني المسلمين التي تأثرت ببساطة عقيدتهم ما كان يُتوخى منها غير الفن والروعة والذوق والفخامة .

فاهرامات مصر والمكسيك انما كان الباعث على تسخير الشعب مدة طويلة وارهاقه لتشييدها فكرة دينية قائمة على عقيدة خلود النفس وترددها على اجسام الموتى . لذلك قامت الاهرامات وامثالها من الصروح الكبرى قصد ان تكون مدافن حصينة للملوك وذويهم ، ولذلك أتقن فن التحنيط ، وعني بوضع بعض الزاد في قدور الى جانب جثة الميت . وكان القصد من ذلك تأمين راحة نفس الفقيد بعد مفارقتها الحياة الدنيوية . وكذلك كانت هيا كل اليونان والرومان والصينيون وغيرهم بيوتاً الألهة . فكان من واجب المؤمنين ان يعنوا بهذه الصروح التي تقيم فيها اربابهم عناية تتفق مع عبوديتهم لهم ، كما كان من واجبهم ايضاً اقامتها على مناعة القلاع والمعاقل بغية صيانة من فيها من كل طارىء .

واما المسلمون فقد جاء دينهم يشن حرباً شعواء على هذه الوثنيات ، ويدعوهم الى عبادة واحد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن

له كفؤاً احد . وقام نبيّهم، حينما دخل مكة فاتحاً ، بتهـديم اوثان العرب في الكعبة بيده، ووصل شرعُهم الانسان بربه مباشرة، وجعل الصلاة مقبولة اينما قام بها المسلم ، لذلك فانهم لم يعنوا بتشييد مثل تلك المباني الحصينـة التي كانت تعمّر للألهة والملوك ، وانما اقتصروا على بناء المساجد الرائعة والقصور الجميلة ، وتنافسوا في تزيينها وزخرفها.

وهذا لا يعتبر تقصير من قبلهم، مثلما ان التمدن الحديث لا يعدّ مقصراً اذا لم يتقن التحنيط كما اتقنه المصريون في عهـد الفراعنة .

على ان العرب والمسلمين ، وان لم يعنوا باقامـة الاهرامات والهيا كل اسوة بالأمم السابقة ، فانهم، مع ذلك، لم يقصروا، مذ اقبلوا على الحضارة واقبلت عليهم وزخرت الاموال عندهم، في صدد اقامة المباني الضخمة النفيسة من مساجد وقصور ومعاهد ومتاحف مما جاء تحفة من تحف الفن . واذا كان المجـال هنا ليس فسيحاً للاستدلال فحسبنا الاشارة الى ما صدّرنا به هذا المقال من الاشادة بمنشآت الامويين ، وما نوهنا به في الفصل الخامس من هـذا الكتاب من مباني العباسيين والفاطميين ومسلمي اسبانيا . هـذا فضلًا عن ان كتب التاريخ العربية والاجنبية طافحة بالأمثلة على ما اقامه العرب والمسلمون من صروح وعمران .

● **هل صحيح ان تشييد العرب للمباني كان قريباً من انقراض دولتهم ؟**

● لا ندري كيف تسرّب هـذا الاعتقاد الى ابن خلدون ،

وهو اعتقاد لا يتفق مع الواقع لان العناية بالعمارة برزت عند العرب منذ صدر نهضتهم ، ورافقت فتوحاتهم التي جعلت الاموال تتدفق على بلادهم . وقد اشرنا فيما مضى الى ان عبد الملك بن مروان ما ان استتب له الامر في اواخر القرن السابع للميلاد حتى انصرف الى العمران ، كما اشرنا الى مآثر الوليد بن عبد الملك في هذه الناحية ،ولا سيما في الاهتمام بالمنافع العامة ، وتشييد الدور لها .

هذا ولما اقام العباسيون دولتهم على انقاض الامويين اعربوا، منذ بداية عهدهم، عن شغف بالعمران لا مثيل له ، وكان يساعدهم على ذلك اتساع في الملك رافقه زهد بالحروب ورغبة في الانشاء . فاذا بالمنصور ، وهو الثاني من خلفائهم (٧٥٤ م) يعني ببناء جامعه المشهور، وباقامة الحصون والقصور والمدارس . وحسبنا الاشارة الى ما كان عليه كل من قصريه : قصر الخلد ،وقصر باب الذهب من الروعة والجلال .

ثم ازدادت عناية خلفائه بالمباني استناداً الى تزايد عظمة الدولة وثروتها ، ولا يزال التاريخ يشيد بقصر الرشيد ، وبالقصر الآخر الذي بناه لزوجته زبيدة ، كما ينوه بقصر المأمون وغيره من القصور التي كانت تحمل اسماء الخلفاء الذين عمروها .

واشتهر المعتصم وابنه المتوكل في القرن التاسع للميلادبالحدب الشديد على العمارة. وقد احدث المتوكل اساليب من المباني لم تكن معروفة ، وفيها النمط الحيري ، والكمين ذات الأروقة . وبنى ثلاثة صروح كبرى تعرف بالجوسق والهاروني والجعفري . وعلى

رواية المسعودي (ج ٢ ص ٢٧٩) فقد انفق على بنائها اكثر من ماية مليون درهم .

وقد قلد رجال الدولة ملوكهم في اقامة المباني الفخمة؛ فقصور البرامكة وابن الخصيب ، وقصر ام حبيب ، وابن الفرات، وابن مقلة ، وقصر بني خلف في البصرة كانت تضاهي في عظمتها قصور الخلفاء .

وهكذا فخلال جيل واحد لم يزد على ٨٤ سنة برزت البلاد العباسية على شكل من العمران المزدان بالمساجد والقصور والحمامات والمدارس والمستشفيات وشتى المباني والحدائق على شكل رائع لامثيل له في سائر العالم. وقد ذكر ابن الأثير (ص ٢٨ ج ٦) ان المتنزه الذي اقامه اسماعيل بن علي انفق عليه ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم .

هذا ورغم ما مني به العباسيون ،من بعد، من تنازع الترك والديلم على السلطة في بغداد فان نزعتهم للعمران ظلت بارزة فبنى المعتمد قصر الثريا الذي كان يشغل مساحة تناهز ثلاثة فراسخ ، وانفق عليه ٤٠٠٠٠٠٠ دينار (المسعودي ٣٢٨ ج ٢) ، كما بنى قصر التاج الذي اتمه ابنه المكتفي .

وكان آل بويه الديلم ، الذين خلفوا الترك ، في فترة من الزمن ، على منصب امارة الامراء في بغداد، شديدي الحرص على تقليد الخلفاء وذويهم في بنيان القصور . ومن اشهر قصورهم قصر معز الدولة الذي انفق على بنائه ٨٠٠٠٠٠٠ دينار (على رواية ابن الاثير (ص. ١٥١ ج ٩). وقد روى جرجي زيدان انهم لما ارادوا

هدمه بذلوا في سبيل حك الذهب الذي كان في سقفه ٨٠٠٠ دينار .

على ان العباسيين وان أمسوا، فيما بعد، لا يحكمون فعلاً الا على بغداد وما حولها من جراء تسلط السلجوقيين على دولتهم، غير انهم ظلوا الى آخر ايامهم يظهرون ميلاً للعمران . وما كانت دار الشجرة التي انشأها المقتدر بالله في مطلع القرن الحادي عشر الا تحفة رائعة ومتعة للناظرين . ولما قامت الدول الأخرى العربية بالأندلس وفي مصر طمع كل منها بان يبزّ العباسيين في العمران . فما ان استتب الامر لعبد الرحمن الداخل، وهو اول ملوك الأمويين في قرطبة حتى خف الى بناء قصره المعروف بالقصر الكبير . وهو، في الواقع، كان مدينة مؤلفة من ٤٣٠ قصراً غالى في زخرفها، واحاطها بالحدائق والمتاحف . كما انه بادر الى تعمير المسجد الذي وصف بانه لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه، وانفق ثمانين الف دينار في حياته على انشائه . ولكنه مات قبل ان يستطيع اتمام القصر والمسجد، واتمها خلفاؤه خلال مدة طويلة وعلى شكل عجيب، وانفقوا الاموال الطائلة على زخرفها وتزيينها .

وكان شغف اموي الاندلس يزداد بالعمارة بازدياد قوة الدولة: فابتنوا، هم ووزراؤهم، قصوراً عدة ومساجد بالغ المؤرخون في وصفها . ومنها قصر الزهراء الذي بدأ بانشائه الخليفة عبد الرحمن الناصر في القرن العاشر للميلاد، واتمه ابنه الحكم، واستغرق بناؤه اربعين سنة . وهو، في الواقع، كان بلداً يمتد طولاً ٢٧٠٠ ذراع

بعرض ١٥٠٠ ؛ومنها قصر الزاهرة الذي ابتناه، من بعد، المنصور ابن ابي عامر في خلافة هشام بن الحكم .

وكذلك كان شأن الفاطميين منذ انتقلوا من تونس الى مصر. فقد رفعوا القصور الرائعة، وتفننوا في تشييد المقاصير والمنظرات، وكان من اشهرها القصران الشرقي والغربي. وقال المقريزي «انهم أنفقوا على عمارة القصر الشرقي مليوني دينار . وان قصر الخليفة المستنصر كان يتسع لثلاثين الف شخص.» ولا يزال جامع الازهر ماثلا امامنا يشير الى مقدار عنايتهم بالعمارة منــــذ بداية عهدهم في مصر .

وهذه الأمثلة التي اوردناها تبرهن على شكل لا يأتيه الباطل من امامه ام خلفه على ان العرب انما عنوا بالعمران وبانشاء المباني في كل مكان . وان هذه العناية برزت ابتداء من قيام دولهم ، وليس قريباً من انقراض هذه الدول كما ذهب اليه ابن خلدون .

● هل صحيح ان المباني التي اختطهـــا العرب كان يسرع اليها الخراب ؟

● حينما قال ابن خلدون ما قال تحت عنوان «في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الأقل » (صفحة ٣٥٩) أورد مثـــالاً على ذلك الكوفة والبصرة في العراق ، والقيروان في تونس .

والواقع ان الخراب الذي اصاب الكوفة والبصرة في العراق والقيروان في تونس لم يكن للعرب دخل فيــه ، وانما مرده الى اسباب سياسية واقتصادية هي من عمل الزمان .

لقد كانت هذه البلاد تتمتع بالسعادة والازدهار في كل من عهدي العباسيين بالعراق وبني الأغلب في تونس؛ ولكن الغزوات التي توالت عليها من كل صوب افضت بالتالي الى زوال الدولتين، والى خراب بلادهما بسبب الحروب المتصلة والفتن ومظالم المكتسحين .

والى هذا فان خراب بعض المدن كان يعود الى اسباب اقتصادية محضة؛ وكما ان البصرة كانت تتنقل ما بين حالتي الازدهار والذبول من جراء تطور حالة التجارة فيها فان الفسطاط بمصر، التي اشاد المقريزي جداً بعمرانها و كثرة سكانها، منيت بانحطاط مستمر بمقدار ازدهار القاهرة جارتها التي قال عنها ابن خلدون « ولا اوفر اليوم في الحضارة من مصر . » وبعد اليست القاهرة من مباني العرب ؟ ولماذا لم يسرع اليها الخراب ؟

والواقع ان التنازع البقائي في الكون يشمل المدن والامصار كما يشمل الافراد والامم . واذا اصاب الخراب البصرة في حقبة من الزمن فلا يكون الذنب ذنب السكان . ذلك لان السبب قد يكون اقتصادياً، ام خارجياً . وهذا ما اراده الشاعر بقوله :

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

● **هل كانت مدة حكم العرب قصيرة بالنسبة لسواهم ؟**

● بعد ان قرر ابن خلدون ان ما شيده العرب في الاسلام من المباني والمصانع كان قريب العهد من انقراض دولتهم عقّب على ذلك بقوله :

« لم ينفسح الامد لكثرة البناء واحتفاظ المدن والامصار الا قليلًا . وليس كذلك غيرهم من الأمم : فالفرس طالت مدّتهم

الوف السنين ، وكذلك القبط والنبط والروم ، وكذلك العرب الاولين من عاد وثمود والعمالقة طالت امادهم . الخ »

ونحن لا نحاول ان نتعرض هنا الى قلة البناء وكثرته عند العرب واحتفاظهم بالمدن والامصار لأنا قد وفينا هذا الموضوع بعض حقه ببيان العمران الذي تمتعت به الامصار العربية، وذلك في مواضع اخرى من هذا الكتاب ؛ ولكننا نريد ان نحصر النقاش في موضوع قصر مدة العرب في الحكم فنقول: قد يخيل الى بعض قراء مقدمة ابن خلدون، لاول وهلة ، انه كان على حق فيما ذهب اليه، من ان مدة العرب كانت قليلة فلم تفسح المجال لهم لكثرة البناء والعمارة ، ولكن دراسة قليلة لهذا الموضوع لا تلبث ان تظهر لنا ان هذا الظن جاء على غير الصواب .

فان كان القصد منه المقابلة بين جملة السنين التي حكم العرب خلالها في الاسلام وبين سواها من حكم الامم الاخرى التي تقدمتهم فان هذا القصد يأتي مجحفاً بحق العرب . ذلك لان الفرس والروم والقبط (اي فراعنة مصر) لم يكن احد منهم دولة واحدة ، وامة واحدة تعاقبت على الحكم، بل كان كل منهم يرجع الى سلالات مختلفات ، وطبقات متعددات ، هذا فضلاً عمّا كان يتخلل هذه السلالات المختلفة من دول اجنبيات .

فعقب دولتي الفيشدازية والكيانية اللتين قامتا في فارس بعد تحررها من الكلدان ، دخلت بلاد الفرس في حوزة اسكندر المكدوني ، ثم ما ان اتيح لها ان تستقل بعد موت هذا الفاتح حتى تقسمت الى دويلات، وتوزعت بين ملوك الطوائف . وهم من

فصيلة البارت Parthes التي كانت تسكن في الجنوب الشرقي من بحر الخزر Caspienne ، وتدين بديانة زورو واستر . وظلت بلاد الفرس على ذلك الى ان اتيح لهـــا ان تتوحد بدولة آل ساسان الا كاسرة .

كما ان الروم البيزنطيين الذين حكموا ما ينوف على الف سنة لم يكونوا ، في الواقع ، دولة واحدة ، وان شملهم الاسم جميعاً . بل قامت في القسطنطينية تسع دول لتسع اسر كان بينها واحدة لاتينية . وكذلك القبط فراعنـــة مصر فلم تكن دولهم دولة واحدة، ولم تكن عواصمها عاصمة واحدة ، بل كانوا دولاً متعددة ترجع الى سلالات مختلفة في الجنس : فان الاسر الحاكمة بمصر التي تأتي في ترتيب السلالات الحاكمة الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة ، وهي المعروفة عند اليونان بالهيكسوس كانت من جزيرة العرب والشام وتعرف بدول الرعاة ، كما ان الاسرة الخامسة والعشرين كانت أثيوبية . ثم دخلت مصر في حوزة الفرس من حين لآخر ؛ فكانت كل من الدولة السابعة والعشرين والواحدة والثلاثين دولة فارسية الى ان انتقل حكم مصر الى اليونان .

لذلك كان من الأصح ، ان تكون المقابلة في مدة الحكم بين كل من الفرس والروم والقبط من جهة ، وبين العرب من جهة اخرى قائمة على اساس شامل لحكم العرب ، ما كان منه قبل الاسلام ، وما بعده ؛ ذلك لان وثبة العرب بالاسلام كانت ، كما قال بيرار ، واحدة من وثبات سبقتها تتمثل بعـاد وثمود والعمالقة والتبابعة وغيرهم من العرب البائدة . وحينئذ فاذا جمعنا ما بين حكم العرب

في الاسلام وبين حكمهم من قبل ادركنا رقماً للعرب لم يدركه سواهم من الامم التي اشار اليها ابن خلدون .

ومع ذلك فاذا ابى الشعوبيون الا الاقتصار في المقابلة على ما بين حكم احدى هذه الأمم القديمة وبين مدى حكم العرب في الاسلام فانا نسألهم اذا كانت تعتبر قصيرة مدة تناهز ٨٦٠ سنة تمتع فيهـا العرب بالحكم ابتداء من اول الخلفاء الراشدين ابي بكر الصديق سنة ١١ هـ = ٦٣٢ م الى سقوط غرناطه سنة ٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ . ونسأل ابن خلدون ايضاً اذا لم تكن هذه المدة الطويلة كافية لان تفسح المجال للعمران وكثرة البناء ؟

على انا اذا عمدنا الى حصر المقابلة بين بعض الأسر الشهيرة الحاكمة عند الاقدمين وبين امثالها في عهد العرب الاسلامي نصل الى نتيجة تشير الى ان العباسيين كانوا اطول مدة من الاكاسرة الفرس : فدولة بني العباس في بغداد استقر لها الحكم ٥٢٤ سنة هجرية يضاف اليها ٢٥٧ سنة اخرى مدة الخلافاء العباسيين في القاهرة بعد سقوط بغداد. اي منذ ١٢٦٠ الى ١٥١٧ م. بينما ان دولة الأكاسرة من ال ساسان ، التي ظهر الاسلام في عهدها ، لم تعمر اكثر من ٤٥٣ سنة . وان مدة العباسيين هذه وان كانت غير قصيرة الأمد بالنسبة لا سرة واحدة فانها كانت كافية لان تفسح المجال للدولة الحاكمة لتحقيق ما تريد من اقامة المباني والعمران . وقد قام العباسيون فعلاً بكل ذلك على مستوى واف وعال

هذا الى ان العرب الذين خيّل لابن خلدون بانهم انقرضوا بانقراض معظم دولهم وتوحشوا وعادوا الى قفرهم ، هاهم يملأون الارض

ضراما في سبيل استكمال تحررهم ، ويجملون حديثهم حديث العالم باسره، بينما ان الأكاسرة والفراعنة والقياصرة أمسوا كلهم في عداد ذكريات التاريخ . وهنا لا بد من الاشارة الى ابن خلدون وقع بالمتناقضات حينما تعرض لمدة حكم العرب : فبينما هو يقول ان قصر عهدهم لم يفسح المجال لهم لكثرة العمران ، كما قدمنا ، اذا به يذهب في مكان آخر ،الى ان احراز بعض دولهم نصيباً كبيراً من الازدهار المدني يعود الى طول آمادهم ، كما يرى القــارىء في القسم التالي .

● **هل كانت الصنائع عند العرب قليلة بالنسبة لمن سبقهم ؟**

● قال ابن خلدون (صفحة ٤٠٤) «ولهذا نجد اوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل الصنائع بالجملة حتى تجلب اليـه من قطر آخر.» وعزا ذلك لعراقتهم في البداوة .

وكأنه شاء ان يستدرك حينما تمثل امامـه مقدار ما ادركه العرب البائدة من عمران شديد كان حافلاً بالصنائع فخف الى تعليل ذلك، ورده الى رسوخ اقدام هؤلاء في التمدن الافاً من السنين . فقال في الصفحة ٤٠٤ عن اليمن والبحرين وعمان والجزيرة .

« وإن ملكه العرب الا انهم تداولوا ملكه الافاً من السنين في امم كثيرين منهم ، واختطوا امصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء . فطال امد الملك والحضارة ، واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبــل ببلى الدولة ، وبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن ، كصناعة

الوشي والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . »

بيد اننا لا نلبث ان نرى ابن خلدون يورد عباراتٍ اخرى في مقدمته كلها اطراء لبلاد العرب كافة في عهد الاسلام وتنويه بصناعاتهم وبازدهارها واحدة واحدة مثل اقواله :

● في الصفحة ٤٣١ «ذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والاندلس ، واستبحر عمرانها ، وكان فيهما للعلوم والصنائع اسواق نافقة ، وبحور زاخرة . »

● في الصفحة ٤٣٤ « واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدر الاسلام واستوت فيها الحضارة كيف زخرت فيها بحار العالم . »

● «وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد . فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، واحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد امصارها ، كالمباني والطبخ واصناف الغناء واللهو من الالات والاوتار والرقص وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف وجميع المواعين ، واقامة الولائم والاعراس وسائر الصنائع التي يدعو اليها الترف وعوائده . فنجدهم اقوم عليها وابصر بها ، ونجد صنائعها مستحكمة لديهم . فهم على حصة موفورة من ذلك، وحظ متميز بين جميع الامصار . وان كان عمرانها قد تناقص ، والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدوة (اي المغرب) . وما ذلك الا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الاموية وما قبلها من دول القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف ،

وهلم جرا .

« فبلغت الحضارة فيها مبلغاً لم تبلغه في قطر الا ما ينقل عن العراق والشام ومصر ايضاً لطول اماد الدول فيها . فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق ، وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه الى ان ينتقص بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب . وكذا ايضاً حال تونس فيما حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم، وما استكمل لها في ذلك من الصنائع في سائر الاحوال، وان كان ذلك دون الاندلس . »

وقد خص ابن خلدون مصر بالاشادة في عمرانها وصناعاتها بمواضيع كثيرة من مقدمته : فقال في الصفحة ٤٣٤ « ونحن لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر، كما ان عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ الاف من السنين ، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت »

وقال في الصفحة ٥٤٥ « ولا اوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي ام العالم ، وايوان الاسلام وينبوع العلم والصنائع . »

وهكذا فان ابن خلدون بعد ان ذهب الى القول بان اوطان العرب في الاسلام كانت قليلة الصنائع والمباني عاد فاطرى كل قطر من اقطارهم لما اصاب من العمران وحفل بالصنائع والعلوم والمباني .

وهذا التناقض الصريح يجعلنا نقف متسائلين عن السبب وعن مصدر هذا التأرجح في الرأي . واذا احسنا النية فلا نجد لهذا

الابهام حلاً الا في ناحية واحدة . وهو ان صاحب المقدمة، الذي قلما نوه بالامويين وبعاصمتهم دمشق ، في معرض حديثه عن الدول الاخرى ، ربما كان يعتبر ان العصر الأموي كان وحده عهد العروبة في الاسلام بالاضافة الى الامارات والدويلات العربية التي قامت في جزيرة العرب وفيما حولها . واما العصور الأخرى التي تلته والتي اجزل الثناء على دولها ، ونوه بمآتيها في الحضارة فكانت في نظره إسلامية فحسب .

وهذا الافتراض يرجحه ذهاب المؤرخين، قبل بروز فكرة القوميات في القرن التاسع عشر، الى اطلاق اسم الدول الاسلامية على ما كان منها من دول عربية ام أعجمية دون تفريق على اساس ما دعا اليه الاسلام من الوحدة الدينية. ويرجحه ايضاً بقاء سواد اهل المغرب ، حيث نشأ ابن خلدون ، حتى الان على اصطلاح مداره اطلاق اسم «تاريخ المسلمين» على الدول الاسلامية التي تعاقبت بعد الاسلام ، وذلك رغم مساعي الافرنسيين الشديدة من اجل اثارة النعرات العنصرية التي قضى عليها الزمان .

على ان هذا التقدير نفسه لا يبرر ، مع ذلك ، موقف ابن خلدون احياناً من العرب حينما يحط من شأنهم وشأن حضارتهم إذ يزعم بأنهم لم يكثروا من المباني والمصانع ، وان ما حصل عندهم منها كان قريب العهد بزوال سلطانهم . ولكننا قد نوهنا ، في هذا الفصل وفيما بعد من الفصول ، بما كان عند العرب من صناعات زاهرة وعلوم زاخرة ومباني عامرة لذلك لا نجد حاجة للتكرار . خصوصاً وأنه قد سبق لنا ان بيّنا في الجزء الاول من كتابنا

«قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور» بنصيب قومنا في كل قطر من الاقطار من عمران كان حافلاً بالمباني والعلوم والصنائع في شتى الفنون .

وبعد كل هذا فاذا صح ان الصنائع كانت قليلة عند العرب بالنسبة لمن سبقهم فهذا لا يضيرهم . لان العادة جرت ولا تزال تجري، حتى الآن على تبريز كل أمة في ناحية او اكثر من النواحي الاقتصادية دون سواها وفقاً لمؤهلاتها . فتكون هذه الأمة صناعية ، وتلك زراعية أم تجارية ، ويقوم التبادل بينها بسد نقص كل منها في ناحيته الضعيفة . ولعل العرب ، الذين كانوا تجار العالم بين الشرق والغرب ، كانوا يجدون في مواردهم التجارية بالاضافة الى انتاجاتهم الزراعية ما هو اجدى لهم من الانصراف الى زيادة الصنائع في بلادهم ، فاعتمدوا على الاستيراد لتأمين بعض حاجاتهم الصناعية ..

واخيراً فانا نرجو ان يكون هذا التحقيق كافياً لاقناع الشعوبيين بان الاستدلال بابن خلدون قصد الحط من شأن العرب هو غير مجد ، خصوصاً وان صاحب المقدمة نفسه ينكر عليهم تفسير بعض اقواله على غير ما اراد .

الفصل الثالث

الهجوم على القومية باسم الانسانية

نقاش مع الاستاذ كمال جنبلاط

عقد في يومي ٢٣ و ٢٤ ايار ١٩٥٦ مؤتمر حلقة دراسات مفاهيم الحرية في بيروت ، وكان في جملة المحاضرين الاستاذ كمال جنبلاط ، وموضوعه «دور القومية في تقوية المجتمعات الحرة او في تقويضها»

استهل الاستاذ جنبلاط المحاضرة بعد توطئة قصيرة بقوله :

«وليس من المصادفة اذن في هذا القطاع من العالم الجديد القديم في آن واحد الواقع في هذا الربع الشامل لسوريا وبلاد ما بين النهرين وما حولها ، والمرتكز على امتدادات الاقاليم العربية في آسيا وافريقيا حيث تقرر مصائر النفط ، ليس من المستغرب ان يشهد العالم الحديث تيارات القومية والانعزالية والاقليمية التي تهز العالم العربي ، وتحدوه على رفض كل مساومة مع اسرائيل ، وكل تحالف مع اوروبة . وبين هذه التيارات تبدو ربما نزعة مغرضة متطرفة ، لكنها ضئيلة الشأن ، تستنهض العالم العربي على مصارعة

الغرب نفسه .»

وقد علق الاستاذ جنبلاط على ذلك الذي اسماه مركب النقص بقوله ان «مركب النقص الذي يتجلى في نوع من الحيرة «والارتباك والتوقف عن النمو ، وهي ظاهرات تميز المجتمعات «المغلقة او المتخلفة اقتصادياً . ويتفق احياناً ان يتحول هذا «المركب تحت تأثير الخطباء السياسيين المهيجين الى نقيضه . اي «مركب المجد والعظمة الجماعية والتعصب القومي الذميم والطموح «اللامحدودة الى ارادة السيطرة والقومية .» ووصف هذه الحالة ب« القومية المشدودة على ذاتها وذات النزعة العدوانية »

وعقب هذا الكلام العام شاء الاستاذ جنبلاط ان يخص العالم العربي بالذكر ويضع النقاط على الحروف فقال :

« ان العالم العربي فيما خص قضية القومية لا يختلف عن الشرق بوجه عام . فهو يشكو من مركب النقص اكثر مما تشكو منه اوروبا والولايات المتحدة والعالم السوفياتي . » وقد ردّ ذلك الى ان « السياسة الغربية المرتكزة على عدم التفهم ، واحياناً على احتقار وعداء الشرق العربي وآسيا اساءت للعرب ، ولأن الغرب والصهاينة لعبوا اكثر مما يلزم على وتر التناقض والتعاكس ، واساؤا وتصرفوا في تطبيق قاعدة المانديلا الاصيلة كما يلقبها الهنود . »

كما ردّ ذلك الى ان السياسة الغربية « خلقت دولة سياسية على اساس ديني عرقي وحافظت عليها بين مجموعة من الشعوب معادية التي تكاد عقلية جماهيرها لم تتحرر الا قليلاً من طور التجمع على

اساس البدائية والصوفية الدينية . »

ثم ذهب الى القول في الحل المعقول « انه كان من الواجب حلّ المعضلة على اساس قومية متفتحة انسانياً ، وهي وحدها الوصفة المحكمة التي يمكن الاشارة بها في هذه المنطقه الحساسة من العالم على اساس اتحاد فدرالي عربي يهودي فلسطيني يفسح مجال ادخال فلسطين ودمجها معنوياً ان لم يكن سياسياً في مجموعة بلدان الشرق الأدنى » .

وكان في جملة مقترحاته لاحلال التكتل العالمي محل القومية والوطنية ما يلي :

● « تطهير الكتب المدرسية (بواسطة مؤسسة دولية كالاونسكو) من التعصب والانحراف الوطني الذي تتميز به ، ولربما تجدر كتابة التاريخ من جديد ، فانه لا يوجد تاريخ للعلوم يتفق الناس كلهم عليه » المادة ٦

● « تخفيف وحتى الغاء الاسباب الاقتصادية والاجتماعية العميقة التي تجعل من القومية اداة هدامة للحريات الفردية ، وانشاء نقطة خامسة تعني خصوصاً بالضمانات الاجتماعية للأمم المتخلفة اقتصادياً ، وتكون برعاية الدول الكبرى المثرية » المادة ٩ .

وانتهى الى القول في معرض هذه الاقتراحات : « ولكي نكون حقاً بشراً علينا ان نتخلى عن كل وطنية !! لان ما نصبو اليه من توحّد لا يتحقق الا على صعيد حقيقة أعلى . »

على ان الاستاذ جنبلاط لم يكتف بتوجيه النقد للعرب بسبب تمسكهم بقومية (مشدودة) ولوقوعهم في احضان مركب نقص

هو عندهم اشد منه في الغرب ، بل حمل على حكامهم وزعمائهم ، وقال عنهم « بعد ان عجزوا عن انشاء ديموقراطيات سياسية لجأوا الى القومية كسلاح ذي حدين بغية البقاء في مراكز القيادة الشعبية والحكم ، ومنع الانطلاق السياسي على الاجيال الجديدة الطالعة ، وتأخير التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي قد يضر بمصالحهم الخاصة . »

ثم لم يقف عند هذا الحد، وذلك ابان ما وضعت محاضرته في المؤتمر موضع النقاش ، بل ردّ على احد المناقشين الذين تعرضوا لكلامه في الناحية الصهيونية بقوله (كما هو مدون في محضر المؤتمر بالحرف الواحد) :

« لا يمكن اعتماد حلول تقضي بطرد ابناء فلسطين اليهود منها لان اي حل على اساس القومية الضيّقة لا بد ان يتجاهل حق الجميع في تقرير مصيرهم . فالقومية تقول بحقي وحدي متجاهلة حق سواي . »

وعندما سئل « كيف يمكن لنا ان ننفتح انسانياً على الذين اغتصبوا ارضنا، وشردوا اهلنا، وذبحوا اخواننا واخواتنا؟» ارتفع الاستاذ جنبلاط الى مستوى انسانية بوذا والفلسفة الهندية التقليدية، وقال بلسان عربي فصيح : « المحبة تجلب المحبة ، والعدالة تجلب العدالة . » فجاء جوابه كأنه يدعو العرب الى ان يقابلوا اعتداء الصهيونيين وتحدياتهم بالمحبة، وان يقابلوا ظلمهم المستمر ومطامعهم البعيدة بالعدل والأنصاف .

ونحن وان كنا من الذين يقدسون حرية الفكر، ويتمنون مثل

ما يتمنى الاستاذ جنبلاط ان يدرك العالم مستوى وحدة كاملة شاملة تجعل منه امة واحدة متآلفة متعاونة لتعزيز المعرفة ولاقرار السلام فما كنا لنتعرض لمناقشته في هذا الموضوع لولا ان هـــذه الدعوة جاءت كدعوة لترك السلاح ابان معركة لا نزال نخوضها ضـــد الحليفين : الاستعمار والصهيونية . معركة حامية الوطيس يتوقف عليها البقاء او الفناء . معركة احتل العدو في الجولة الاولى منهـا جزءاً من وطننا، واتخذه مركزاً حربياً استراتيجياً له وللاستعمار من اجل تهديد سلامتنا وتمزيق شمل وحدتنا . وما كنا لنتعرض لمناقشته في هذا الموضوع لولا ان عالمنا المليء بالشعوبيات المختلفة التي يمتطيها الاستعمار هو في حاجة ملحة للبقـــاء مترابطاً بعروة القوميـــة الوثقى والايمان بحقوقه ، ولولا ما لهذه الدعوة من العواقب السيئة، ولا سيما في الظروف الحاضرة ، على شبابهم عدتنا في هذا الصراع .

لذلك ورغم اعتقادنا ان هذه النظريات العلمية صادرة عن حسن نية من المحاضر . ورغم اتفاقنا معه في تعليل اسباب التوتر بين العرب من جهة ، وبين الغرب واسرائيل من جهة اخرى ، كان علينا ان ننبري للتعليق على المبادىء التي استقر رأيه عليهـــا ، وذلك باسم العلم ايضاً ، على الترتيب الآتي :

١ ــ هل نظرية الاستاذ جنبلاط عملية ؟

٢ ــ هل تتعارض الوحدة الانسانيـــة الكبرى بالوحدات الاجتماعية الصغرى !

٣ ــ هل كان العرب على خطأ عندما اعتصموا بالقومية ؟

٤ — هل كان العرب على خطأ حينما ابوا مساومة اسرائيل ؟
٥ — هل يلام العرب على موقفهم من الغرب ؟
٦ — هل حلول الاستاذ جنبلاط للقضية الفلسطينية معقولة ؟

واما حق اليهود في فلسطين فانا نفرد له فصلاً آخر يلي هذا الفصل بعنوان « التاريخ يتكلم في من هم أحق بفلسطين »

وقبل الدخول في هذا النقاش يسرنا ان نعلن ان شخصية الاستاذ جنبلاط السياسية لم تتقيد بهذه النظريات العلمية ، بل كان في كل مرة يحك الركاب بالركاب مع اسرائيل ، او مع الغرب ، يبرز الاستاذ فارساً عربياً مخلصاً شديد التعصب للقومية والوطنية فيضرب الاعداء ضربات قاسمات ولا يناجز . وليس بوسعنا ان نستعرض هنا مواقفه هذه كلها فنقتصر على التنويه بموقفه الأخير حين العدوان المثلث على مصر . فقد اشترك باسم حزبه في مؤتمر الاحزاب اللبنانية الذي عقد مساء ٣١ تشرين الاول ١٩٥٦ ، برياسة الحاج حسين العويني ، ووقع على بيان المؤتمر الذي شجب العدوان .

ولما عقد في اليوم التالي المؤتمر الوطني برياسة رئيس الجمهورية وتناول الاستاذ جنبلاط الكلام استهله بالاشارة الى العروبة الاصيلة في دمنا ولغتنا وعاداتنا ومصيرنا . وكان في جملة ما طالب به باسم حزبه : تأييد مصر ، وضم المجموعة العربية لتفاهم صريح مخلص قوي ، وقال حرفياً :

« اريد من فخامتكم ان يعلن موقف لبنان باستنكار العدوان البريطاني الفرنسي ، وبشكل صريح قوي ، وعلى الاقل ان نأخذ الخطوات العملية لمنع الجيوش المعتدية من اخذ مؤنتها

من لبنان . »

لذلك فانا اذا ناقشنا الاستاذ جنبلاط فانا لا نتعرض لشخصه الوطني ، وانما نناقش ما سمعناه من نظريات علمية أدلى بها في مؤتمر دراسات مفاهيم الحرية .

● **هل نظرية الاستاذ جنبلاط الانسانية عملية ؟**

● اصبح العالم في العصر الحاضر مترابط الاجزاء ، من جراء سهولة اسباب الانتقال ، وتوفر انواعها ، حتى صحت تسميته بعالم واحد . وكان من نتيجة ذلك :

١ - ان المبادىء التي تقوم على قاعدة « الانسان اخ الانسان احب ام كره » وجدت لها مجالاً للبروز والشيوع في العصر الحاضر حتى اصبحت اساساً لمقررات « هيئة الامم المتحدة » التي تمثل العالم ..

٢ - ان العالم ولّى وجهه شطر مستقبل سوف تتوحد فيه الانسانية بالفعل ، وذلك بنظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وهذه امنيات وتمنيات صارت تدغدغ قلوب الناس جميعاً حباً باحلال الاخوة محل التنابذ ، واقامة السلام مكان الخصام . ويحدوهم اليها ما امسى للحروب من اخطار جسام ، فضلاً عما لهذه الوحدة الكبرى من فوائد عظيمة للانسانية والمدنية والعمران .

يتمناها الاقوياء اشفاقاً على ما عندهم من منظمات ومؤسسات وعمران تصبح كلها طعمة للنيران اذا استمر كل منهم منكباً على التأهب للحروب ، ورغبةً منهم في تحويل الاموال التي تعد للقتال الى المنافع

العامة ، هذا فضلاً عن حرصهم على عزّ سياسي ادركوه .

ويتمناها الضعفاء بغية بلوغهم في الحقوق مستوى الاقوياء ، وقصد التمتع بحياة حرة لا يعتورها تعدٍ من قبل الاقوياء ، سواء اكان ذلك في الناحية السياسية ، ام في الناحية الاقتصادية .

ويتمناها النساء بصورة خاصة من اجل الاطمئنان على مصير اولادٍ لهن حملنهم شهوراً كثيرة في بطونهن ، ثم احتضنّهم في بيوتهن سنين اكثر ، وضحين في سبيل هنائهم راحتهنّ حتى اذا شبوا وترعرعوا أصبحوا معرضين لحروب تحصدهم حصداً ، حروب لا مبرر لها الا مطامع بعض السياسيين والعسكريين والاقتصاديين ، هؤلاء الذين يجدون في هذه الحروب منافع لهم وان افضت الى الخراب .

لذلك فان هذه التمنيات العامة تبنتها هيئة الأمم المتحدة فاعلنت حقوق الانسان والعناصر ، على اختلاف الالوان ، وقررت حقوق الدول ، وألّفت ، من اجل تحقيقها ، الفروع على اختلاف مسمياتها ، وشرعت تنفق الملايين في سبيل اخراجها الى حيّز الوجود .

ولكن ترى هل احرزت هيئة الامم المتحدة النجاح فيما قررت وانفقت ، ام لا تزال هذه الاماني المحبوبة حبراً على ورق ضمن نطاق محاضر الجلسات والسجلات ، ولا تفتأ قيد التمنيات .

والجواب على ذلك انما يرد فيما لا نزال نشاهده من احداث في بلادنا وحولنا ، وفيما وراء البحار ، تعلن كلها صراحة أن الحق لا يزال مع القوة ، وان الاستعمار لا يزال يكابر من اجل البقاء والاستثمار ، وبان الذين يدوسون هذه المقررات هم انفسهم الذين

كانوا بمثابة الأئمة في هيئة الامم المتحدة حينما وضع هـذا المجلس قراراته الانسانية .

فاميركا التي ظاهرت فرنسا في الجزائر وتسامحت معها باستخدام اسلحة منظمة الحلف الاطلسي في سبيل اذلالها ، لا يزال السود في بلادها عرضة لمظالم البيض من ابنائها، يُقتل أحدهم لاسباب تافهة، ويخف الابيض لمنع الطالب الزنجي من تسجيل اسمه في عداد طلبة المدارس الحكومية ، واذا تدخلت الحكومة يضرب عن ادخال اولاده في تلك المدارس احتجاجاً على قرارها .

وانكلترا التي شهرت بالأمس حرب ابادة على قبائل الماوماو الافريقية ، وتقذف اليوم المدمرات على القبائل العربية في جنوبي الجزيرة لان تلك وهذه تطلعت الى الاستقلال، انكلترا هذه ساقت مع فرنسا الاساطيل والطائرات والجنود الى قبرص تهديداً لمصر والبلاد العربية، ثم انقضتا على مصر من وراء اسرائيل بكل قواهما البحرية والجوية والبرية .

ولما ذلك ؟

لان مصر شاءت بعد التخلص من الاستعمار السياسي ان تتحرر من الاستعمار الاقتصادي فأممت شركة قنال السويس ؛ وهي شركة مصرية في ارض مصرية .

وفرنسا التي لا تزال تستعبد افريقيا السوداء اسوة ببلجيكا والبرتغال ، وتستثمر دون اهلها خيراتها اشهرت حرب ابادة على الجزائر ، وساقت اليها نحو نصف مليون جندي شرعوا يمعنون في الفتك بأهلها، ولا سيما في المسالمين الآمنين في بيوتهم. وما ذلك إلا

لان الجزائر العربية ترفض الاعتراف بأنها جزء من ارض فرنسا اللاتينية الاوربية، ولانها تطالب باستقلالها اسوة بمراكش وتونس وليبيا، ووفقاً لمقررات هيئة الامم المتحدة في صدد حق الشعوب بتقرير مصيرها.

والاتحاد السوفياتي الذي يدعو الى السلم والسلام، ويحمل حملات شعواء على الاستعمار، في كل مناسبة، هو يقوم باستعمار آخر على شكل جديد حتى اذا شعر بحركة تحرر في المانيا الشرقية او في بولونيا او المجر سارح الى قتلها في المهد بالحديد والنار اسوة بفرنسا في الجزائر.

لذلك كله كانت الوحدة الانسانية، التي يتمناها البشر جميعهم، والتي وضعت هيئة الامم المتحدة اسساً لها في مقرراتها، لا تزال فكرة تنتظر يوماً آخر لتحقيقها؛ وهي تتبرم وتئن ألماً من شريعة الغاب التي لا تفتأ قائمة على اساس ان الحق مع القوة. ومع ذلك فان الاستاذ جنبلاط ترفع عن الوضع الراهن، واستوى على عرش الفلسفة العاجي حينما دعا، في محاضرته الناس عامة وقومه خاصة، الى الالتفاف حول مبدأ قيام عالم واحد لا فواصل بين اجزائه وأهله.

وما من احد يستطيع ان يوجه النقد للاستاذ جنبلاط على الدعوة للمبادىء الانسانية، وعلى وضعه الاقتراحات القيّمة من أجل تحقيقها. ولكن الذي نأخذه عليه.

(اولاً) تخصيصه القومية العربية والوطنية بالتسفيه ابان ما يرى من محاولات للاستعمار مستمرة للاحتفاظ بسلطانه على بلاد الشرق، واثناء

ما تتحفز اسرائيل ،ربيبة الغرب، للانقضاض على العرب بالاتفاق مع الاستعمار ، ولا تبالي بقررات هيئة الامم المتحدة .

(ثانياً) حملته على العرب لانهم يرفضون مساومة اسرائيل والمشي في ركاب الغرب. كما أننا نأخذ على المحاضر حرصه على ان يطبق العرب المبادىء الانسانية التي لا تزال في حيّز النظريات بينما هي غير مرعية عند سواهم .

أجل فان الوحدة الانسانية التي يدعو اليها الاستاذ جنبلاط هي نظرية تكاد تكون في عداد المستحيلات في العصر الحاضر حتى ولو تحققت الوحدة السياسية ، ذلك لان المدنية الحاضرة قوامها التنافس الاقتصادي . واذا رفعت الحواجز الجمركية من بين الامم ابتلع الأقوياء منها الضعفاء ، كما تبتلع الحيتان الاسماك ، فيعود بذلك الاستعمار سيرته الاولى على شكل آخر في ظل وحدة العالم السياسية . وهذا مصير سوف يحاذر الوقوع فيه السواد الاعظم من الدول حرصاً على الاستقلال الاقتصادي، الا أن يصبح العالم شيوعياً ويجري في تطبيق انظمته على منهاج السوفيات في صدد اضطلاع الدولة نفسها بالشؤون الاقتصادية اسوة بالسياسية . وهذا لن يكون ايضاً لان النظام السوفياتي الشيوعي وان قام على مبدأ مساواة الافرادالا انه لا يزال يمارس القوة في سبيل استعمار الامة للأمة .

هذا فضلاً عن ان الشيوعيين انفسهم ، الذين طبقوا النظرية الماركسية ، اثناء ثورتهم الحمراءالكبرى وذلك بالعنف وبالانقلاب القسري المفاجىء، لم يلبثوا ان عدلوا عن هذه الطريقة في الآونة الأخيرة،

وجاروا بقية الفلاسفة وعلماء الاجتماع في صدد الاعتقاد ان الانقلابات الفجائية غير طبيعية ، فضلاً عن انها غير سليمة العواقب . واكبر دليل على ذلك برز للعيان بعد انتصار الشيوعية ، في الصين سنة ١٩٤٩ ، على الحكم الوطني . فرغم احراز الحزب الشيوعي الصيني ، ومن ورائه الاتحاد السوفياتي ، ذلك الانتصار العظيم على « ما يسميه الحكم الاستعماري الاقطاعي الرأسمالي البيروقراطي » ، ورغم انشائه الجمهورية الشعبية الصينية التي يطلق عليها لقب « دولة ديكتاتورية الشعب الديموقراطية » فان الشيوعية هناك لم تقض على القوميات ، بل اعترفت بها ، وجرت في بلشفة تلك الامصار ، الواسعة الكثيفة بالسكان وبمختلف العناصر ، على الطرق التدريجية . وهي في ذلك تستعمل الوسائل الاقناعية والوسائط المغرية ، وتحاول ان تترك للقوميين والرأسماليين الوقت الكافي للاقتناع بمباديها ، ولاختيار نظمها دون غيرها .

وامامنا الآن ، ونحن ندون هذا المقال ، « دستور الجمهورية الشعبية » نقرأه فنجد في مقدمته كما في بعض مواده اعترافاً بالقوميات وحقوقها دون التباس ولا غمغمة .

فقد جاء في المقدمة « ان جميع قوميات بلادنا قد اتحدت في عائلة كبرى من الشعوب المتساوية الحرة »

وجاء في المادة الثالثة من الدستور « الجمهورية الشعبية الصينية دولة متعددة القوميات موحدة . جميع القوميات متساوية . والتمييز والاضطهاد ازاء القوميات ممنوعان . وكذلك الاعمال الرامية الى تمزيق اتحاد القوميات . ان لجميع

القوميات حرية استخدام وتطوير لغاتها المنطوقة والمكتوبة، وحرية ابقاء او اصلاح عاداتها وتقاليدها .»

« يطبق الاستقلال الذاتي المحلي في الاقاليم التي تتمركز فيها اقليات قومية .»

على ان هذا الاعتراف بالقوميات رافقه في الدستور بعض الاشارات الى « انه اعتراف يبقى ساريا الى ان تأخذ القوميات تماماً خصائص تطورها بعين الاعتبار فيما يتعلق بالتحويلات الاشتراكية .» على اعتبار « ان المرحلة التي تمتد من انشاء الجمهورية الشعبية الصينية الى ان يتم بناء المجتمع الاشتراكي هي مرحلة انتقالية .»

وبعد فاذا كانت الشيوعية السوفياتية الحمراء لم يسعها ، بعد اكتساح الصين بالقوة، الا الاعتراف بقومياتها المتعددة ،والنص في دستورها على وجوب مراعاتها وتأمين حقوقها كاملة؛ واذا كانت الشيوعية السوفياتية سلكت، في تكوين المجتمع الاشتراكي هناك، مسلك التأني والتدرج خلال فترة انتقالية تذوب خلالها ، على رأيها ، الاقليات تدريجياً تبعاً لتطور الافكار؛ فهل يجوز للاستاذ جنبلاط ان يندد (ولو علميا) بقومية قومه ، وهي واحدة لا شريك لها ، وان يدعوهم الى التخلي عنها ، وهي مصدر قوتهم . وذلك اثناء خوضهم معركة حياة ام موت ؟

● **هل تتعارض الوحدة الانسانية الكبرى مع الوحدات الصغرى ؟**

● درج بعض الناس، اذا ما حاولوا ان يدعوا الى مبدأ جديد ،

على تسفيه ما عداه ، وعلى محاولة تهديم مـا سواه ليشقوا الطريق لمبداهم الجديد على اعتقاد انه لا يقوم الا على اساس تقويض اركان المبادىء الموجودة . مثلاً : ان بعض انصار الوحدة القوميـة في بلادنا يشنون حربا شعواء على القائلين بالجامعة المليـــة ؛ كما ان القائلين بالجامعة الدينية يقابلون القوميين بمثـــل ذلك، ويسفهون مذهبهم . والواقع ان الفريقين على خطأ ما زال كل منهما يناضل في سبيل هدف واحد يرمي الى التحرر من الاستعمار ،والى ادراك مستوى العالم الراقي .

وهما على خطأ لان الاجتماع البشري يقـوم على اسس روابط متعددة تبدأ بالعيلة، فالوطن ،فالقومية ،فالجامعة الدينية، فالمدنية، وتنتهي بالرابطة الكبرى رابطة الأخوة الانسانية . ومثلما ان وجود العيلة في المجتمع الوطني لا يتعارض مع فكرة الوطن،فان الوطنية لا تتعارض ايضاً مع القومية ، كما ان القومية لا تتنافى مع الجامعة الملية .

وعلى هذا القياس فان الايمان بالقومية والوطنية لا يتعارض مع الدعوة لتحقيق الوحدة الانسانية . والدليل على ذلك ان العالم لو اصبح واحداً ، على الشكل الذي دعا اليـــه الاستاذ جنبلاط، وتوحّدت دوله ، فلن يكون معنى ذلك زوال الروابط الصغرى كالعائلة والوطن والقومية ، فضلا عن الحكومـــات التي تربط الافراد والجماعات بعضها بالبعض الآخر .

كلا ان ذلك لن يكون لان هذه الروابط الصغرى هي حلقات لا يمكن صياغة السلسلة العامة الا بوجودها، وهي كالخلايا التي لا غنى عنها.

على انا وان كنا لا ننكر بان الروابط البشرية تعتورها زيادة أو نقصان بحسب حاجة الناس اليها وبمقتضى روح الزمن وبمقدار تطور افكار الناس ، بيد اننا نعتقد ان هذا التطور لا يقضي عليها كلها ، وانما تأتي الزيادة في بعضها بمقدار ما ينقص من البعض الآخر .

ففي الغرب أفضى النظام الاقتصادي الى اضعاف رابطة العيلة واعتماد الفرد على ذاته ، ولكن هذا النظام ادى ، في نفس الوقت ، الى تعزيز الرابطة الوطنية بدافع حرص الانسان على ما أنتج واثمر . ومهما دنا الغرب من فكرة الوحدة الانسانية فان احداً من أممه لن يتخلى عن وطنيته وعن مميزاته وتاريخه . وآية ذلك ان روسيا ، التي طبقت بالقوة والعنف نظام الوحدة الشيوعية ، لم تستطع ، مع ذلك ، استئصال ما عند شعوبها من نزعات قومية ودينية ، كما انها لم تقو على انتزاع حرص الدول ، التي تدور في فلكها ، على وطنيتها . وهذه الدول ما تزال نتطلع الى اليوم الذي تستطيع فيه ان تحذو حذو يوغوسلافيا في انفصالها عن الأتحاد السوفياتي ، سواء اكانت مخلصة لمبادىء الشيوعية ، ام غير مؤمنة بها . وقد جاء الدليل على ذلك بالانتفاضات الكبيرة التي حدثت العام الماضي في كل من بولندا والمجر ، فضلاً عن المانيا الشرقية .

وفي الشرق ، حيث جزأ الاستعمار اوصاله وامعن في استثمار بلاده وانتهاك حرماتها ، تنادى الناس الى الوطنية والقومية ، ذلك لان كل بلد من بلاد الشرق لم يكن يرجو العون الا من مواطنيه اولاً ، ومن ابناء قومه ثانياً . واذا استطاع الشرق ان يستعيد مكانته ويدنو كغيره من فكرة الوحدة العالمية فهل ينسى انه انما

ادرك هذا بالتعاون مع قومه ، وانه لا يستطيع الحفاظ على ما ادرك ، اثناء الصراع القديم الجديد الذي يقع بين الشرق والغرب ، بغير استمرار التعاون معهم والتضامن .

وهكذا فان الروابط الكثيرة التي يحفل بها نظام الاجتماع البشري سوف تبقى قائمة ، وان اعتور بعضها زيادة او نقصان ، وسوف تبقى حلقات في سلسلة الوحدة العالمية الانسانية حتى ولو تحققت هذه الوحدة التي يدعو اليها الاستاذ جنبلاط وامثاله من الانسانيين الطيبين . ذلك لان هذه المنظمة العالمية المنشودة اذا قامت فانما تقوم على ذرات هي الافراد ، واذا وجدت هذه الذرات فلا مندوحة لها من التكتل بروابط مختلفة تصاعدية وتدريجية ، روابط تتكون منها الوحدة العامة المنشودة .

لذلك فانا لا نرى من اصالة الرأي شن الغارة على القومية والوطنية اثناء الدعوة الى الوحدة الانسانية بينما ان هذه الرابطة وامثالها هي طبيعية في المجتمع البشري بحيث لا يمكن صياغة السلسلة الكبرى الا بحلقاتها .

هذا فضلاً عن اننا نستنكر ، بصورة خاصة ، دعوة الشرق العربي الى التخلي عن القومية والوطنية ، ابان استمرار خصومه على الاعتصام بهما . وهي وان كانت دعوة الى شيء محبوب من حيث الاساس ، لكنها لا تزال حتى الآن في حيّز النظريات ، ولا تزال بعيدة المنال .

وهل من اصالة الرأي دعوة قوم مظلومين الى تخليهم عما يدفع عنهم العاديات ويجلب لهم المنافع في سبيل فكرة لا تزال في حيّز

القدر، فكرة لم يأخذ بها خصومهم. وقد قيل «لا يفلّ الحديد الا الحديد ؟ »

● هل كان العرب على خطأ حين اعتصموا بالقومية ؟

بعث العرب بعثاً جديداً في القرنين الاخيرين ، وما ان فتحوا عيونهم حتى رؤا انفسهم امام استعمار يحتل بلادهم ويبتزّ خيراتها. وهو اذ يتمادى في احتقارهم يشن عليهم حرباً شعوبية مقنعة بغية تشتيت افكارهم ، وتحويلها عن اي هدف يجمع كلمتهم .

ثم وجدوا انفسهم، في الشرق الأدنى، وجهاً لوجه تجاه خطر جديد وخيم العواقب انزله الغرب في صميم القلب من بلادهم وبين مقدساتهم ، وشمله برعايته وعنايته، وأغدق على ذويه المساعدات من اسلحة واموال قصد ان يجعل من فلسطين مركزاً استراتيجياً حربياً عند الملمات ، وبغية ان تقوم اسرائيل فيصلاً بين دولهم الأسيوية والأفريقية، وحاجزاً دون هدفهم الأسمى، وهي الوحدة العربية.

فتلفّت العرب ذات اليمين وذات اليسار فاذا بهم يجدون انفسهم بين عدوين : عدو استعماري مقنع بستار شفاف من المدنية، لا يخفي ما وراءه من مطامع ، وعدو خبيث اناني سافر الوجه مكشر الانياب لا يتورع عن الاعلان ، في كل مناسبة ، ان تخوم بلاده تمتد من النيل الى الفرات، وانه قد عزم على استردادها بالقوة .

فماذا ترى يجب ان يفعل العرب وقد عقدوا العزم ، منذ بعثهم الجديد، على ان يعيشوا مستقلين اعزة كراماً شأن كل الأمم الحية ؟

لهم اوطان ، ولكنها مجزأة وموزعة بين المستعمرين . اذن فمن الواجب ان يكونوا وطنيين ومتعصبين لاوطانهم من اجل اجتماع الكلمة في سبيل تحريرها .

ولهم جامعة قومية هي العروة الوثقى بين امصارهم المتعددة المستعمرة ، فيها قوتهم ، وفيها اتحاد كلمتهم . اذن فمن المفروض عليهم ان يلجأوا الى القومية ، وان يتعاونوا بها من اجل تحقيق امانيهم المشتركة .

وهكذا تحتم على العرب ان يكونوا وطنيين وقوميين حينما صار عليهم ان يختاروا بين الرضوخ للاستعمار ، والرضاء بالذل والعبوديةوانتظار اليوم المشؤم الذي يمسون فيه ارقاءلاسرائيل ، وبين حياة حافلة بالاستقلال والسيادة والكرامه ؟

لذلك كان من التجني عليهم زجهم بين « مجموعة من الشعوب تكاد عقلية جماهيرها لم تتحرر من البدائية والصوفية الدينية » وكان من التجني علىقوميتهم اعتبارها انها «تيارات قومية انعزالية إقليمية . »

واما اتهام زعماء العرب القوميين بأنهم « لجأوا الى القومية ، السلاح ذي الحدين ، بغية البقاء فيمراكز القيادة الشعبية والحكم ، ومنع الانطلاق السياسي على الاجيال الجديدة الطالعة ، وتأخير التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي يضر بمصالحهم الخاصة . » فهو اتهام لم نعلم لمن يوجهه الاستاذ جنبلاط .

لا شك انه لا يقصد بذلك اولئكالقوميين الذينحرروا تباعاً من الاستعمار سوريا ولبنان والعراق وشرقي الاردن وليبيا

ومراكش وتونس، كما انه لا يعني بذلك الابطال الاشاوس الذين يقودون ثورة الجزائر منذ سنتين ونيف حيال نصف مليون جندي مزود بأحسن الاسلحة، بينما هم لا يملكون من عتاد الكفاح الا الارادة والايمان .

ولا ريب انه لا يوجه هذه التهم الى السادة القائمين على الحكم في الوقت الحاضر الذين وقفوا تجـــاه الاستعمار الغاشم ، ولا سيما في معركة القناة ، موقفاً رفع رؤس العرب والشرق ، واسترد كرامتهم، اولئك الذين جعلوا القضية العربية قضية واحـدة فعلاً بعد ان كانت لا تتعدى الاقوال ، وجعلوها عالمية بعد ان كانت لا تتعدى بلاد العرب والمحافل السياسية .

واياً كان يتهم الاستاذ المحاضر فمما لا شك فيه ان احداً من الزعماء العرب القوميين منع الانطلاق السياسي على الاجيـــال الجديدة ، وأخر التطور الاقتصـادي والاجتماعي . بل ان الاحداث التي عاصرناها اخيراً ارتنا انطلاقاً سياسياً ، ولا سيما بين الشباب ، يثلج القلوب فرحاً ، كما جعلتنا امام تقـدم اقتصادي وتطور اجتماعي في كافة البلاد العربية لا عهد للتاريخ الحديث بهما الا في الولايات المتحدة الاميركية منذ حرب الاستقلال .

هذا وانا نعتقد ان الاستاذ جنبلاط يريد من كل قلبه ان تتمتع الجزائر باستقلالها باسم الانسانية التي تتنافى مبادئها مـــع العبودية . ونعتقد ايضاً انه على يقين بان فرنسا لا تتخـــلى عن استعمارها هناك استناداً الى المبادىء الانسانية ،فكان على الجزائريين البواسل ان يعتصموا بحبل القومية المتين ،ويثوروا على الاستعمار

مع علمهم بما سوف يصيبهم من القتل والتعذيب والسجن والنفي ومصادرة الاموال . فهل يصح ، والحالة هذه ، ان نعتبر هؤلاء القوميين « مجموعة من الشعوب تكاد عقلية جماهيرها لم تتحرر من البدائية والصوفية الدينية ، او ان نصف ثورتهم بانها « تيارات قومية انعزالية اقليمية » ام علينا ان نبارك عملهم ؟

ولا ريب في ان جواب الاستاذ جنبلاط سيكون ايجابياً يبرر عمل الجزائريين في صعيد الاتجاه الى قوميتهم لادراك حقهم السليب .

● **هل كان العرب على خطأ حينما رفضوا مساومة اسرائيل ؟**

● نحن لا نشك في ان الاستاذ جنبلاط قد اطلع مثل غيره واكثر على هدف الصهيونية العالمية البعيد ، وقرأ وسمع التصريحات التي استمر زعماؤها يدلون بها دون تحفظ في صدد تحديد وطن اسرائيل من النيل الى الفرات .

ونحن لا نرتاب في ان الاستاذ جنبلاط ادرك كغيره ان نجاح الصهيونية في تحقيق قيام دولة اسرائيل شجعهم على ان يمضوا في سبيل تحقيق هذا الهدف المنشود ، وان تظاهراتهم في صدد احلال السلام بينهم وبين العرب انما يراد بها اولا تبرير موقفهم تجاه العالم ، وثانياً ، وهو بيت القصيد ، استعمار البلاد العربية اقتصادياً على انتظار الفرص التي تتيح لهم ابتلاعها سياسياً ، الواحدة تلو الاخرى ، وذلك بعد صلح يتيح لهم تمزيق وحدتها والتفريق فيما بينها .

اجل فان لليهود ، الذين استطاعوا ان يتصرفوا بمقدرات الدول الكبرى ، اساليب سوف يعتمدون عليها فيما اذا قدر لهم ان ينتزعوا

من العرب الصلح ، وان يقودوهم الى ميدان التعاون .

وكان بعض المواطنين ، في عهد الانتداب ، يذهبون مذهب الاستاذ جنبلاط في ضرورة المساومة مع إسرائيل، والعيش معهم في سلام ؛ وكان الحافز لهم على ذلك ليس المبدأ الانساني اسوة به، وانما قصد تبادل المنافع الاقتصادية مع جيران تجمعنا بهم السامية. ولكن لم يمض من الوقت الا قليل حتى كان هذا القليل كافياً للتجربة ، فأدركوا انهم على خطأ في الرأي ، فمشوا في طليعة المناضلين ضد اسرائيل ، وضد التعاون معها، حفاظاً على استقلالهم الاقتصادي ، فضلاً عن السياسي .

كما ان فريقاً آخر من الناس كانوا يتساءلون ،فيما بعد، اذا كان الصلح مع اسرائيل يتفق مع مصلحة العرب فيما اذا قام على اساس قررات هيئة الامم المتحدة ،وذلك بغية احلال السلام محل الخصام في الشرق الادنى ؛ ولكنهم ما ان عرفوا حقيقة المرامي الصهيونية ومطامعها حتى ادركوا ان كلاً من الاعتماد على حسن الظن ، والركون الى المبادىء الانسانية حيال خصم لا يبادلهم مثل هذه الشعور وخيم العواقب ؛ كما ادركوا اصالة رأي الذين صمدوا في وجه كل مسالمة مع اسرائيل ، خصوصاً بعد ان بدل الزمن الموقف ، ورجحت كفة العرب الحربية .

ولابدع فان من الخطل في الرأي استسلام شعب الى المبادىء الانسانية متى كان خصمه لا يبادله مثل هذه العواطف ، بل ينصرف بكليته الى الاستعداد للحرب تأميناً لمطامعه الاشعبية . ولنا في التاريخ شواهد على ذلك اقربها ما حدث في اوروبا بين

بروسيا وفرنسا .

كانت فرنسا في القرن التاسع عشر تعتبر الدولة الاولى في مصاف الدول الحربية . ولكنها ابتليت في مطلع ذلك القرن بانتشار المبادىءالانسانية في اوساطها دون ان تتعداها ، فاضعفت مناعتها واستأصلت حماستها . ولقدشاعت فيها مبادىء محاربة فكرة الوطن ، وكراهية الاستعداد للحرب ، وتسفيه القوميات ابان ما كانت جارتها بروسيـــا تنشأ نشأة عسكرية ، ومثلها سائر الدويلات الجرمنية ، وتعمل جاهدة للاتحـــاد في سبيل العزة والتوسع . وكان من عواقب ذلك انه ما ان اشتعلت الحرب في سنة ١٨٧٠ بين فرنسا العظيمة الانسانية والمانيا العسكرية الناشئة حتى وقعت الواقعة على الافرنسيين ، واحتل الالمان باريس .

لذلك فاننا نناشد طيّبي القلوب ان يأخذوا من التاريخ عبرة ، وان يكفوا عن التبشير بهذه المبادىء قبل اوانها . هذه المبادىء التي تعتبر هدامة بالنسبة للعرب في حالتهم الراهنـة ، وان كانت في الاصل قويمة . خصوصـاً وان العرب لا يزالون في حرب مع اسرائيل ، وهم على اشد الحاجة للاحتفـاظ بوحدتهم وحماستهم ، والاستمرار على استعدادهم للدفاع عن كيانهم .

ونناشد هؤلاء الانسانيين ان يكفوا عن محاربة القومية التي هي سلاح العرب الوحيد ما زال خصمهم ، الذي ربح المعركة باحتـلال جزء من اراضيهم ، يتحفز لاحتلال بقية بلادهم دون الحفول باية مبادىء انسانية . ومـا زال هذا العدو يجد الآن بين دول الغرب من يظاهره على المكشوف ، ضد العرب ، بينما كان

هؤلاء الانصار في الامس يتسترون في مساعدته على تحقيق امانيه.

● **هل يستحق العرب اللوم على موقفهم من الغرب ؟**

● يوجه الاستاذ جنبلاط اللوم للعرب لأنهم انفضوا من حول الغرب. والواقع ان قومنا الذين كانوا اصدقاء للغرب لم يعدلوا عن صداقتـــه الا مكرهين. وفي الكتاب الذي اصدرته سنة ١٩٥٤ بعنوان « واشنطن تعبّد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين » امثلة كثيرة على المواقف العدائية التي كانت تقفهـــا واشنطن ولندن وباريس ازاء العرب ، تلك المواقف المحرجة التي كانت تخرجهم تدريجياً من صفوف الحلفـاء الى الوقوف موقف الحياد ، ثم تدفعهم الى مصافحة موسكو.

وكان القصد وقتئذ من اصدار هذا الكتاب الفات نظر الدول الغربية الى عواقب سياستها المتبعة حيال العالم العربي على أمل ان تستقيم فتستبقيه موالياً لها . ولكن الغرب ظل ماضيـاً في سبيل النكايه بنا : فـكان يظاهر اسرائيل ، ويؤيد بعضه بعضاً في مصر ومراكش وتونس، ثم في الجزائر، أبان انتفاضات البلاد للاستقلال. وكانت النتيجة ان الغرب عبّد الطرق فعلًا لموسكو في الشرق العربي ، وساعد على امتداد نفوذها الى البحر المتوسط ، بينما ان روسيا القيصرية سلخت نحو ثلاثمائة عام من قبل في السعي الحثيث لبلوغ هذا البحر دون جدوى. هذا وبينما كانت الدول الغربية ماضية في سبيلها ولا تحسب حسابـــاً للشعوب المناضلة في سبيل البقاء والكرامة كانت موسكو السوفياتية تعرف كيف تستثمر الظروف العالمية بالناحيتين السلبية والايجابيـة ، حتى اذا سلحت

مصر ، ثم غير مصر ، ووقفت موقف المحامي عن وجهة نظر العرب في قضية تأميم شركة قناة السويس ، وحتى اذا انتصبت انتصاب الفارس المناجز لصد العدوان المثلث كسبت المعركة التي يخوضها المعسكران الغربي والشرقي ، وكسبت معها القلوب التي لم تكن لتطمئن لماقبل عام فحسب ، دون ان تتقبل الشيوعية . وبذلك تحقق ما توقعناه في الكتاب المذكور قبل مضي سنتين فقط .

ونحن لانحاول ان نكرر هنا ايراد الاسباب ، واحدة واحدة ، التي اضطرت اكثر العرب للانسحاب من صفوف الحلفاء والالتزام الحياد بين المعسكرين لانا وفّينا هذا الموضوع حقه في كتابنا المذكور ، ولان الاستاذ جنبلاط ، وهو السياسي المثقف ، من اكثر الناس علماً بها . ولكنا نريد ، ان نعود معه الى استعراض مواقف الغرب من العرب في قضية فلسطين ، وذلك من قبيل الذكرى .

اليس الغرب هو الذي وعد اليهود ، وصدق وعده ، في صدد انشاء وطن قومي لهم بفلسطين ، ثم ظل يمدهم بكل تأييد حتى حققوا هدفهم في قيام اسرائيل ؟

اليس الغرب هو الذي تغاضى عن تعديات اسرائيل المتوالية على جيرانها ، وعن تمردها على قرارات هيئة الامم المتحدة ، وكان يكتفي بما تسجله لجنة الهدنة حين تدينها تباعاً ، دون ان تكون لهذه الادانة اية نتيجة حاسمة ؟

اليس الغرب ، العليم بمطامع اسرائيل ، هو الذي استمر يعاونها من اجل تحقيق هذه المطامع ، وذلك بما كان يغدقه تباعاً عليها من مال وسلاح بالاضافة لما يجمعه يهود العالم من مساعدات كثيرة

مالية واسلحة حربية ؟

بلى، وان الأسلحة التي كانت تنهمر على اسرائيل من كل جانب يعرف الاستاذ جنبلاط مقدارها ومصادرها ؛ واما الأموال فانا نترك للرئيس جمال عبد الناصر الكلام في صددها بالنسبة لامريكا فقط . قال في خطاب له القاه في الاحتفال بالعيد الخامس للثورة (٢٦ تموز ١٩٥٦) ما يلي :

« فالهبة السنوية التي تعطيها امريكا لاسرائيل من ٣٠ الى ٥٠ مليون دولار ، والمساعدة الفنية تبلغ سنوياً من ٦ الى ١٤ مليون دولار . وفائض المواد الغذائية التي تهديها امريكا لاسرائيل قيمتها ٧ ملايين دولار ، ورؤوس الاموال الاميركية التي تعمل في اسرائيل ٢١٤ دولار .

« في ١٩٥٥/٧/١٢ اعطى بنك امريكا قرضاً لاسرائيل قدره ٣٠ مليون دولار ، كما جمع اليهود في امريكا ثلاثة ملايين دولار ، وتبرعات ١٦٤ مليون دولار . ومجموع التعويضات الالمانية ٣٥٠٠ مليون دولار تدفع كل سنة منها جزءاً بضائع وسفناً ومصانع .

« تبرعات يهود امريكا لاسرائيل خلال الستة شهور الأولى من هذا العام ٦٥ مليون دولار . »

واخيراً اليست انكلترا وفرنسا هما اللتان شجعتا اسرائيل على التمرد على العالم وعلى اكبر رئيس دولي في العالم حينما ابت الاذعان لقرار هيئة الامم المتحدة ، ورفضت الامتثال لاوامر الرئيس ايزنهاور في صدد الجلاء عن الاراضي المصرية : غزة وشرم الشيخ ،

وذلك بعد العدوان المثلث ؟

وبعد فما عسى ان يكون موقف العرب من الغرب وهم كانوا يرون هذه الاموال وتلك الاسلحة تنهمر كالوابل على اسرائيل سراً وعلانية ، وهي اموال واعتدة تدّخر لحربهم ، وتحشد للقضاء عليهم ؟

وما عسى ان يكون موقف العرب من الغرب بعد ان بحّ صوتهم من الشكايات على اسرائيل التي كانت تتمرد على هيئة الامم المتحدة ومجلس الامن ، ولا تعبأ بشروط الهدنة ؟

وما عسى ان يكون موقف العرب ازاء الغرب بعد ان بخل عليهم في بيع السلاح الا ّ ما ندر ، ومنع عنهم ، عامداً متعمداً ، المساعدات المالية الا ّ ما قل ؟

وماذا عسى ان يكون موقف العرب من الغرب وهو الذي كان يصم آذانه عن نذير الحرب المقدسة التي تعلن على منابر المجلس النيابي في تل ابيب واورشليم بالاضافة الى تصريحات كان لا يفتأ اقطاب الصهيونية يدلون بها ، هنا وهناك ، وكلها تعرب عن مطامعهم في البلاد العربية ؟

وماذا كان ينتظر من العرب ان يفعلوا وقد علموا بما عقدته فرنسا واسرائيل من حلف موجه ضدهم ، ورأوا باريس تمشي وراء تل ابيب مع انكلترا بغية القضاء على مصر ، وعلى امل ان تتبع بها سائر الدول العربية . ثم رؤا فرنسا وانكلترا توحيان الى اسرائيل بان لا تنسحب من الاراضي المصرية متحدية بذلك العالم باجمعه ؟

واذا تجاوزنا فلسطين وقضيتها ، التي خلقها الغرب وجعلها

خطراً على السلام ، والتفتنا الى المغرب العربي المناضل في سبيل الاستقلال فماذا نرى ؟

اننا نرى الدول الغربية ، التي وضعت ميثاق الامم المتحدة ، وقررت فيه حق الشعوب في اختيار مصيرها. كانت تظاهر الاستعمار في تونس ومراكش ، ثم لا تزال تؤيده في الجزائر الباقية وحدها في المعركة ، وتغض الطرف عما يقع هناك من المجازر والتدمير ، هذا فضلاً عن انها ترد المرة بعد المرة كل طلب لمناقشة قضية الجزائر في هيئة الامم المتحدة . ثم لما تكرمت اخيراً باسعاف هيئة الامم المتحدة على قبول مناقشة القضية في شباط ١٩٥٧ حملت هذه الهيئة على رفض اقتراح الكتلة الاسيوية الافريقية ، وعلى الاكتفاء بقرار يقضي بان تحل هذه القضية مباشرة بين المعتدي المكابر ، وبين المعتدى عليهم ضحايا الاستعمار ، وهو قرار لا يتعدى الرفض .

وكل ذلك يقع ابان ما تثور ثورة الغرب على الاتحاد السوفياتي من جراء انقضاضه على المجر حينما هبت في تشرين الثاني ١٩٥٦ للتحرر ، وهذا يجعلنا نتساءل لماذا يرتفع صوت الغرب عالياً مهدداً مزمجراً انتصاراً للحق في المجر بينما يخفت هذا الصوت حينما تجاوزت فرنسا الحق في الجزائر ؟ »

ألأن الجزائر شرقية يجوز عليها الاستعمار ، والمجر غربية ...؟ ولعل الباندیت نهرو كان يشاركنا في هذا التعجب حينما سئل في كندا اخيراً عن رأيه في قضية المجر فقال : « لماذا تتناسون الجزائر التي تُرتكب فيها فظائع اشد هولاً مما يقع في المجر ؟ »

ثم اذا التفتنا كرة اخرى شطر الشرق العربي ، واستعرضنا العدوان المثلث على مصر فماذا عسانا نذكر ؟

– اننا نذكر تآمر لندن وباريس مع اسرائيل على البلاد العربية وانقضاضها على مصر ، وما رافق ذلك من اعلانات رسمية صدرت عن هاتين العاصمتين تصرح علانية بان القصد من الحرب حماية اسرائيل من الخطر العربي .

حقاً ان هذه المناسبة كانت مناسبة طيبة للتدليل على ان ضمير العالم لا يزال حياً حينما اجمع العالم على استنكار هذا العدوان وراء الرئيس ايزنهاور وتضامناً مع هيئة الامم المتحدة. ولقد شجبت الهيئة المؤامرة ، وامرت بالاجماع تقريباً بوقف القتال وبالجلاء عن الاراضي المصرية . ولكن هذه المناسبة نفسها برهنت لنا ايضاً على استخفاف كل من ايدن ومولية ومن ورائهما بن غوريون بارادة الرئيس الاميركي ، كما دللت على عدم مبالاتهم بهيئة الامم . حتى اذا ارتفع صوت واحد من وراء الستار الحديدي وقال : «ارجعوا ايها المعتدون ، وان لم تفعلوا فان الصواريخ ستجعل الارض تخرج اثقالها وتميد بكم . » حينئذ بهت الذين تآمروا على البلاد العربية ، وانصاعوا الى القوة بعد ان تمردوا على العالم.

على ان مصر وان صمدت حيال العدوان لأن جمال عبدالناصر كان قد احتل بقوته وصلابته قلب كل مصري؛ ولكن صمودها كان أمتن واقوى حينما وجدت بين يديها الاسلحة للدفاع عن كرامتها .

وفي الأمس الأول حينما كان الغرب يضن على العرب في بيع

السلاح، وكانوا يوجسون خيفة من الاعتداء عليهم من قبل اسرائيل لانهم عزل ناداهم مناد من موسكو وقال لهم : « تعالوا اليّ فاني على استعداد لابيعكم الاسلحة باثمان معقولة ، ولاعاونكم على تمويل مشاريعكم العامة ، ولازودكم بافضل الالات ، وذلك بدون قيد ام شرط»

فماذا كان من المنتظر ان يقابلوا هذا العرض بغير القبول والشكر ؟

وفي الأمس، حينما كانت مصر ترزح تحت اثقال المدمرات تنصبّ عليها من الارض والجو والبحر ، وكانت الدول العربية الأخرى تنتظر من القاهرة كلمة للاشتراك في الحرب ضد دول ثلاث ، وهي لا تعلم المصير ، سمعوا صوتاً واحداً من موسكو جعل المعتدين المتآمرين ينكمشون على انفسهم فجأة ، ويجرُون وراءهم الخيبة الى الأبد .

فماذا كان من المعقول بالنسبة للعرب ان يفعلو غير ان يقابلوا هذا الصوت بالامتنان ؟

أكان من الصواب ان يقولوا للذين برزوا علانية لمناصرتهم وانقاذهم «ارجعوا غير مشكورين ذلك لان امهاتنا ولدتنا عبيداً لباريس ولندن، ارقاء لهما ولسائر الغرب. سواء أأحسنوا الينا ام اساءوا ؟ »

هذه حكايتنا مع المعسكرين الغربي والشرقي، ولعلنا نجد ،بعد ذلك ،عذراً عند الذين يشجبون حيادنا ، ويندددون بنا لأنا عدلنا عن المشي وراء الغرب .

على انا لن ننسى ، مع ذلك ، مواقف ايزنهاور هذا الرئيس الجليل الذي لم يبال باصوات اليهود ونفوذهم في الانتخـــابات للرياسة ، والذي لم يحفل بحليفتيه انكلترا وفرنسا ، ولم يأبه لما يصيب الحلف الاطلسي من التضعضع حينما أصغى لصوت ضميره وناصر العرب في محنتهم . واذا لزم العرب الحياد فانهم سيظلون يمدون له ولدولته يد المصافحة ، ويزيدونه شكراً على شكر ما زالت امريكا تناصر الحق وتناضل الباطـل ، ولابدع فان العرب مشهورون بالوفاء . « وهل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ »

● **هل حلول الاستاذ جنبلاط للقضية الفلسطينية معقولة ؟**

● ذهب الاستاذ جنبلاط في قضية فلسطين الى انه « كان من الواجب حل هذه القضية على اساس اتحـاد فدرالي عربي يهودي فلسطيني يفسح المجال لادخال فلسطين ودمجها معنوياً ، ان لم يكن سياسياً ، في مجموعة بلدان الشرق الادنى » .

وهذا الاقتراح الذي يبدو صائباً من حيث النظريات المحضة اعاد الى ذاكرتي حادثة وقعت لي بعد الحرب العالمية الأولى أود ان ارويها قبل الدخول في المناقشة . ذلك اني كنت نشرت وقتئذ في جريدة النهار البيروتية سلسلة مقالات دعوت فيها الى اتحـاد البلاد العربية . وفي يوم من الايام التي تلت صدور هذه المقالات ضرب الهاتف فاذا بي اخاطب رجلًا يكلمني باللغـة الافرنسية ، ويطلب مني تعيين موعد للزيارة . وفي ذلك الموعد المعين دخل عليّ شاب حسن الهندام والقوام يحمل في يده باقة من الازاهير . ولما استقر به المقام قال :

« اقدم لك نفسي انا الدكتور كوفمن من تل ابيب جئت اليك لاوجه اليك الشكر على مقالاتك الممتعة في موضوع الاتحاد العربي ، ولأعرب لك بلسان قومي اننا مغتبطون لهذا البحث ، ونتمنى معك ان يتحقق ، وان يشمل الاتحاد فلسطين ايضاً ، ولأقول لك ايضاً « اننا نحن اليهود مستعدون لمشاركة العرب في السعي لتحقيقه » .

وقد تلقيت كلام زائري ، في اول الامر ، باستغراب وتحفظ مع كثير من السرور : استغربت كثيراً ان يشاركنا اليهود في امنية انما نرجو ان ندرك القوة بها ، وسررت اذ اعتقدت ان مظاهرة يهود العالم لنا في هذه الامنية سوف تكون مساعداً لنا على اخراجها من حيز التمنيات الى حيز الوجود . فرغبت اليه ان يبين لي ما هي مصلحة الصهيونية في الاتحاد العربي . فقال :

« نحن في فلسطين امسينا هدفاً لحملات شديدة يشنها علينا العالم العربي والمسلمون بسبب محاولتنا تحقيق الوطن القومي هناك . ومرد ذلك الى ان فلسطين قطر صغير بحيث ان كل حركة فيه لتأمين هذا الوطن المنشود تبدو كبيرة في نظر العرب والمسلمين. فاذا تم الاتحاد العربي ، وكانت فلسطين جزءاً منه فلن يبقى مجال لأحد من العرب والمسلمين لأن يستكبر قيام الوطن القومي بفلسطين ، وان يخشى العاقبة من وجوده . اضف الى ذلك اننا شعب اقتصادي يهمه اكثر من كل شيء آخر كسب المال . واليهودي لا يستطيع ان يستفيد من اليهودي ، ولاسيما في قطر صغير كفلسطين . امـا اذا تمّ ما تدعو اليه انت من

اتحاد العالم العربي فسيكون المجال رحباً امامنا للاستفادة من هذا الاتساع » .

وهذا كلام يبدو مقبولا لمن يأخذه مأخذ النية الحسنة . واما اذا كان مصدره يهودياً فمن الواجب ان يقلّبه على وجوهه الاربعة قبل ان يستسيغه ويدخله مدخل صدق في فواده . لذلك لم البث ان ادركت ، عند سماع هذا الجواب ، هدف الصهيونيين البعيد الذي كان يرمي الى التمكن اقتصادياً من البلاد العربية المتحدة حتى اذا اصبحوا فيها اسياد المال ، وقيدوها تباعا بسلاسل القروض افسحوا المجال امامهم لقيام دولة اسرائيل ؛ ثم استعانوا بوسائل التمزيق والتفريق لاكتساح الامصار العربية واحدة تلو اخرى . وبرزت امام عيني المأساة التي كانوا يمثلونها وقتئذ بفلسطين ، تلك المأساة التي كان بطلا الرواية فيها المال والحسان .

لقد خطر لي كل ذلك عندما كنت اصغي الى الدكتور كوفمن وهو يحدثني عن مصلحة اليهود في الاتحاد العربي على اساس ان تكون فلسطين جزءاً منه . ومع ذلك فقد شئت ان اجاريه وان اسلك معه مسلك اليهود في قبولهم العاجلة على أمل ان يحلّوا الآجلة حين بروز الفرصة على حسب اغراضهم . فقلت « هذا حسن وهلموا الى مساعدتنا في تحقيق الوحدة العربية » قلت له هذا وانا اضمر في نفسي اننا اذا ادركنا هذه الوحدة ، وادركنا ما فيها من قوة عمدنا ، فيما بعد ، الى تصفية الحساب مع الصهيونية بسهولة اكثر .

قال الدكتور كوفمن : « نحن على استعداد لكل ذلك . انما نود من العرب قبل تأييدنا لهم في قضية الوحدة ان يعترفوا

بوعد بلفور . وبوطن قومي يهودي بفلسطين . »

ولما ادركت من هذا الجواب هدف الصهيونيين في صدد حصولهم على كسب عاجل لقاء حصولنا فيما بعد على مساعدة لا نعرف مداها ولا نتأكد من نجاحها ادركت الحيلة ، واعلنت له بأن هذا الطلب امر مستحيل ، وان العرب لا يرضون بأي اعتراف لليهود بفلسطين ، وانهم يعتمدون على انفسهم في تحقيق امانيهم العادلة .

وهذا الحوار الذي جرى بيني وبين الدكتور كوفمن يدل على ان الاقتراح الذي ادلى به الاستاذ جنبلاط في صدد حل قضية فلسطين على اساس « اتحاد فدرالي عربي يهودي » انما هو مطلب من مطالب الصهيونيين مذ كانوا في عهد السعي لتحقيق الوطن القومي اليهودي بفلسطين ، وهم الآن ، وبعد ان تجاوزوا ذلك المسعى ، واقاموا لهم دولة لا تزال تتلمس الصلح مع جيرانها العرب كيما تستقر اولاً ، وكيما تخف من بعد لتأمين برامجها الجهنمية ، اصبحوا اشد حرصاً على هذا الحل . وهم يؤملون به ان يكون لهم عوناً على غمر الاسواق العربية بالسلع اليهودية ، ومتسعاً لحياكة المؤامرات بين الدول العربية وتمزيق اتحادها ، وتقييدها تباعاً بالقروض حتى اذا سنحت الفرصة تبتلعها واحدة بعد واحدة على مرأى ومسمع من كل منها جميعاً .

واما جواب الاستاذ جنبلاط الذي اشرنا اليه وهو « المحبة تجلب المحبة والعدالة تجلب العدالة » فهو وان كان صحيحاً من حيث الوجهة الاخلاقيه الا انه لا يتفق مع السياسة ، ولا سيما حيال شعب كاسرائيل لا يتقيد بالمبادىء ، ولا يردعه شيء عن المضي في سبيل ادراك اهدافه الأشعبية .

الفصل الرابع

التاريخ يتكلم في «من هم أحق بفلسطين ؟»

«تتمة النقاش مع الاستاذ كمال جنبلاط»

العروبة واليهودية في الشام

صرح الاستاذ جنبلاط في الجواب على سؤال وجه اليه في مؤتمر مفاهيم الحرية ، وذلك اثناء مناقشة محاضرته ، بما يلي :

« لا يمكن اعتماد حلول تقضي بطرد ابناء فلسطين اليهود منها لان اي حل على اساس القومية لا بد ان يتجاهل حق الجميع في مصيرهم . فالقومية تقول بحقي وحدي متجاهلة حق سواي . »

وهو تصريح فيه اعتراف جلي لليهود بحقهم في فلسطين ، وفيه دعوة ضمنية الى مساومتهم على حل القضية على اساس هذا الحق ، دون اي اعتبار آخر .

ونحن لا ندري اذا كان الاستاذ جنبلاط يمنح اليهود هذا الحق استناداً الى اغتصابهم بالقوة البلاد المقدسة بمظاهرة الغرب ، ام انه يتلمس لهم هذا الحق في التاريخ القديم .

فان كان الأول فانا نستسمحه منه اذا طرحنا عليه هذا السؤال :

« اذا اتيح لاحد ان يتجاوز عليك ويحتل قسماً من قصرك في المختارة . فهل تستكين امام الأمر الواقع، وترى من الانصاف والعدالة اللجوء الى المساومة معه من اجل ايجاد حل على اساس بقائه في دارك يشاطرك ملكك ، مع العلم انه لن يرضيه شيء الا احتلال القصر جميعه في اية فرصة تسنح . أم انك تثور على هذا الغاصب وتستجمع كل قواك لطرده، خاسئاً حسيراً، من قصرك استرداداً لكرامتك ؟ »

وان كان الثاني ، أي ان الاستاذ جنبلاط يعترف بحق اليهود بفلسطين استناداً الى التاريخ القديم ، فيكون لزاماً علينا ان نستشهد هذا التاريخ امامه للتدليل على ان العرب هم احق بهذه البلاد من اليهود لانهم سبقوهم اليها ، ثم كان لهم في جميع بلاد الشام وما يليها ملوك ودول قبل ان يهب بهم الاسلام لاكتساح العالم .

وهذه ناحية مهمة قلما يعرفها خريجو المدارس الاجنبية . ذلك لان العهد القديم ، الذي وضعه اليهود على اساس انهم شعب الله المختار ، صوّر تاريخ اليهودية على شكل يوهم القارىء بأنه هو تاريخ العالم كله . وقد اعترف بعض اصحاب الكتب السماوية اعترافاً كاملًا بالعهد القديم ، رغم ما فيه من شوائب لا تشرف اسرائيل، ولا تنزه انبياءهم ؛ بينما تحفّظ بعضهم إذ أنكروا ان تكون التوراة ، التي يصدقون بها ، هي ما بين ايدي اليهود من اساطير . ومع ذلك فان الجميع من اصحاب الكتب السماوية لم

يتخلصوا من نفوذ اليهود في الناحية التاريخية؛ بل آمنوا بانبيائهم، ونظروا الى التاريخ القديم من نوافذهم، فرددوا انباءهم.

وكان من عواقب ذلك ان اليهود، وان شُردوا وضربت عليهم الذلة والمسكنة منذ آلاف السنين، فقد استطاعوا ان يحتفظوا بسيطرتهم حتى الآن على الذين لا يزالون يقدسون كتب العهد القديم، ويعنون بدراستها في مدارسهم ومعاهدهم.

وعلى هذا الاساس فان الأميركيين اشتدت عنايتهم بكتب العهد القديم منذ خفوا للاهتمام بشؤون الشرق، ومذ اقبلوا على دراسة تاريخه وشعوبه واقطاره؛ وما ان عنوا بالاستشراق حتى جعلت جامعاتهم تاريخ العبرانيين ولغتهم في طليعة ما تهتم به من الاستشراق.

وانتشرت الارساليات الدينية الاجنبية في الشرق، وهي تحمل معها هذه الرسالة، فبلبلت، فيما بلبلت، افكار الناشئة، واضعفت فيها روح المناعة تجاه خطر الصهيونية الذي يداهم البلاد. وقد كتبت احدى الصحف البيروتية كلمة، في الآونة الأخيرة، تحت عنوان «هل هي مدارس عبرانية؟» يطيب لنا ان ننقلها حرفياً في معرض هذا البحث. قالت الجريدة:

«بين الكتب التي تدرسها مدارس الارساليات الاجنبية كراس بالفرنسية اسمه «الحليقة». وهو يحل محل التاريخ المعروف بالتاريخ المقدس، يبدأ بحياة ابراهيم، وينتهي بحياة موسى، بعد ان يعدد حياة داود وسليمان وناحوم ويوشافاط ويسّا ويعقوب وغيرهم.

«وللمبالغة في افهام التلميذ متطلبات المعرفة تُركز له في هذا

الكراس صفحة يملؤها بالاجوبة على الاسئلة . وادخلت المدارس هذا النوع من الكراريس مادة في صلب الامتحانات .الموسمية بحيث ان التلميذ، او التلميذة ، لا يمكنهما التقدم في صفوفهما ان لم يحرزا نقاطاً معينة من علم هذا الكراس ومضمونه . فهل علمت وزارة التربية بأمر هذا الكراس ؟ وهل اتصل بها الغرض منه ؟ .. »

لذلك كان لزاماً علينا اثناء الحرب التي لا تزال قائمة بيننا وبين الصهيونية ، ان نختتم النقاش مع الاستاذ جنبلاط بايراد نبذة تاريخية تدلل على ان البلد المقدس ، الذي كان مهداً للمسيح والمسيحيين ، وقبلة اولى لمحمد ، وللمسلمين ، ما كان يهودياً ، كما صوره اليهود في العهد القديم ، وكما لا يزال يصوره الذي يرشفون المعرفة من ينابيعهم . وانما كان موطناً للعرب قبل العبرانيين ، كما كان موطناً لهم خلال وجود اليهود في فلسطين ، وظل كذلك حتى غمرته العروبة في العهد الاسلامي .

اليهود بفلسطين والشام

١ ـ دور الضيافة الموقتة .

تنص التوراة على ان ابراهيم الخليل نزح من بلاد الكلدانيين الى فلسطين ، وطن الكنعانيين ، في الألف الثانية قبل الميلاد . ثم وقعت بفلسطين مجاعة حملت العبرانيين جماعة ابراهيم على الهجرة منها الى وادي النيل فنزلوا مصر ، وقطعوا كل صلة لهم ببلاد الكنعانيين .

وكان العبرانيون ابّان وجودهم بفلسطين يعتبرون غرباء

لاجئين ، واذا منّ عليهم اهلها بقطعة ارض لدفن موتاهم اعتبروها منحة . وهذا ما حدث فعلاً حينما سمح لهم شيخ البلدة بدفن ابراهيم الخليل في مغارة الكفيلة .

غير ان اليهود ، رغم كل ذلك ، حاولوا ان يوهموا العالم بأن علاقاتهم بفلسطين تعود الى ذلك الوقت . اي الى الألف الثانية قبل الميلاد ، وحجتهم في ذلك ان التوراة في سفر التكوين جعلت فلسطين مقدسة بسبب نزول ابراهيم الخليل فيها . وقد جاراهم العالم في هذا الاعتقاد استناداً الى الكتاب المقدس على حين ان العبرانيين لم يكونوا، في ذلك الحين، الا غرباء في ارض الكنعانيين.

٢ ـ العودة من مصر الى فلسطين .

كان العبرانيون ، حينما هبطوا مصر ، اهل بادية فنعموا بخيرات فيها لم يألفوها من قبل ، ولكنهم ما ان شبعوا وارتووا حتى طغوا وتمردوا فاستثقل المصريون ظلهم ، وانكروا عليهم انانيتهم وقسوتهم ، وطاردوهم في حوالي سنة ١٢١٥ ق م .

ولما خرج العبرانيون من مصر مطرودين ولوا وجوههم شطر بلاد الكنعانيين، حيث كانوا من قبل، ولكنهم لم يستطيعوا ادراك فلسطين لان الموابيين والمديانيين صدوهم عنها، واضطروهم لأن يبقوا اربعين سنة في تيههم يعانون شظف العيش والحرمان ، حتى اذا برزت الفرصة انقضوا على الكنعانيين ، الذين اضافوهم من قبل واحسنوا اليهم ، واقتطعوا جزءا من فلسطين .

وكان العبرانيون وقتئذ اسباطاً يرأسهم شيوخ يسمونهم القضاة.

فقضوا حقبة من الزمن على خصام متواصل فيما بينهم لا يعنون باقتباس تمدن الكنعانيين جيرانهم . واذا ما اتحدوا فانما يتحدون لحرق المدن العامرة ، وتقتيل الناس رجالا ونساء واولاداً باسم يهوه رب اليهود، ثم لا يوفرون البهائم. كل ذلك عملًا بوحيهم المقدس الذي اختلقوه على لسان موسى اذ يقول: «ابد سكان الارض لا تعف عنهم ، لا تقطع معهم عهداً . اقتل رجلًا وامرأة طفلًا ورضيعاً ، بقراً وغنما ،جملًا وحماراً » (سفر الخروج ١٣٤ هم ١٥) . فضاق اهل فلسطين ذرعاً بهم ، وتضافروا على اضطادهم ، اسوة بما فعل المصريون من قبل ، وذلك بعد ان كانوا طوال تلك الحقبة العوبة بيد العبرانيين يثيرون الخلافات بينهم ، ويضربون بعضهم بالبعض الآخر .

٣ - عصر العبرانيين الذهبي .

شاء الكنعانيون بفلسطين أن يتخلصوا من جور جيرانهم العبرانيين وقسوتهم فأجمعوا أمرهم على اخراجهم . ولكن الظروف جاءت على غير ما يريدون ، لان الضغط حمل العبرانيين على تناسي اسباطهم خلافاتهم وعلى الاتحاد ضد اعدائهم تحت لواء الملك داود سبط يهوذا . وذلك في حوالي سنين ١٠١٠ - ٩٣٠ ق م . ثم اجتمعوا تحت راية سليمان بن داود (٩٧٠ - ٩٣٠ ق.م) ،واستولوا على قسم آخر من فلسطين .

وفي تلك الاثناء شيد سليمان الهيكل (هارمقدش) بالقدس، وبرز عصرهم الذهبي الذي يتغنى به اليهود حتى الآن موهمين العالم

بأنه كان بمثابة الذروة في تاريخ الانسانية . والواقع ان العبرانيين كانوا ، حتى في عصرهم الذهبي ، لا يزالون يُعتـــبرون في نظر جيرانهم الكنعانيين دخلاء. وعلى رواية بلوك «فان اليهود ما كانوا وقتئذ يسيطرون بفلسطين الا على مساحة لايزيد طولها على ١٢٠ ميلًا فقط.» واما لقب ملك الذي اطلقوه على سليمان فانما هو لقب كان يطلق على كل من تزعم قبيلة . ولذا فان العهد القديم يذكر خمسين ملكاً بفلسطين كان كل منهم على رأس شرزمة من الناس.

هذا فضلًا عن ان عصرهم الذهبي كان قصير الأمد ، ولم يدم الا مدة حكم سليمان بن داود . وليس يعود ذلـــك الى مركز فلسطين الاستراتيجي من الدول المجاورة فحسب ، بل الى تنافر اسباطهم وخصوماتهم المستمرة ، فضلًا عن انانيتهم وقسوتهم حتى كرههم مواطنوهم ، وغير مواطنيهم .

اجل فما ان مـــات سليمان بن داود حتى انقسمت مملكته الى دولتين: دولة يهوذا بالقدس، ودولة اسرائيل في السامرة؛ واشتبك الدولتان في قتـال دائم سهل الاسباب لسكان الساحل لاسترداد استقلالهم؛ كما اطمع بهم الدول في العراق .. وكان من عواقب ذلك ان استولت اشور على مملكة اسرائيـل فيما بين سنين ٧٢١ و ٧١٥ ق . م، ثم دخلت مملكة يهوذا في حوزة نبوخذ نصر ملك بابل سنة ٥٨٥ ق . م. وهكذا فلم يبق لعصر العبرانيين الذهبي من اثر الا الذكريات . ذلك لأن بابل التي كانت تراقب مظالمهم ومفاسدهم حاولت استئصالهم، فلم تكتف بتدمير اورشليم وتهديم هيكل سليمان فيها ، ونقل كنوزه المقدسة الى بابل وتحفه ، بـل

عمدت الى نقل عدد كبير منهم الى عاصمتها . وبذلك وقع القضاء المبرم على العبرانيين جزاء فسادهم في الأرض وكراهيتهم لاهلها ، حسبما نوهت بذلك توراتهم في أرميا وحزقيال .

٤ – يهود فلسطين في ظلال الفاتحين .

لما احتل البابليون فلسطين وقضوا فيها على كل استقلال لليهود ألحقوها بمملكتهم ، وظلت كذلك الى ان دخلت بابل في حوزة كورش ملك فارس فدخلت فلسطين معها في عداد ولاياته .

غير ان كورش بن استير اليهودية لم يعاصر مظالم العبرانيين بفلسطين مثلما اتيح لملوك بابل ، فعطف عليهم وسمح للذين كانوا يقيمون اقامة جبرية في بابل بان يعودوا لفلسطين ؛ كما رخص للعائدين منهم بان يقيموا فيها حكومة تتمتع بشيء من الحكم الذاتي تابعة للمقاطعة الخامسة من اعمال فارس . وهو الى ذلك اطلق لهم حرية ممارسة دينهم ، فاعادوا هيكل سليمان في أورشليم ، واسترجعوا ، بقوة فارس ، بعض ما كان لهذه المدينة من المكانة الروحية عند اسلافهم ؛ وذلك رغم كل مقاومة قام بها اهل البلاد ، وعلى رأسهم العمونيون .

ومن الجدير بالذكر هنا ان كورش وان حررهم من البابليين الا ان الطبقة العليا منهم واكثر الطبقة الوسطى آثروا البقاء في بابل . وذلك لما صار لهم هناك من العلاقات الاقتصادية والمالية . واما الذين اختاروا العودة فكان جلهم من الفقراء ، ولا يتجاوز عددهم اربعين الفاً .

ومع ذلك فان هذا العدد القليل الذي عاد من الاسر والتشريد الى فلسطين ما ان اخذ يتمتع بالحكم الذاتي وبالحرية حتى صار مصدر ازعاج لمجاوريه . وكان حاله ، في ذلك الوقت الغابر ، مثل حالهم في الوقت الحاضر ، كعصفور انطلق من القفص فلم يضع حداً لحرياته ، فاعاد ذلك الى ذاكرة جيرانهم مظالم العبرانيين الأولى .

والى هذا فانهم لم يحفظوا للفرس جميلهم ، بل ما ان تقدم الاسكندر الكبير سنة ٣٣٣ ق م الى فلسطين حتى استقبلوه استقبال المنقذ ، وفتحوا له ابواب اورشليم . وهكذا كان شأنهم ، من بعد ، مع كل فاتح جديد . وهكذا سوف يكون موقفهم في المستقبل القريب من انكلترا واميركا الدولتين اللتين رعتاهما في العصر الحاضر ، واقامتا لهما وطنهم الجديد على رفات شهداء العرب . وهكذا سيكون حالهم تجاه فرنسا التي اخذت ترعاهم في الوقت الاخير نكاية بالعرب جزاء مظاهرتهم للجزائر .

هذا وكان مصير فلسطين بعد موت الاسكندر كمصير سائر بلاد الشام من حيث دخولها في حوزة السلوقيين . وقد اتيح لليهود في هذا العهد ان يستردوا بالقسر شيئاً من استقلالهم بزعامة الأسرة الحسمونية ، ولكن هذا الاستقلال لم يدم الا مدة قصيرة ، إذ ان القائد بمبي لم يلبث ان هاجم فلسطين سنة ٦٣ ق.م ، وحوّلها الى ولاية رومانية .

وفي هذا العهد ظهر السيد المسيح ، مخاطباً قومه : « انا المسيح المنتظر ملك اسرائيل » وكانت رسالته ضرورة ماسة انبثقت عن حاجة العصر اليها . ذلك لان بني اسرائيل كانوا قد ملئوا فلسطين

فساداً الى حد انهم جعلوا هيكل سليمان ، فضلاً عن غيره ، سوقا لتعاطي الربا ، وغير الربا ...

وكان من الطبيعي ان يقفوا موقف الخصومة والمعارضة لمن يدعو الى مكارم الاخلاق ويحضّ على الزهد في الدنيـا الفانية ، فاتهموا السيد المسيح عند الحاكم هيرودوس بانه يدعو في رسالته الى العصيان على روما والثورة عليهـا ، وكان ما كان من القاء القبض عليه والأمر بصلبه .

والواقع ان عيسى بن مريم انما كان صـاحب رسالة تدعو الى المحبة والخير. اما المؤامرة على الحكام فهي كانت غريزة في طبائع اليهود . فهم هم الذين اثاروا نيران الثورة على الرومان بعد قليل من وفاة المسيح ، واضرموا الفتن على التوالي منذ سنة ٦٤ م الى سنة ٧٠م ، فجنوا على انفسهم بانقضاض القائد الروماني تيطس عليهم ، واقتصاصه منهم . وقد امر بتدمير اورشليم وباشعال النار في هيكل سليمان ، فأصبح هباء منثوراً حتى لم يبق منه حجر على حجر ، اسوة بما فعلت بابل من قبل.

على ان بقاء نفر قليل منهم في فلسطين ظل مع ذلك مصـدر قلق للامبراطورية الرومانية ومبعث فتن متوالية. ولما ثاروا مرة اخرى ، في سنة ١١٥ م ، كرّ عليهم الامـبراطور ادريانوس ، وحوّل هيكلهم الجديد الى معهد لجوبيتر والزهرة ، واسمـى اورشليم بـ « اليا كابيتولينا » . ومع ذلك فان اليهود لم يعتبروا بما احاق بهم ، ولم يقدروا مبلغهم من الضعف ، بل تهوروا ، مرة اخرى ، وقاموا بثورة جامحة ضد روما بقيادة الباكوخابا سنة

١٣٢ م. فاذا بالروم ينصبّون عليهم بقوة، ويدمرون اورشليم ثانية ويحرقون معالمها ، ويهدمون هيكلهم فيها . هذا فضلا عن سوقهم كثيرين منهم الى المنافي سوق النعاج ، وصدور مرسوم من الامبراطور ادريانوس يحظر فيه على اليهود ، تحت طائلة الموت ، دخول فلسطين .

٥ ــ اليهود في سوريا ومؤامراتهم على النصرانية .

لجأ اليهود الى سوريا عقب اجلاء الرومان لهم عن فلسطين، ثم هاجر فريق منهم الى جزيرة العرب . فنقلوا اليها انواع الفوضى والمفاسد . فاذا بالبيزنطيين ، الذين خلفوا الرومان على سوريا ، يرثون من هؤلاء رغبة الانتقام من اليهود من جراء تصرفاتهم ومؤامراتهم . بل ان البيزنطيين أصبحوا اشد عداوة لليهود من اسلافهم، لأنهم اقاموا انفسهم حماة للمسيحية التي كان اليهود يتربصون بها الدوائر ، ويعملون بضراوة لتهديمها .

وقد ثار اليهود بانطاكية في عهد الامبراطور هرقل ، ومثلوا بالبطريرك واتباعه شرّ تمثيل ، ثم بيّتوا اهل صور النصارى وقتلوهم شرّ قتلة ، وهدموا كنائسهم . وفعلوا مثل ذلك في قيسارية وغيرها . وبلغ من حقدهم على النصارى انه لما زحف الفرس على البيزنطيين لم يكتفوا بالتطوع في جيشهم لتخليص القدس؛ بل ما ان انتصر الفرس على البيزنطيين سنة ٦١١ م في درعا وبصرى من اعمال الشام حتى هلل اليهود وكبروا فرحا ، وابتاعوا، على رواية جرجي زيدان ، من الفرس ثمانين الفا من

اسرى النصارى ، واعدموهم على بكرة ابيهم !

ولكن بغيهم هذا كان وبالاً عليهم لأن الروم لم يلبثوا الا بضع سنين ونيف حتى كروا على الفرس وانتصروا عليهم ، واجلوهم عن بلاد الشام ، وذلك حسبما كان القرآن الكريم قد بشر المسلمين به حينما مسهم الغم الكثير بسبب انكسار اخوانهم الروم اهل الكتاب. ولما انتصر الروم انتقموا من اليهود اشد انتقام ، واجلوهم عن سوريا كافة ، بعد ان كانوا طردوهم من فلسطين. وقد لحق اكثرهم بالمهاجرين الأولين الذين نزلوا في جزيرة العرب ، كما انتشر غيرهم في اقطار أخرى من العالم. وهكذا فان اليهود الذين كانوا قد سلخوا اربعين سنة في التيه قبل ان يتاح لهم دخول فلسطين ، ما ان فتحوا قسماً منها وافسدوا فيه حتى أعدوا فلسطين لقمة سائغة للفاتحين. وكان مصيرهم الطرد منها ومن سائر بلاد الشام والتشتيت. اما العرب الذين كانوا في تلك البلاد ، منذ آلاف السنين ، فقد استطاعوا ان يعايشوا سائر الفاتحين ، الا اليهود ، وتعاونوا معهم الى ان استقلوا فيها دون سواهم ، واصبحت دمشق قاعدة لاحدى دولهم الكبرى.

العروبة في بلاد الشام قبل الاسلام

كتب اليهود اسفارهم وزبورهم وتلمودهم باقلام احبارهم ، ودونوا تاريخهم بمداد روحهم المشبعة بالانانية والكبرياء ، فجاءت هذه الاسفار ، المليئة بانباء رسلهم واسباطهم وملوكهم ، توهم الناس ، ولا سيما المؤمنين بتوراتهم ، بانهم شعب الله المختار ، وان تاريخ العالم

القديم لا يتعدى تاريخهم ، كما تصور لهم فلسطين كجزء لا يتجزأ من تاريخهم ، وادخلوا في اعتقادهم ان فلسطين ، التي كانت لهم دون سواهم قبل الفي سنة ، يجب بالتالي ان تبقى لهم الى الأبد . هذا بالاضافة الى ان اليهود استطاعوا ان يخلقوا من العدم في مخيلة الناس بالاستناد الى التوراة ، صورة لعصرهم الذهبي بفلسطين تبرز على شكل من الاساطير ليس كمثله شيء في التاريخ : عصر سخر الله لعاهله الأنس والجن والحيوان ، واضفى على العالم الحكمة والنور لا عهد للتاريخ بنظيره . فاذا ببعض المؤمنين باسفارهم من اهل العصر الحديث ، الذين وقعوا تحت نفوذهم الروحي ، يشاطرونهم شعورهم واعتقادهم ، ويظاهرونهم في مطاليبهم .

والواقع ان حجة اليهود في صدد حقهم بفلسطين ، التي تقوم على اساس نزولهم فيها قبل الفي سنة ، هي «حجة لا يصح الاكتراث بها والاهتمام » حسبما جاء حرفياً في مذكرة لجنة كينج – كرين التي عرجت على فلسطين سنة ١٩١٩ حينما جاءت للاستفتاء في سوريا ولبنان ؛ كما ان هذه الحجة ، على فرض انها صحيحة ، هي حجة أولى بها ان تكون للعرب دون اسرائيل : لانهم كانوا اسبق الى فلسطين من اليهود . فقد قال روبنسن في كتابه « تاريخ اسرائيل » عن عرب فلسطين : « لقد نزحوا اليها قبل ثلاثة الاف سنة من ولادة المسيح من جزيرة العرب ، ومع ذلك فان ملامحهم واشكالهم لا تزال بادية على وجوه احفادهم . » هذا فضلاً عن ان العنصر العربي بفلسطين استطاع الحفاظ على استقلاله في بعض اجزائها كل الاوقات ، بما في ذلك عصر اليهود الذهبي ؛ ثم لما اجلى الفاتحون اليهود تباعاً

عن فلسطين دخلت هذه ضمن منطقة نفوذ الدول العربية الى ان اصبحت عربية صرفة بعد وثبة العرب الكبرى بالاسلام .

هذا الى ان عصر اليهود الذهبي بفلسطين الذي صوروه في مخيلة العالم محفوفاً بالعظمة والجلال انما كان عهداً هزيلًا . ولو ان الناس تحرروا من نفوذ تلك الصورة ، التي احاطها اليهود بأطـــار من الدين ، لأيقنوا ان عصر اليهود الذهبي ؛ الذي لم يزد على اربعـين سنة ، اي مدة حكم سليمان بن داود ، لم يكن شيئـاً مذكوراً بالنسبة لعهود الفاتحـــين الآخرين ، سواء أكان ذلك في العصور الغابرة؛ ام في التمدن الحديث . ثم لو رجعوا الى التاريخ لوجدوا ايضاً ان هذا العصر الذهبي كان مديناً للعرب الكنعانيـــين في حضارته ، كما كان مديناً لهم ايضاً في دينه .

قال فيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب» ما خلاصته « وفي مديان بجوار سيناء تزوج موسى من امرأة عربية كانت ابنة كاهن مدياني . وقد كان هذا الزواج من اهم حوادث التاريخ ، اذ كانت تعبد إلها يدعى ياهُوَ فلقنت زوجها هـذا الطقس الديني . هذا بالاضافة الى ن ايوب الذي ابتدع ارقى شعر في العالم السامي القديم لم يكن عبرانياً ، بل كان عربياً ؛ كما ان شوليت ، التي خلدت بجمالها نشيد الاناشيد المنسوب لسليمان ، كانت ، على الارجح ، عربية من قبيلة قيدار » . وهـذا دليل على وجود الشعب العربي في سوريا منذ عودة اليهود اليها ، وعلى تمتعه بنصيب من الحضارة .

على ان التنقيبات الاثرية التي اجريت بفلسطين اكدت صحة ما قرره روبنسن بان هذا الجزء السوري كان كباقي بلاد الشام

آهلًا قبل الوف السنين من مولد السيد المسيح بسكانٍ جاؤا موجات متتابعة من جزيرة العرب . وكانوا في سوريا الداخلية يعرفون بالعموريين، وفي الساحلية بالكنعانيين . ومنهم الفينيقيون الذين ظلوا يحتفظون باسم الكنعانيين حتى ايام المسيح . يدل على ذلك ما ورد في الانجيل الشريف عن ابراء السيد المسيح امرأة كنعانية في تخوم صور وصيدا من مرضها .

أجل فلما جاء ابراهيم الخليل الى فلسطين ، وهو جدٌ للعرب كما هو جد العبرانيين ، كان هذا الجزء السوري قسما من بلاد الكنعانيين ، كما انه لما غادر موسى مصر عائدا الى فلسطين اعترضه الأدوميون وهم ايضا من جزيرة العرب ، وكانوا يحكمون الجانب الجنوبي الشرقي من فلسطين ، واضطروه لان يتحول عنهم الى طريق آخر . وظلوا يناصبون اليهود العداء ويكافحونهم في ايام داود وسليمان ، ثم في عهد يهوشافاط وأشعيا . ثم لما نكب بختنصر ملك بابل اليهود فان الادوميين لم يجتزؤا قسماً آخر من فلسطين فحسب ، بل توسعوا جنوباً حتى ادركوا تخوم مصر .

وفي تلك الحقبة ورد ذكر العرب باسمهم الصريح ، وذلك في رقيم اصدره شلمناصر الاشوري بمناسبة حملته على دمشق سنة ٨٥٤ ق م. إذ ورد في هذا الرقيم بين اسماء حلفائه اسم جُندب ، وهو امير من امراء العرب ؛ كما ان التوراة اتت كثيراً على ذكر العرب .

ولعل دين ستانلي كان يشير الى هؤلاء الأدوميين حينما قال في

كتابه « سينا وفلسطين » ما يلي : « لقد جاءت العادة معكوسة بفلسطين . ذلك لأن العادة تقضي بان يطرد الفاتحون اهل البلاد المحتلة الى الجبال، بينما ان الفلسطينيين استطاعوا الاحتفاظ بالبسائط حينما غزاهم اليهود ، ودفعوهم الى المناطق الجبلية . »

وكان الادوميون قد اتخذوا ، في العصر الروماني ، بطرا عاصمة لدولتهم . ولما دالت دولتهم ، قبيل القرن الرابع الميلاد ، خلفهم عليها الانباط ، وكانوا يتكلمون اللغة العربية ، ويكتبون بالارامية التي كانت ، في ذلك الوقت ، لغة السياسة والحضارة .

وعاصر الانباط دولة اخرى عربية في تدمر ، كان على رأسها آل السميذع . ولما دخلت بطرا في حوزة السلوقيين خلفاء الرومان بسورية سنة ١٠٦ م ، شرعت دولة تدمر تقوم مقام الانباط في نقل التجارة ما بين الشرقين الأدنى والاوسط ، وادركت ما ادركته تلك من الازدهار والشهرة ، ولا يزال التاريخ يردد اسم « زينوبيا » ملكة تدمر ، وهي وزوجها ، الذي قهر سابور ملك فارس ، من العرب .

والى جانب دولة الانباط كانت تقوم دولة اخرى عربية ، هي دولة الاباجرة في الرها . والاباجرة جمع أبجر أي عظيم البطن في اللغة . فنشأت هذه الدولة في سنة ١٣٢ ق.م ، وظلت قائمة مدة اربعة قرون لعبت خلالها كتدمر دوراً كبيراً بين الروم وفارس. وقد عاصر اشهر ملوكها ابجر الخامس السيد المسيح . وجاء في التقليد ان الابجر المشار اليه شكا من عاهة آلمت بجسمه عجز عنها الاطباء فبعث الى السيد المسيح يسأله القدوم الى الرها ليشفيه ، ويسكن في

مدينته ، فاجابه المسيح برسالة باركه فيها ، وبارك مدينتـه ، ووعده بايفاد احد تلاميذه ليشفيه . وان توما الرسول انجز هذا الوعد فارسل اخاه ادّى الى الرهاء ، وشفا ملكها وعلّمه طريق الخلاص . وقد روى الاستاذ اسد رستم في مقال نشرته له مجلة صوت المرأة سنة ١٩٥٦ ، ان الاباجرة كانوا عرباً ؛ بيد ان المطران سويريوس يعقوب توما اورد في تاريخه « الكنيسة السريانية الانطاكية » ما يفيد انهم كانوا من السريان . وحباً بالتحقيق راجعت سيادة المطران وسألته اذا كانت اسمـــاء اولئك الملوك العربية كعبد بن قزعور ، ووائل ، وبكرو ، لا تكفي للدلالة على انهم عرب ، فضلاً عن لقبهم « الابجر » فنفى ذلك وأصر على انهم سريان ، وقال ان كلمة الابجر بالسريانية معناها الأعرج .

والى ذلك فقد كان للعرب دول أخرى في بـلاد الشام يرجع عهدها الى قبل الميلاد ؛ ومن اشهرها دولة الايطوريين ، وكانت عاصمتها عنجر في البقاع . وقـــد ورد ذكرهم في سفر التكوين (٢٥ : ١٥) على انهم من ابنـــاء اسماعيل بن ابراهيم الخليل . ووافق وصولهم الى الشام زمن قيام اليهود على الفينيقيين لاجلائهم عن الجانب الشمالي من فلسطين ؛ فانتصر الايطوريون للفينيقيين ، والتحموا مع اليهود في تلك الحروب . ولعل المؤرخ الافرنسي دوسو كان يشير اليهم في كتابه « تاريخ العرب » حيث قال : « ان عهد العرب في بلاد الشام يرجع الى ابعد من حكم اليونان فيها » مستدلاً على ذلك بانه لما هبط الاسكندر الكبير سوريا كان العرب يحتلون لبنان .

ويبدو ان العرب لم يقتصروا، في ذلك الحين، على احتلال اكثر فلسطين ولبنان ، بل ساعدتهم الظروف ، في فترات من الزمن ، للسيطرة على سائر بلاد الشام . وقد اشار الى ذلك جرجي زيدان في كتابه « العرب قبل الاسلام » حيث قال : « ويؤخذ من الامعان في تاريخ المملكة الرومانية الشرقية ان مدن سورية كثيراً ما دخلت في سلطة العرب ، ولا سيما المدن القريبة من البادية مثل حمص وحماه والشام والرها ، فضلاً عن مدن حوران والبلقاء وغيرها . ولما قدم بومبيوس على مصر ، في القرن الأول ق . م كانت حمص في حوزة دولة عربية . »

على ان السلوقيين والبيزنطيين وان استطاعوا ان يقضوا على دولة الانباط وتدمر والاباجرة وغيرها من الدول العربية الا انهم افسحوا المجال من جهة ثانية الى هجرة عربية جديدة غمرت سوريا حتى جعلتها في العهد البيزنطي ذا وجه عربي. ذلك ان قيام الدول العربية المذكورة كان يقف حاجزاً في وجه قبائل كثيرة عربية دون التقدم الى بلاد الشام ، فلما زالت دولتا الانباط وتدمر اخذت هذه القبائل تتقدم شطر سوريا على أمل أن تجد في بلاد الحضارة ما وجده السلف من العز والرخاء .

وصادف في ذلك الحين وقوع حادثتين في جزيرة العرب كان لكل منهما اثر كبير في هجرة قبائلها الى جهة الشمال : ففي اليمن السعيدة تهدمت سدود الري ، واشهرها سدّ مأرب ، وذلك حوالي تاريخ الميلاد ، فضاقت بسبب ذلك اسباب الحياة فيها مما شجع بعض اليمنيين على مغادرة البلاد . فنزلت خزاعة في مكة ،

والاوس والخزرج في يثرب ، ولخم وغسان في الشام . وذهب فريق من لخم الى العراق ؛ وتقــدم بنو عاملة ، على رواية ابي الفداء ، الى ساحل الشام ، واحتـلوا الجبل المعروف باسمهم في جنوبي لبنان .

وفي الحجاز وما يليه تـكاثر عدد العدنانيين وغيرهم فتدافعوا افواجاً افواجـــاً الى الشمال . فنزلت سليح وريّان وضجعم وتنوخ والصفا وكلب وجرم والعلاف وغيرها في مشارف الشام.

واقام التنوخيون امارة عربية على انقـــاض دولة الانباط خلفهم عليها زملاؤهم بنو سليح من قضاعة ، وملكوا مشارف الشام باسم الضجاعمة بينما ملك عرب الصفـا حوران . وتقدمت قبائل اخرى الى ديار بكر وديار ربيعة . وكانت هـــذه الديار تحمل اسماء اعجمية ، فتغلبت عليهـا ، من بعد ، اسماء هـــذه القبائل العربية .

وفي اواخر القرن الثاني للميلاد تغلب آل غسان اليمنيين على امارة الضجاعمة العدنانيين ، ثم اتخذوا مدينة بصرى بسوريا عاصمة لهم ؛ بينما كان قد تسنى للخم ، وهم من التنوخيين الذين قصدوا الى العراق ، ان يبسطوا حكمهم على ناحية النجف ، وان يتخـــذوا الحيرة عاصمة لهم. وبذلك انتشرت اللغة العربية في انحـاء الهلال الخصيب على شكل اوسع مما قبل .

وقد ارجع رينان انتشار اللغة العربية في سورية الى هذا العهد ، وذلك بمقال نشره سنة ١٨٨٢ في الجزء ١٩ من الجريدة الاسيوية قال فيه : « يرجع اكتساح اللغة العربيـــة لسورية الى حدث

تاريخي عظيم، واعني به نزول عدد كبير من امراء العرب في مدن سورية خلال زمن واحد عندما كانت السلطة الرومانية تعمل على توطيد اركانها . »

على ان اللغة العربية كانت في عهد السيد المسيح في عداد اللغات المتداولة بالقدس، كما يستفاد ذلك من اعمال الرسل (الفصل ٢ : ٩) . ثم اكتسحت غير سوريا ، فانتشرت في بعض انحاء العراق وديار بكر والرها ، فضلاً عن بلاد الشام .

وربما كان انتشارها في بلاد الشام اكثر من سواها لان العروبة طبعت سوريا بطابعها حتى كادت تكون ولاية عربيـــة . وهذا ما اوحى الى الكونت سفورزا لان يقول في كتـاب له اصدره سنة ١٩٣٨ ما يلي : « اذا ما سألت الامبرطورية الرومانية الشرقية لعلمت انها كانت تسيطر على سوريا على اعتبار انها قطر عربي يتولاه امراء العرب الذين كانوا وشعبهم يؤلفون الكثرة بين السكان . »

ومن الجدير بالذكر ان ظروفاً سياسية برزت في ذلك الحين هي اشبه شيء بالظروف الحاضرة جعلت للعرب وزناً في كفـة سياسة الشرق الأوسط . ذلك انه كان يتصارع وقتئذ في هـذا الشرق معسكران عظيمان يتألف احدهمـــا من الروم قياصرة بيزنطة ، اصحاب بلاد الشام ، ويتألف ثانيهما من اكاسرة فارس آل ساسان اصحاب العراق ، وكان هذا الصراع بين المعسكرين يشبه كثيراً صراع الكتلتين الغربية والشرقية في هذا الزمان .

وكان لا بد لكل فريق من المعسكرين الرومي والفارسي ان يستعين بالدولة العربية التي هي في منطقة نفوذه : آل غسان في

الشام ، التي كانت من اعمال البيزنطيين ، وآل لخم في العراق ، التي كانت تابعة للفرس ، وان يغدق عليها ، لقاء ذلك ، النعم ، ويفسح لهـــا مجال التسلح والعمران . فكانت فرصة سانحـــة للدولتين العربيتين المذكورتين للتقدم والأزدهار ، وللتمتـــع بعمران يضاهي بـلاد القياصرة والاكاسرة . ولا تزال هيا كل تدمر واثارها التاريخية ، ماثلة امام الانظار ، وهي تشير الى مـا كانت عليه تلك البلدة من العمران . واما الحيرة فقد اطرى كثيراً كوستاف لوبون حياة الرغد والترف فيها ، ووصف قصورها في كتابه «التمدن العربي» بانها كانت اجمل صروح الشرق، وقال انها كانت تضاهي قصور الاكاسرة بالعظمة .

وصادف وقتئذ، اي في اوائل القرن السادس للميلاد، ان تبوأ كلاً من عرشي فارس وبيزنطه، في زمن واحد، عاهلان عظيمان ، هما كسرى انو شروان، والقيصر يوستنيانوس . فكان الصراع الشديد بينهما مما اضفى على حليفي كل منهما : المنـذر بن امرىء القيس ملك غسان بالشام ، والحارث بن جبلة ملك لخم بالعراق ، شيئاً كثيراً من العظمة والشهرة . كل ذلك رفع بالتالي من شأن العرب على وجه عام، ووسع مدى سيطرتهم حتى اصبحت تمتد من حدود مصر الى تخوم ايران وذلك ضمن اطار الامبرطوريتين ، احياناً وخارجة في الاحيان الاخرى .

وكانت فلسطين داخلة في منطقة نفوذ الغسانيين. وقد اكتشفت فيها قبل سنين قلائل بعض الآثار التاريخية ، فرجح احد علمـــاء التاريخ بانها من بقايا ابنية آل غسان .

على ان اهمية العرب في ذلك الحين عند المعسكرين ، لم يكن مرجعها يعود الى اعتماد كل واحد منهما على حليفه في الشام او بالعراق فحسب ؛ بل كانت تعود ايضاً الى عناية كل منهما في محاولة كسب الجزيرة العربية كلها ، مستعيناً على ذلك بحليفه العربي .

هذا وقد لعب اليهود في هذه الناحية دوراً كبيراً ، ولا بدع فقد قيل « في كل وادٍ اثر من ثعلبة » ذلك انهم كانوا لجأوا الى سوريا في منتصف القرن الثاني للميلاد حينما اصدر الامبرطور ادريانوس البيزنطي مرسوماً يحظر عليهم فيه دخول فلسطين ؛ ولكنهم كانوا في سوريا ، مثلما كانوا في فلسطين ، حرباً على الدولة وعلى النصرانية ، وعوناً لاعدائها . فكان من عواقب ذلك انه ما ان استرد الروم بلاد الشام من الفرس ، في اوائل القرن السابع للميلاد ، حتى طاردوا اليهود ، وشددوا عليهم ، فهاجر هؤلاء الى جزيرة العرب ، واستقر بعضهم في الحجاز ، وتقدم آخرون الى اليمن . وهنا وهناك شنوا حرباً شعواء باردة على البيزنطيين وعلى النصرانية بالاتفاق مع فارس . وشرعوا يبشرون بدينهم . ولما تهوّدت اليمن ، وكانت عند العرب بمنزلة الخلفاء عند المسلمين ، وتهودت ايضاً بعض القبائل الاخرى اصبحت الجزيرة كلها حلفاً لفارس ضد الروم باستثناء بعض القبائل المتنصرة .

وظهر الاسلام خلال ذلك ، مصدقاً لما كان قبله من الكتب السماوية ، فانحاز محمد ، بهذه الصلة الروحية ، الى النصرانية والروم حماتها ضد المجوسية الفارسية ؛ وحمل من ثم الجزيرة العربية على التحول معه سياسياً عن الفرس الى الروم . ولكن لم يتم ذلك الا بعد

عراك شديد بين الاسلام واليهودية جعل المعسكرين المتنازعين الفرس والروم يعنون خلاله بالعرب كل العناية ، ويتنافسون في ميادين اكتسابهم بشتى الوسائل .

غير انه لم يمض على ذلك الا وقت قليل حتى وثب العرب بمحمد وثبتهم الجبارة فانقلبوا الى اسياد بعد ان كانوا اتباعاً . وكما اجلوا البيزنطيين تباعاً عن الشام ومصر والمغرب وما يليها فقد دكوا عرش فارس . ثم كان ما كان من انتشار العروبة في كل مكان .

● **خلاصة ما قرره التاريخ بشأن فلسطين :**

● اتضح لنا في المقال الاول من هذا الفصل ان عهد اليهود بفلسطين اجتاز مراحل تتلخص بما يلي :

١ ـ كان عهد العبرانيين حتى سنة الف قبل الميلاد يتميز بالقسوة والتهديم ، وكانت غزواتهم خلاله على جيرانهم لطخة سوداء في تاريخ الغارات التي شنتها البداوة على الحضارة .

٢ ـ لما اقتبسوا الحضارة والدين من الكنعانيين ، واقاموا الدولة التي احاطوها، باسفارهم وتوراتهم، بهالة من العظمة ، كانت دولتهم في الواقع ، هزيلة ، وليس لها من عظمة الا بالصورة التي رسموها في كتبهم الدينية . وكانت ضيقة المساحة الى حد انها حتى في عصرهم الذهبي، عصر داود وسليمان ، لم تدرك البحر المتوسط الا في ناحية صغيرة بجوار يافا ، حسبما روى ويد في كتابه « تاريخ العهد القديم » . وبلغ من ضعفها ان موجة واحدة اتت من الشرق كانت كافية لتقويض اركان هذا المجد المزعوم، ولجعلهم ، من بعد، عبيداً، على التوالي، لكل من آشور وبابل وفارس .

٣ ــ لما سمح لهم كورش مؤسس امبراطورية فارس بالعودة الى فلسطين ، وممارسة طقوسهم فيها بحرية، « كانوا قد اصبحوا على حال من خمود الذكر الى حد انه لو زار اذكى السياح وانبههم فلسطين وسوريا في القرن الخامس قبل الميلاد لما سمع قط باليهود . » كما قال الدكتور فركس جاكسون .

٤ ــ منذ استتب الحكم ، في بلاد الشام ، للاسكندر الكبير في سنة ٣٣٣ ق.م. لم تقم قائمة لليهود ، وظلوا حتى ظهور الاسلام ، اي خلال مده تناهز ١١٧٥ سنة ، يرزحون تحت وطأة الرومان والسلوقيين والبيزنطيين ، واذا اتيح لمؤامراتهم وفتنهم ان تؤتي اكلها في ظروف استثنائية فلتنهار ، من بعد ، في وقت قريب .

٥ ــ حرّم على اليهود ، في المائة الثانية للميلاد ، دخول فلسطين بمقتضى مرسوم صدر عن الامبرطور ادريانوس البيزنطي . وظل هذا المرسوم مرعيّ الاجراء خلال حكم البيزنطيين . بل ان هؤلاء ظلوا يحرصون على ان لا يدخل اليهود القدس الى حد انه لما اضطر بطريرك الروم صوفونيوس لان يستسلم للعرب ، اشترط ان يسلم مفاتيحها الى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، وكان من اهم ما يريده بذلك ان يأخذ عهدا على المسلمين بشأن التقيّد بمرسوم ادريانوس . وقد لبى الخليفه رغبته وجاء الى القدس ، ووقع على وثيقة قدمها الى البطريرك تعهد فيها بان لا يسمح لاحد من اليهود بدخول بيت المقدس .

٦ ــ وكان اليهود يستقبلون كل فاتح بالتهليل والتكبير حيث نزلوا ، لا يحفظون عهدا ، ولا يذكرون جميلا . فعلوا

ذلك ابان انتصار كورش الفارسي على بابل ، واثناء انتصار الاسكندر الكبير على فارس ، كما جروا على ذلك حينما هزم خسرو شاه فارس هرقل قيصر الروم . ثم استقبلوا الفتح الاسلامي بالاهازيج والتطبيل والتزمير ؛ واصبحوا عيونا للمسلمين في سائر فتوحاتهم ، بينما كانوا في الأمس اعداء لمحمد الداء يألبون عليه القبائل لقتل رسالته في المهد .

هذا واما العروبة في فلسطين وسائر بلاد الشام فهي ، فضلا عن انها كانت أسبق اليها من العبرانية بمقدار الف سنة ، فقد ظلت قائمة فيها بالكنعانيين والادّوميين وغيرهم طوال عهد اليهود بفلسطين ، وبعد جلائهم عنها ، ثم ظلت تربو وتزيد هناك الى ان غمرتها الموجة الاسلامية الكبرى :

– لما جاء ابراهيم الخليل الى فلسطين ، في الالف الثانية قبل الميلاد ، كانت بلاد الشام آهلة بالكنعانيين الذين اتوا اليها من جزيرة العرب قبل نحو الف سنة .

– ابان قيام دولة اسرائيل الكبرى في القدس ، وخلال عهدها الذهبي ، استطاع الفلسطينيون الكنعانيون حصرها في الداخل حتى لم يكن لها منفذ الى البحر المتوسط الاّ في بقعة صغيرة حول يافا .

– مذ دخلت بلاد الشام في حوزة الاسكندر الكبير (٣٣٣ق م) الى ان اصبحت عربية خالصة بالفتح الاسلامي سنة ٦٣٧م ، اي خلال حقبة تناهز الف سنة ، كانت العروبة بارزة فيها تبدو على وجهها ، وكانت عزيزة الجانب بالدول العربية الكثيرة التي تعاقبت فيها ، وانتشرت من

صعيد مصر وصحرائه الشرقية الى ديار بكر والعراق .

وعلى هذا الاعتبار فان محمدا ما ان دعا الى رسالته حتى وجه انظار قومه الى بلاد الشام ، ولا سيما الى بيت المقدس اذ جعلها قبلته الاولى واتخذ منها مرحلته الاولى في قصة الاسراء ، هذا فضلا عن دعوته صراحة الى استرجاعها بما جاء في القرآن الكريم :

« يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين . »

واما هؤلاء الصهيونيون الذين جاؤا يزعمون باطلًا بانهم احق من العرب بفلسطين ، والذين ملأوا الارض صراخا وعويلًا ، فمعظمهم من الخزر الذين تهوّدوا في اواسط القرن الثامن الميلاد » كماقال غريفت تايلر في محاضرةالقاها في مجمع تقدمالعلوم البريطاني ، وتساءل فيها عن اي حق لهم بفلسطين ؟

وبعد فانا وان استندنا الى التاريخ في التدليل على ان العرب هم احق من اليهود بفلسطين فنحن لا نؤمن بان البراهين تفيد في استرجاعها من الغاصبين ما زالت شريعة الغاب لا تزال هي المرعية في العالم ، وما دام الحق مطية للقوة ، وانما كان القصد من هذا الاستعراض ان نقول للذين يقيمون بين ظهراني العرب وفي خارج بلادهم من الذين انطلت عليهم دعايات الصهيونيين وأُخذوا بسحر اليهودية ،ان نقول لهم ان حجج هؤلاء التاريخية لا تستند الى حقيقة ، وهي على كل حال لا تصلح لأن تكون بمثابة حق لاخراج قوم من بلدهم حفاة عراة لاحلال شذاذ الآفاق مكانهم .

واما تطهير فلسطين فهو متوقف على القوة وحدها . وهو

أمر غير عسير بالنسبة للعرب وان كان اليهود والغربيون بعضهم لبعض ظهيراً . ولا بدع فقد كنا ، في الأمس القريب ، نرى من العسير اجلاء فرنسا عن سوريا ولبنان ، ثم كنا نرى من الصعب اخراجها قسراً من مراكش وتونس والجزائر ، وكنا لا نؤمن بانه من المستطاع انتزاع شرقي الاردن من احضان بريطانيا العظمى وطرد غلوب باشا ، وتحرير العراق من الجيش الانكليزي المحتل ، واخراج انكلترا من مصر ؛ كنا نظن ان كل ذلك صعب المنال كلما قارنا قوانا بقوى الغرب الجبارة . ولكن العسير اصبح يسيراً حينما برزت الارادة ، وصحت النية ، وساعدت الظروف .

ولو ان البلاد العربية استكانت للمستعمرين ، واسترسلت في القنوط واليأس ، ورضيت بحلول هي دون الاستقلال لظلت ، حتى الآن ، ترزح تحت اثقال الاستعمار .

لذلك فانا نناشد القائلين بالمساومة مع اليهود ، والجانحين الى عقد الصلح معهم ، سواء اكان ذلك على شروط اشترطها مؤتمر باندونغ ام غيره ، ان يعتقدوا معنا ان كل مساومة مع الصهيونيين الذين تلين ملامسهم كلما ذكر الصلح ، انما هو حل ابتر يؤول في المستقبل الى تمزيق شمل العرب ، والى تبديد كلمتهم المتحدة.

وقد قال الشاعر

ان الأفاعي وان لانت ملامسها عند التقلب في انيابها العطب

الفصل الخامس

هل كان عصر العرب عصر التجميد ؟

نقاش مع الاستاذ سلامه موسى

كل شيء في هذا الوجود نسبي . وعلى هذا الاعتبار فان عصر العرب الذهبي هو منحط في المرتبـــة اذا قيس بالعصر الحاضر : عصر الذرة . ولكنه ليس متخلفاً بالنسبة للأزمنـة التي سبقته . ولكن الشعوبيين الذين ينظرون الى حضارة العرب بنظارات سوداء، ثم لا يرون بها اية حسنة أو مأثرة ، ذهبوا الى القول بأن القرون الوسطى، التي ازدهرت فيها الحضارة العربية ، كانت قرون التجميد.

اعلن ذلك الاستاذ سلامه موسى في مقال نشرته « مجلة العلوم» البيروتية في عددها السادس (آب ١٩٥٦) ، وعزا تأخر العلم عند العرب الى الاسباب التالية :

- تحريم الرسم .
- تحريم التشريح للجسم البشري والتصوير .
- وجود الرق والنظام الاقطاعي .
- توخيهم في كل ما اكتشفوا وما صنعوا، خدمة أولي الأمر فحسب .

● التزامهم العقائد دون العقل والمنطق .

ونحن لا نحاول في هذا الفصل ان نبرهن باسهاب للاستاذ سلامه موسى على ان القرون الوسطى التي كانت مظلمة حقاً بالنسبة للأوروبيين فقط لم تكن كذلك بالنسبة للعرب . ذلك لا ناقد وفينا هذا البحث حقه في الفصول السابقة . ولكن الذي نتوخاه بالتعليق على مقال الاستاذ هو التدليل على ان الأمور التي اوردها على اعتبار انها « حالت بين العرب وبين أي ارتقاء علمي » لم تكن حقيقة راهنة . وعلى افتراض وجود اثر مّا لها فهي لم تقف دون تقدمهم . هذا فضلاً عن اننا نريد ان نشير الى بعض الاغلاط التاريخية والشرعية التي وردت في سياق مقاله .

● **تحريم الوسم والتصوير .**

● قال الاستاذ سلامه موسى : « ولكن تحريم الرسم ادى الى عرقلة العلوم جميعها . وتحريم الرسم كان في الاصل مقصوراً على رسم البشر . ولكن الرسم باعتباره فناً ، كل لا يتجزأ ، فاذا حرمنا رسم البشر حرمنا ايضاً رسم اعضاء الجسم للحيوان او النبات . ومن هنا العرقلة للعلم . »

وقد جاء استنتاج الاستاذ سلامه موسى ، الذي بنى عليه حكمه ، غير موفق إذ ذهب الى ان الاسلام حينما حرم رسم البشر حرم بالتالي رسم اعضاء الحيوان والنبات . والواقع انه لم يرد اي تحريم في الاسلام على تصوير النباتات واعضاء الحيوان ، هذا فضلاً عن انه لم يثبت ان الاسلام حرم الرسم والتصوير على اطلاقه . وعلى افتراض ثبوته فما كان ذلك من شأنه ان يؤثر في

عرقلة العلم بمقدار ما توهم الاستاذ موسى ، خصوصاً وان اكثر العلوم لا تتطلب صور البشر .

وابرز دليل على ان الاسلام لم يحرم الصور هي النقود المصورة الموجودة في المتاحف. وقد نشر بعضها «كتاب الدينار الاسلامي» الذي طبع في بغداد باللغتين العربية والانكليزية ، لا سيما تلك النقود التي ضربها الخلفاء الراشدون وتداولها العرب ؛ والدنانير المصورة الأجنبية التي ظل يستعملها المسلمون في عهد صاحب الرسالة . وقد تكلم الاستاذ ناصر النقشبندي البغدادي عن هذه النقود في العدد ٦٦ من مجلة النفط التي تصدر عن بيروت ، ونقل بعض رسومها ، وقال ما خلاصته :

« كان العرب يتعاملون بدنانير الذهب البيزنطية ودراهم الفضة الساسانية وبشيء من نقود اليمن الحميرية حتى ظهور الاسلام ، فاقرها النبي على ما كانت عليه ، وجرى مجراه عمر بن الخطاب . وفي السنة الثامنة من خلافته ، وهي السنة العشرون للهجرة (٦٤٠ م) ضرب عمر الدرهم الاسلامي على الطراز الساساني ، ونقش عليه صورة يزدجرد الثالث . ثم ضرب في السنة التالية درهماً آخر نقش على بعضه صورة كسرى الثاني . كما ان الدراهم التي ضربت في خلافة كل من عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب جاءت على طراز دراهم عمر تحمل صورة كسرى الثاني. وكانت اطواق هذه الدراهم مزدانة بكلمات عربية كاسماء الجلالة ، وصاحب الرسالة ، والبسملة ، مع اسماء المدن التي ضرب فيها الدرهم . »

والى هذا فقد شاهدت بعيني في متحف دمشق الدينار الذي

ضربه عبد الملك بن مروان سنة ٧٨ هـ وعليه صورته شاهراً سيفه . فلو ان الاسلام حرم الصور لما سمح النبي بتداول تلك النقود المصورة ، ولما اقدم الخلفاء الراشدون من بعده على ضرب نقود مصورة .

هذا وعلى افتراض صحة ما نسب للاسلام بشأن تحريمه الصور قصد مكافحة الوثنية التي كانت لا تزال فاشية في عصره فما لا شك فيه ان المسلمين لم يتقيدوا بهذا التحريم ، بعد ان زال خطر الردة إلى عبادة الاوثان ، وذلك استناداً الى ما قررته الشريعة من تبدل الاحكام بتبدل الازمان .

والواقع انه كان للرسم عند العرب ، فضلًا عن المسلمين ، منزلة سامية حتى كانوا يعدونه واحداً من ثلاثة يسمونها « الاداب الرفيعة » ، وهي التي نسميها الآن « الآداب الجميلة » ، ونعني بها التصوير والشعر والموسيقى .

وقد عني العرب فعلًا بالتصوير منذ فجر نهضتهم . يؤيد ذلك ما جاء في الجزء ٥ الصفحة ٣٥ من كتاب « تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان حيث قال : « وكان العرب في الدولة الاموية والعباسية يقلدون ما بين ايديهم من تصوير الروم والفرس ، او ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . »

ولعل عنايتهم بالتصوير كانت منصرفة ، في اول الأمر ، الى الصناعات المختلفة من انسجة وتحف نحاسية ومعدنية ونقوش البناء . وكانت مدينة الموصل في عداد المدن التي اشتهرت بهذه الصناعات المصورة ، وبينها انواع من رسوم البشر والحيوانات والنباتات .

وقد نقلت في كتابي «قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور» (ج ١ ص ١٢٠) قول جيرودوت دي بيرانجه بشأن اختراع العرب نوعاً من النسيج النفيس الغالي الذي تتخلله خيوط الذهب والفضة على اشكال رسوم وصور جميلة تظهر كأنها رسمت بريشة مصور فنان.

ثم لما استفحل شأن التأليف لدى العرب اقبلوا على تزيينها بالرسوم المختلفة. واقرب دليل على ذلك الرسم الذي نقلته مجلة العلوم في نفس العدد الذي نشرت فيه مقال الاستاذ سلامه موسى، وهو يمثل طبيبين عربيين يقطعان شجرة. وقالت المجلة انه رسم منقول عن مخطوطة عربية يرجع عهدها الى عام ١٣٢٤ م.

هذا وقد اتيح لي ان اشترك في مؤتمر الادباء العرب واشهد دورته الثانية التي عقدت في ايلول سنة ١٩٥٦ ببلودان من اعمال دمشق، وتسنى لي ان اسمع الاستاذ محمود امين، العالم احد اعضاء الوفد المصري في المؤتمر، يقول:

«فأغلب آثارنا الادبية الكبيرة مرسومة مصورة في صفحاتها الأولى والاخيرة، وفي بعض صفحاتها الداخلية. فرسمت مقامات الحريري، ورسم كتاب الحيوان للجاحظ، ورسم كتاب الاغاني، ورسمت كتب أخرى ليست لها شهرة هـذه الكتب. ومن الكتب الادبية التي لم ترسم فحسب، بل كان الرسم من اهدافها كذلك كتاب كليلة ودمنة. يقول المفكر العربي العظيم ابن المقفع عند ذكر اغراض كليلة ودمنة. «والغرض الثاني من اغراض الكتاب اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والالوان

ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه اشد للنزهة في تلك الصور . والثالث ان يكون على هـــذه الصفة فيتخذه الملوك والسوقـة فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطن فيخلق على مرور الايام ، وينتفع بذلك المصور والناسخ ابداً . »

اجل وفي مكتبة باريس الاهلية باللوفر ترى نسخة من مقامات الحريري التي اشار اليها المحاضر مصورة بصور البشر وغيرهم على احسن شكل مكتوبة منذ سنة ٦٣٤ هـ ، كما انك تشاهد ايضاً هناك مخطوطاً عربياً اسمه الترياق لجالينوس مؤرخ سنة ٥٩٥ هـ. يمثل الحرث عند العرب ، وتقف على كتاب آخر مترجم لدسقوريوس اسمه خواص العقاقير مؤرخ سنة ٦٢١ هـ . وهو مزدان بصور للبشر والنباتات على اختلاف انواعها ، هذا فضلاً عن كتب اخرى عربية تجدها في تلك المكتبة وغيرها ، وكلها حافلة بانواع رسوم البشر وغيرها .

واما رسم النباتات والجمادات وسائر الحيوانات في الكتب العربية فهو لا يعد ولا يحصى . ذلك لان العلماء ، في حضـــارة العرب ، كانوا لا يعتمدون على مثل هذه الرسوم للزينة فحسب ، وانما كانوا يستعينون بها من اجل بحوثهم العلمية و كشوفهم اسوة بما يفعل زملاؤهم في التمدن الحديث . وقد ذكر صاحب طبقات الاطباء في سيرة رشيد الدين بن الصوري ، انه كان حين البحث عن الحشائش في منابتها بلبنان وسوريا يرافق مصوراً ومعـــه الاصباغ والليق على اختلافها وانواعها ليأخذ رسوم النباتات . نقل هذا جرجي زيدان في كتابه المذكور (ج ٥ ص ٤٤) كما روى انه وقف على كتاب لاسماعيل بن الرزار الجزري ألفه في اواخر

القرن السادس للهجرة وفيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركة خفية ، وبينها رسم يشبه ما وضعه ابن جبير عن ساعة دمشق . وقد علق زيدان على ذلك الخبر بقوله : « فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان في الميكانيكيات مما يحتاج وصفه الى كتاب برأسه . »

ومن الجدير بالذكر هنا ان المدنية العربية لم تقتصر على العرب وانما ساهم في وضعها مسلمون وغير مسلمين من فرس ومغول وهنود وسوريين وعراقيين ومصريين الفوا فن التصوير من القدم ، ولما شاركوا العرب في اقامة تمدنهم اقبلوا عليه فزينوا به مؤلفاتهم العربية وغير العربية ، كما زينوا به جدران القصور والخزف والمنسوجات وسواها . ونخص بالذكر من هؤلاء المستعربين الفرس والمغول . وكم في دور الكتب الكبرى من مؤلفات عربية حافلة بالرسوم التي تمثل الحوادث التاريخية والعظماء ، فضلا عن الحيوانات والنباتات والجمادات ، وهي ملونة تلويناً بديعاً ؟

هذا وقد وقفت اخيراً على مقال للاستاذ فاتس صدر في جريدة صوت الهند بتاريخ ٢٣ / ٧ / ١٩٥٦ تحت عنوان « كنوز الادب الاسلامي في مكتبة باتنا »، وهي عاصمة بيهار بالهند، نوّه فيه بعشرات من اللوحات الفنية الرائعة الموجودة في تلك المكتبة ، كما اشار فيه الى المخطوطات الفارسية والهندية المزينة بالرسوم الجميلة وقال :

« اننا نجد في المكتبة مؤلف الزهراني المشهور في الجراحة الذي كتب سنة ١١٨٨ م . وهو يضم عدداً من الصور والرسوم

رسمت بدقة فائقة ، وتشبه الى حد بعيد ،رسوم الجراحـــة التي وضعت في العصر الحاضر . »

وقد ذكّرني قوله هذا بما شاهدته سنة ١٩٥٢ حيـــنما زرت مكتبة بمباي وعكفت فيها على دراسة المؤلفات في القسم المختص بالعرب والفرس .

على ان المسلمين لم يقفوا عند هذا الحـد ، بل اقبلوا على تزيين قصورهم وحدائقهم ، ولم يتورعوا عن اقامة التماثيل. واني لارجو الاستاذ سلامه موسى ان يرافقني في جولة عـبر التاريخ لنرى في امصارهم وعهودهم المختلفة الأدلة على صحة ما اقول؛ واني اتعهد له بأن لا احمله مشقة التجوال الكثير، بل اكتفي بالبعض دون الكل .

واذا بدأنا ، في هذه الجولة ، بدمشق وزرنا متحفها الاثري ووقفنا عند قصر الحير الذي بناه هشام بن عبد الملك في سنة ١٠٩ﻫ ما بين تدمر ودمشق نرى بام العين تماثيل اشخـــاص بارزة على مستوى واحد تزين بعض واجهات ذلك القصر . ثم اذا انتقلنا الى داخل المتحف نرى ايضاً تماثيل اخرى بعضها من حجر وبعضهـا من فخار ترجع الى عهد الأمويين وما بعدهم، فضـــلاً عن قطع خزفية ومعدنية تزدان بشتى الصور والرسوم المختلفة . كما نشاهد في قسم المخطوطات كثيراً من الكتب العربيـــة مزدانة بشتى الرسوم . وان دلتنا هذه التماثيل على شيء فانهـا تدلنا على ان المسلمين ، حتى في صدر الاسلام، لم يأخذوا بتحريم الرسم ، اذ لم يجدوا في شرعهم نصاً صريحاً على هذا التحريم .

ثم اذا انتقلنا الى العراق ووقفنا عند الدار التي عرفت بـدار

الشجرة التي بناها المقتدر بالله العباسي في اول القرن الرابع للهجرة رأينا، باعين التاريخ المدوّن، فوق اغصان الحديقة طيوراً من الذهب والفضه اذا مر الهواء عليها تعالت اصواتها مغرّدة . ورأينا هناك بركة تقوم حولها تماثيل ثلاثين فارساً يمتطون ثلاثين فرساً البسوا انواع الحرير المدبج. خمسة عشر منهم من يمين البركة، وخمسة عشر من يسارها ، وهم مقلدون بالسيوف وفي ايديهم المطارد يتحرك كل فريق منهم على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه . (معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣)

واذا بلغ بنا المطاف قرطبة عاصمة الدولة الاموية في اسبانيا فجدير بنا ان نبدأ بالقصر الكبير الذي شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة ، وأتمه خلفاؤه فجاء آية من آيات الفن . وهناك نشاهد المياه تجري الى احواض الحدائق بانابيب من الذهب والفضة وتنصب فيها من صور وتماثيل مختلفة الانواع تمثل الحيوانات الكاسرة ، او الطيور الجميلة (ابن الاثير ١٥١ ج ٩) .

ثم اذا عرّجنا هناك مع صاحب نفح الطيب (٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١) على قصر الزهراء الذي بدأ بتشييده الناصر في سنة ٣٢٥ ﻫ واتمه خلفاؤه نرى حوضاً نقشت عليه رسوم للبشر جيء به من القسطنطينية ، ونصب الناصر عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب مرصعة بالدر النفيس تمثل بعض الحيوانات والماء يجري من افواهها.

وقبل ان نغادر اسبانيا فمن المستحب ان نزور قصر الحمراء في غرناطه الذي شيده ابن الأحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة .

وهناك نرى بام العين، ما رأيناه في غيره بعين التاريخ، تماثيل الأسود التي تقذف المياه من افواهها الى البركة المعروفة ببركة السباع .

واما اذا كان الاستاذ سلامه موسى لا يريد ان يرافقني الى الشام والعراق واسبانيا فاني سأوافيه الى مصر حيث زين خلفاء العرب وغيرهم من ملوك المسلمين قصورهم وحدائقهم بالرسوم والتماثيل على اشكال بديعة هي غاية في الذوق والاتقان .

واذا هبطنا مصر في هذه الجولة التاريخية وزرنا القطائع ودخلنا بيت الذهب الذي شيده احمد بن طولون شاهدنا صوراً بارزة ، على ارتفاع قامة ونصف القامة ، مصنوعة من خشب تمثل باني القصر مع بعض محظياته ومغنياته تزدان رؤوسهن بأكاليل من الذهب . واذا عرجنا على منظرة بركة الحبش التي بناها احد الخلفاء الفاطميين ، من بعد ، رأينا حولها رسوم شعراء الخليفة ، وعلى رأس كل شاعر ابيات نظمها في وصف تلك المنظرة (المقريزي ٣١٦ ج ١) . ثم اذا انتهى بنا المطاف الى قصور الأيوبيين والمماليك بعدهم ، تلك القصور التي قلدوا بها اسلافهم فسنقف ملياً عند الرفرف العالي الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون مشرفاً على الجيزه، ونستمتع بمرأى تلك الرسوم التي تزينه . وكل واحد منها يمثل اميراً من امراء الدولة وخواصها على على شكل بديع .

وهذه الجولة التاريخية ، سواء اكانت بين القصور ام في المكتبات العامة، تبرهن لنا على ان حضارة العرب لم تكن محرومة فعلاً من الرسوم والصور والتماثيل، كما توهم الاستاذ سلامه موسى؛

وان شيئاً من عرقلة العلم عند العرب لم يكن موجوداً من جراء تحريم الصور . كما تبرهن لنا على ان قومنـا مضوا في سبيلهم حتى ادركوا حظاً وافراً من سائر العلوم والفنون وبلغوا « درجة في الثقافة لم يصل اليها احد قبلهم » حسبما قال درابر ، درجـة «جعلتهم اساتذة اوروبا في جميع فروع المعرفة »على ما قال سديو.

● تحريم التشريح .

● قال الاستاذ سلامه موسى « ويُعزى تأخر العلم عند العرب الى عقبات نشأت في الحضارة الاسلامية وعاقت التجربة العلمية . من ذلك مثلاً تحريم الرسم وتحريم التشريح » ولعله نقل هذا النبأ عن كتاب الاستاذ فيليب حتي « تاريخ العرب المطول » (ج٢ص٥٠٧) وذلك دون ايّ تمحيص .

والواقع انه لا يوجد في الاسلام نص في صدد تحريم التشريح ، وما لا نص بتحريمه داخل بالشرع في نطاق المباح . على انه اذا ثبت ان فريقاً من الجراحين المسلمين تورعوا عن تشريح الجسم البشري ، اسوة بغيرهم ، احتراماً للانسانية فالتبعة في ذلك تقع عليهم وحدهم دون الشرع .

واما تشريح ابدان الحيوانات فكانت طريقة مرعية من اجل التحقيقات العلمية ؛ ومقال الاستاذ سلامه موسى ، الذي نحن في صدده ، يؤيد ذلك بما جاء في سياق كلامه عن ابن النفيس السوري (١٢٠٨ — ١٢٨٨م) مكتشف الدورة الدموية في الرئتين حيث قال : « واكبر ظني ان ابن النفيس قام بمشاهداته بالفحص عن قلوب الحيوانات . »

هذا فضلا عن انه اورد كلاماً لاحد اطباء بغداد مفاده انـه تأهل لحرفة الطب بتشريح جسم قرد لأنـه اقرب الاجسام الى جسم الانسان .

على انا نود ان يتعدى الاستاذ سلامه موسى الظن الى الاعتقاد ان اطباء الحضارة العربية كانوا يستعينون فعلاً على ابحاثهم الطبية بتشريح اجسام الحيوانات . وحسبه أن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ حيث اورد تجارب كثيرة كان يقوم بها النظّام في تشريح أجسام الحيوانات، حسبه ذلك ليعود عن رأيه . وحسبه ايضاً ان يرجع الى مقال الاستاذ فاتس، الذي اشرنا اليه من قبل، وذلك اثناء الكلام على تحريم الرسم، ليطمئن الى ما نقول . فانك حين تقرأ فاتس وهو يصف كتاب الزهراني في الجراحة، وينوّه بما يتضمن هذا الكتاب من الصور والرسوم المتعلقة بالتشريح تتساءل اذا كان من الميسور لغير طبيب اخصائي في علم التشريح ان يضع كتاباً كهذا وصف الاستاذ فاتس صوره ورسومه بأنها تشبه الى حد بعيد رسوم الجراحة في هذا العصر .

وبعد فعلى افتراض ان جراحي الحضارة العربيـة لم يعنوا بتشريح ابدان البشر لا سراً ولا جهراً حرمة للانسان فان ممارستهم تشريح اجسام الحيوانات، ولا سيما القرود التي لا يختلف تركيب ابدانها عن ابدان البشر، كان من شأنها ان تعوضهم عما فاتهم في التحقيقات الطبية . ولا بدع فان هذا التشابه الكلي بين الانسان والقرد حمل داروين وغيره على الاعتقاد ان الانسان هو فصيلة من فصائل القردة .

أضف الى ذلك ان العرب كانوا كاليونان حريصين على اقتباس المعلومات ممن سبقهم ، بل كانوا أشد الناس حرصاً على ترجمة ثقافة الأمم الى لغتهم ، والاستفادة من اختبارات وكشوف وتحقيقات تلك الأمم في كل الفروع ، ولا سيما في الفلسفة والطب . وذلك ما حمل جرجي زيدان على القول : « ويلاحظ ايضاً ان العرب نقلوا من علوم تلك الأمم في قرن وبعض القرن ما لم يستطع الرومان بعضه في عدة قرون ، وذلك شأن المسلمين في اكثر تمدنهم العجيب . « التمدن الاسلامي ١٦٣ ج » .

وكانت عنايتهم بعلم التشريح وبمعرفة نتائج اختبارات غيرهم شديدة الى حدان حبيش الأعثم ترجم وحده كل التآليف التي ألفها جالينوس في هذا الموضوع . وهي (١) التشريح الكبير (٢) اختلاف التشريح (٣) تشريح الحيوان الحي (٤) تشريح الحيوان الميت (٥) علم ابقراط في التشريح (٦) تشريح الرحم. هذا فضلاً عما نقل سواه من هذا العلم عن المصريين والكلدان وغيرهم . فجاءت تآليف العرب كافية وافية استناداً الى تحقيقاتهم الخاصة بالاضافة الى اعتمادهم على كشوف وبحوث وتجارب سواهم. ولذلك اقبلت عليها الأمم التي عاصرتهم والتي جاءت بعدهم . فالكتاب الملوكي الذي الفه ابو بكر الرازي ، الملقب بجالينوس العرب ، ظل وسائر مؤلفاته الطبية ، مرجعاً لاوروبا حتى ظهر القانون ، لابن سينا فتحولوا اليه وبقي يدرس عندهم الى القرن التاسع عشر. وقانون ابن سينا هو معجم عام لفنون الطب ومايتعلق بها من تشريح وفسيولوجيا وباثولوجيا ونبات وصيدلة وغيرها .

كل ذلك يدلنا على ان التجربة العلمية لم تفت الحضارة العربية، واذا فاتهم شيء منها، لسبب من الأسباب، فأنهم استعاضوا عنه بلملمتهم شتات العلوم والفنون والاداب من سائر العالم، وصياغتهم منها ومن ثقافتهم الخاصة مدنية جاءت زبدة تعاون وتجارب خلال قرون عديدة.

وقد نوّه بذلك كرادوفو في سياق الاشادة بالحلقة الزاهرة التي صاغها العرب في سلسلة المدنية العالمية فقال :

«ان الميراث الذي خلفه اليونان لم يحسن الرومان استثماره. اما العرب فقد اتقنوه وعملوا لتحسينه وزيادته، وسلموه مستكملاً الى العصور الحديثة.» وزاد على كرادوفو بارتولد بايراد بعض الأسماء فقال : «كانت العلوم اليونانية في متناول النصارى في الشرق قبل الفتح الاسلامي. ولكن هؤلاء عجزوا عن ابراز عالم واحد يستحق ان يقارن بابن سينا والغزالي وابن رشد.»

ويخال لي ان الرومان ونصارى الشرق، الذين اتى على ذكرهم كل من كرادوفو وبارتولد، كانوا لا يحرّمون تشريح ابدان الحيوانات والبشر. وهم مع ذلك تخلفوا عن العرب في المستوى العلمي، ولاسيما في الطب؛ كما اشار الى ذلك هذان العالمان المنصفان.

واذا كان الامر كذلك فهل يبقى مجال لقول الاستاذ سلامة موسى بأن «تأخر العلم عند العرب يرجع الى تحريم الوسم والتشريح لان هذا حال دون مزاولتهم التجربة العلمية.» ؟

● الرق والنظام الاقطاعي .

● قال الاستاذ سلامه موسى : « اعظم ما أخر العلم عند العرب هو الرق . وذلك اننا لا نشتغل بالعلم للمعرفة فقط ، وانما نحن نحاول ان نخترع أو نكتشف كي نصل الى طريقة للانتاج في في الزراعة والصناعة نقتصد بها في النفقات . ولكن ما دام عندنا عمال ارقاء يعملون بلا أجر فاننا لا نحتاج الى الاقتصاد ، ولذلك لا نخترع ولا نكتشف . وهذا الرق هو الذي وقف بالحضارة الاغريقية ثم الحضارتين الرومانية والعربية ، وجمدها جميعاً . »

وقبل الدخول في بحث يبيّن مقدار صحة هذا الاستنتاج يطيب لنا ان نطرح على الاستاذ هذين السؤالين :

١ ـ هل تمّ الغاء الاسترقاق في التمدن الحديث قبل عهد الاختراع والاكتشاف ام بعده ؟

٢ ـ هل كان ازدهار الحضارة الأوروبية نتيجة لالغاء الرق ، ام كان الغاء الرق نتيجة لهذه الحضارة ؟

وكأني اجد جواب الاستاذ بارزا حيث يقول : « وبعث النهضة في اوروبا كان بالغاء الرق الزراعي حين اصبح العامل مأجوراً يكلف عمله مقداراً من المال . فكان اختراع الآلة للاستغناء عنه . وكلاهما الرق بالنخاسة والرق الاقطاعي في الزراعة قد عمّ الامم العربية اكثر من الف سنة فجمدها كما جمد من قبلها الاغريق والرومان .... والنظام الاقطاعي الذي كان يسودهم وايضاً الرق بالنخاسة حالا دون اي ارتقاء علمي . »
ومعنى هذا :

١ – ان البعث الاوروبي كان نتيجة لالغاء الرق .

٢ – ان الرق الزراعي «سيرف» عمّ الامة العربية اكثر من الف عام .

٣ – ان الرق عند العرب حال دون اي ارتقاء علمي .

والواقع ان هذه الاستنتاجات الثلاثة لم تكن موفقة للاسباب التالية :

١ – ان البعث الأوروبي تقدم على الغاء الرق .

٢ – ان الرق الزراعي « سيرف » لم يكن له اثر في الحضارة العربية .

٣ – ان الرق لم يحل دون ارتقاء العرب .

فكان علينا ، تبياناً للحقيقة وللدفاع عن قومنا ، ان ننبري لمناقشة هذه النظريات واحدة واحدة ممهدين الى ذلك بالكلام عن الرق عند الغربيين ، ثم بالكلام عنه عند العرب .

اكان ازدهار التمدن الحديث نتيجة لالغاء الرق ؟

● تطور الرق في الحضارة الاوروبية والنخاسة .

● يعتبر المؤرخون سنة ١٤٥٣ : السنة التي احتل فيها آل عثمان القسطنطينية ، بمثابة بداية عهد البعث الاوروبي Renaissance ، وذلك لما كان لعلماء بيزنطة ، الذين جلوا منها الى اوروبا عقب الفتح العثماني ، من اثر بارز في النهضة . كما يعتبر بعضهم ، ومنهم شارل سينوبوس ، مدرس الآداب في كلية باريس سابقاً أن الثورة الافرنسية سنة ١٧٨٩ ، كانت بداية للتمدن الحديث ذلك لأن الثورة

وضعت مبادىء افضت الى تهديم اركان العادات والنظم التي كانت مرعية في عهد النظام القديم . وقد بيّن سينوبوس في كتابه «تاريخ التمدن الحديث» ان الرق الزراعي ظل مرعياً في اوروبا وامريكا في الفترة التي تقع بين البعث الاوروبي وبين الثورة الافرنسية؛ وان النبلاء كانوا يملكون كل الاراضي تقريباً ، ويحكمون حكماً اقطاعياً بحصر السلطة بين ايديهم . اما الفلاحون فكانوا عبيداً لاسيادهم وفقاً لنظام الاقطاع وسننه التي كانت سارية في كل مكان . وكانت الامة الروسية مقسمة الى فئتين لا وسط بينهما : فئة الاشراف وفئة الفلاحين . وكانت الاراضي ملكاً للقيصر يقطعها لمن شاء من الاشراف فيمسي الفلاحون فيها متاعاً لهؤلاء المسيطرين يتصرفون بهم على هواهم ؛ فان شاؤا باعوهم مع الارض ، وان شاؤا استخدموهم في البيوت دون اجرة ، ام جندوهم . وهذا ما كانوا يسمونه «سيرف»

ثم انتقل هذا الحكم الاقطاعي الى الأميركتين . فاعلنت اسبانيا التي اكتشفت اميركا ان كل الارضين ملك للملك . وعلى هذا الاعتبار قسمتها الى اقطاعات ووزعتها على اخصاء الملك ، فكان حال الفلاحين فيها من الزنوج كحال الفلاحين في روسيا .

وتفاقم امر الاسترقاق بامريكا بعد ان تقاسمتها الدول الأوروبية واقبلت كل واحدة منها على ابتياع الزنوج من شواطىء افريقيا لاستخدامهم في زراعة القهوة وقصب السكر وغيرهما . فامسى بذلك استرقاق السود شرعة عامة في كل المستعمرات الأميركية ، ولا سيما في المناطق الحارة .

وقد ظل الحال على هذا المنوال الى القرن السابع عشر حيث برز افراد من رجال الاقتصاد السياسي والفلاسفة ، اضطلعوا بدراسة الاوضاع الجارية ، وبالدعوة الى الاصلاح فقرروا حقوق الافراد والجماعات وتحرير المستعبدين بالاضافة الى الحد من سلطتي الملك والكنيسة .

وقد اثمرت هذه الدراسات والمساعي في انكلترا قبل سواها إذ قامت، عقب ثورة سنة ١٦٨٨ ،سلطة البرلمان الى جانب سلطة الملك ، وبرزت الكنيسة المنشقة الى جانب الكنيسة الرسمية . وكان من نتائج ذلك انتشار الحرية السياسية هناك وتحرير الفئات المستعبدة .

على ان ما حدث في انكلترا لم يقف عندها بل هزّ أوروبا هزاً ، فشرع الكتاب الفرنسيون يدرسون ، منذ عهد لويس الخامس عشر ، هذه المبادىء الجديدة ، ويدسونها في الحكايات والقصص وفي اخبار السياح، التي كانوا ينشرونها باسماء مستعارة حتى اعدوا الشعب للمطالبة بحقوقه ، ثم للقيام بالثورة سنة ١٧٨٩ .

ولكن رغم ان الافرنسيين استطاعوا، قبل نشوب الثورة، ان يحملوا الملك على اقتباس النظم الدستورية من جيرانهم الانكليز فلم يتمكنوا من تطبيقها ، بل ظلت سلطة الملك نافذة ، كما ان الفلاحين، الذين صار لهم حق التملك واصبح لهم نحو ثلث الاراضي، استمروا على الطاعة لسادتهم النبلاء عملاً بسنن الاقطاع المرعية . حتى اذا قامت الثورة سنة ١٧٨٩ قضت على النظام القديم إذ اعلنت :

« يولد الناس احراراً ويعيشون كذلك ، وكلهم متساوون

في الحقوق ، والحقوق هي الحرية والتملك والأمن ومقاومة الجور . وقوام الحرية ان يستطيع الانسان العمل بكل ما يريد من غير ان يضر بغيره . »

وعملاً بهذه المبادىء اعتقت فرنسا املاك الفلاحين من المرتبات المفروضة عليها للاشراف ، وحررتها من المكوس الفادحة التي كانت مقررة عليها .

بيد ان الثورة الافرنسية ، وان كانت ذات اثر كبير في تحطيم النظام القديم باوروبا ، الا ان ابحاث الاقتصاديين والفلاسفة التي سبقتها ، كانت ، بالاضافة الى ما حدث في بريطانيا العظمى من الانقلاب السياسي والاصلاح الاجتماعي ، حافزة لعواهل اوروبا على التفكير بالاصلاح من تلقاء انفسهم منذ القرن الثامن عشر . ونخص منهم بالذكر جوزيف الثاني امبراطور النمسا ، وليوبولد ملك توسكانا ، وفردريك الثاني ملك بروسيا ، وكاترينا امبرطورة روسيا .

أجل فعملاً بمبادىء الفلاسفة الاصلاحية ألغى الامبراطور جوزيف المشار اليه استرقاق الفلاحين ، واباح لهم ان يتزوجوا ، وان تكون لهم الحرية في حراثة الارض ام تركها .

وعلى اثر فتنة سنة ١٨٤٨ في المانيا الغت الدولة كلما بقي للاسياد والنبلاء من حقوق ، فاصبح للفلاحين ، فيما عدا ما كلنبرج ، حق امتلاك المزارع .

واما في روسيا فقد استمر نظام الرق مرعياً الى سنة ١٨٦١ حيث اصدر القيصر اسكندر الثاني مرسوماً بالغائه . وكان يقدر

عدد الارقاء الذين يخدمون مجاناً في البيوت مليونا ونصف المليون .

وبذا انقضى عهد الاسترقاق الزراعي في النظم الاوروبية ، ولكنه بقي مع ذلك معمولا به في روسيا الى حين ، لان السواد الأعظم من الشعب كانوا يؤثرون البقاء في ارض يتصرفون بها ويعتبرونها كأنها لهم على تحرير يهددهم بخطر الاجلاء عنها .

واما في امريكا فقد ظل الاسترقاق سارياً فيها الى اواخر القرن التاسع عشر وذلك لان نابليون اعاد الاسترقاق هناك الى سيرته الأولى بحجة ان المستعمرات الاميركية لا تستطيع العيش الا بوجود الارقاء . وظلت النخاسة معمولاً بها في امريكا رغم ان الدول قررت ابطالها في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ ، وظل الزنوج فيها عرضة للعبودية يتاجر بهم النخاسون ، والشريعة تجبر الآبقين منهم على العودة الى حوزة اسيادهم .

غير ان الولايات المتحدة جنحت منذ باشرت اتحادها سنة ١٧٨٣ الى الغاء الرق ، ومطاردة النخاسة بدافع الانسانية . ولكنها وقعت من جراء ذلك في مشكلة داخلية افضت الى حرب اهلية ، ذلك لان ولاياتها الجنوبية وقفت موقف المعارض بحجة ان الرق ضروري ولا بد منه .

ولكن انتصار الولايات الشمالية في الحرب الاهلية على الجنوبية الانتصار الذي افضى الى اعادة الاتحاد بينها كان من عواقبه غلبة المبدأ القائل بتحرير الارقاء فصدر مرسوم من رئيس الجمهورية هذا نصه : « ان جميع الارقاء يتحررون ابتداء من اول كانون الثاني

سنة ١٨٦٣ » وقد صادقت الندوة العليا على هذا المرسوم سنة ١٨٦٥ ، واشفعته بقرار آخر يقضي بالمساواة في الحقوق السياسية بين البيض والسود . ثم جرت بقية الدول الاميركية تباعاً مجرى الولايات المتحدة في وضع الانظمة لتحرير الزنوج ما عدا البرازيل التي تخلفت عنها بعض الوقت .

غير ان هذه النظم ظلت ، في الواقع ، حبرا على ورق رغم التعديل المستمر في العلاقات المختلفة بين البيض والسود ، ورغم جنوح الدوائر الرسمية والاوساط الشعبية الى منح العناصر الملونة المزيد من الحقوق المدنية التي قررتها النظم .

وليس المجال متسعاً هنا للتدليل على ذلك ، وانما حسبنا الاشارة الى ناحية واحدة ؛ فقد قررت المحكمة العليا بواشنطن سنة ١٩٥٦ فتح ابواب المعاهد العلمية امام كل الطلاب الاميركيين على اختلاف اجناسهم والوانهم ؛ فقابل سكان الولايات الجنوبية هذا القرار بالتمرد بحجة ان الفوارق الجنسية هي فوارق اساسية لا سبيل الى انكارها . وما ان حل موسم تسجيل الطلاب في المعاهد العلمية حتى احتشد البيض حول المدارس لمنع السود من تسجيل اسماء اولادهم ؛ ولما تدخلت الحكومة اعلنوا انهم سوف يحجبون اصواتهم عن الرئيس ايزنهاور في معركة الانتخابات التي كان موعدها في ٦ تشرين الثاني من ذلك العام للاعراب عن احتجاجاتهم .

واكثر من ذلك فان الصحف نقلت الينا ايضاً في ذلك الوقت ان المساجين البيض ثاروا هناك على رفقائهم السود لان هؤلاء طالبوا بان يكون لهم ما للبيض في المعاملة ضمن نطاق السجن على اساس المساواة

- **تقدم الغرب في العلوم والشؤون الاقتصادية .**
- كان المسلمون قوماً تجاراً يساعدهم موقفهم الجغرافي على ايفاء الوساطة بين الشرق والغرب حق الايفاء ، ولا سيما بما توفر لديهم من ثروة طائلة جمعوها ، وخبرة كثيرة كسبوها . ولما انتهت الحروب الصليبية بانتصار الاسبان على المسلمين هناك وباجلائهم الى غرناطه ، رأى الاسبان والبرتغاليون انفسهم مطوقين اقتصادياً بعالم اسلامي يعادونه ويعاديهم حرم شبه جزيرة ايبريا من الموارد العظيمة التي كانت تجنيها التجارة في عهدها الاسلامي السابق ، بينما ان البندقية ، التي كانت على ولاء مع الدول الاسلامية حول البحر المتوسط ، تستأثر بالوساطة التجارية ، وتجني من وراء ذلك الارباح الشديدة. فاتجهت افكار اسبانيا والبرتغال الى التحري عن منفذ لهما ينقذهما من هذا الحصار الاقتصادي ، ويوصلهما بالهند مباشرة بغية استئناف التجارة معها بغير الوساطة الاسلامية .

وكان جغرافيو العرب قد قرروا ان الأرض كروية الشكل وجاراهم في ذلك بعض الأوروبيين . واستناداً الى هذه النظرية بدر لكريستوف كولومب الجنوي انه يستطيع ان يدرك الهند اذا ما سار اليها من اوروبا مغرّباً . وما ان اعرب لاسبانيا عن استعداده للقيام بهذه المغامرة حتى رحبت به ، وامدته بالمساعدة ، على اعتقاد انه سيؤمن لها الغاية .

ولكن هذا البحار الجريء اكتشف امريكا ، وهو يحسب نفسه قد بلغ شاطىء الهند ؛ وهذا الاكتشاف ، كان من قبيل الصدفة ، وقد وافق عام سقوط غرناطة آخر ملجأ للمسلمين في

الاندلس ، وهو عام ١٤٩٢ م .

غير ان بحاراً آخر برتغالياً حظي بمساعدة دولته ايضاً بغية خرق الحصار الاسلامي وقدر له أن يتوفق فعـــلًا باكتشاف الطريق المباشر للهند وذلك بسلوكه الناحية الجنوبيـة حتى اذا ادرك المكان الذي سمي من بعد برأس الرجاء الصالح تيمنـــاً بادراك القصد،وذلك سنة ١٤٩٧ ، أشرف على تحقيق هذه الامنية. ونعني به فاسكو ده كاما . وكان الفضل في ذلك يرجع ايضاً الى العرب إذ استعان ده كاما بخبرة البحار أحمد بن مجيد لاكتشاف الطريق الموصلة الى الهند،وبما لديه من ادوات فنية بحرية، فذكرنا في هذه المناسبة قول جونيه« لقد علمنا العرب صنع البارود وعمل ابرة السفينة وغيرها . اذن فعلينا ان نقدردائماً مدى الشوط الذي كانت نقطة مدنيتنا تقف عنده لو لم تقم على مخلفات المدنية العربية .»

وهذان الاكتشافان : اكتشاف امريكا ،واكتشاف طريق الهند الجديدة يرجع اليهما اعظم الفضل في مساعدة التمدن الحديث على ما ادرك من تقدم . وليس ذلـك لانهما كانا حافزين لبعض الدول الاوروبية على مشاركة اسبانيا والبرتغال في استعمار آسيا وافريقيا بالأضافـة لأمريكا فحسب ، وانمـا للثروة الزاخرة التي تدفقت ، من بعد ، على اوروبا ابان بعثها ونهضتها فاعانتها مع ما تلاها من اكتشافات واختراعات على ازدهار تلك النهضة .

وما ان دخل القرن الثامن عشر حتى كان الاوروبيون قد عرفوا ، باسفار القبطان كوك البحرية ، السواد الأعظم مما حول القارات من امصار فضلًا عن جميع جزر الكرة الارضية الا ما كان

في الاقطار القطبية وداخل قارات افريقيا واوستراليا وآسيا واميركا الجنوبية. وقد اتجهت انظارهم من بعد شطر تلك المجاهل، وشرعوا يرسلون البعثات لاكتشافها. كل ذلك قصد ان تكون تلك الاكتشافات مصدر ثروة جديدة، مثلما كانت من قبل اكتشافات امريكا وطريق الهند الحديثة.

على انه من الجدير بالذكر ان البعثات هذه التي عكفت الدول على ارسالها الى تلك المجاهل وغيرها لم تعد مقتصرة على الغايات التجارية فحسب، وانما أصبحت ذات مقاصد علمية يقوم بها العلماء في سبيل المعرفة.

ولما توفر المال عند الاوروبيين ابان بعثهم العلمي وبعد افتتاح الأسواق العالمية تضافر العلم والمال على ازدهار صناعاتهم وزراعاتهم. وجاءت المنافسة بينهم عاملاً جديداً للتقدم علمياً واقتصادياً وللتوسع في الاستعمار. فنتج عن كل هذه العوامل مدنية اتت بما لم يستطعه الاوائل. وخلال ذلك كان الصناع والزراع ينتفعون من اختراعات العلماء واكتشافاتهم، ولا سيما من المهندسين والكيمائيين والطبيعيين، بينما كان هؤلاء ومن ورائهم حكومات مشجعة يجهدون انفسهم لادراك المزيد من معرفة احكام الطبيعة وسننها حتى كادوا يتحكمون فيها.

وكانت اعظم الاختراعات فائدة هي القوة البخارية المحركة التي اخترعها وط في القرن الثامن عشر؛ فاستخدموها تباعاً لثلاثة اعمال كبرى: المحركات البخارية، والسفن ١٨٠٨، والطرق الحديدية ١٨٢١.

وقد رافق هذه الاختراعات اكتشافات أخرى في الفلسفة الطبيعية جزيلة الفائدة قامت على الكهربائية المغناطيسية التي كانت اساساً لاكتشاف مبدأ التلغراف الكهربائي ما بين ١٨٣٣و١٨٣٨ والتليفون في صدر القرن التاسع عشر. كما كانت اساساً لاختراع السبكتروسكوب Spectroscope الذي ساعد على معرفة تركيب الاجرام البعيدة من الثوابت والسيارات بواسطة الحل الطيفي.

وهذه الأختراعات التي امنت وسهلت وسائل النقل وسرعة المراسلة والمخاطبة واعانت على استثمار المستعمرات أفضت بالتالي الى بعث جديد في الناحية الاقتصادية قوامه الآلة والاستغناء عن اليد العاملة والارقاء سواء اكان ذلك في اوروبا ام في امريكا. وكانت النتيجة ان زادت في خمسين سنة فقط، ما بين ١٨٣٠ و١٨٨٠، تجارة اوروبا والولايات المتحدة الاميركية من مائة الى ثمانماية.

وكان من عواقب تقدم التجارة والصناعة والزراعة بسبب هذه الاختراعات بالاضافة الى تكاثف الثروات والامكانيات، ان توفرت اسباب الرفاهية في الحياة، وتحسنت الصحة العامة، وازداد عدد سكان الارض حتى لم يعد عالم اليوم يرتعش خيفة من الاوبئة الجارفة، ولا من المجاعة المهلكة؛ وانما يعيش في عالم واحد يتطلع الى مستقبل قريب تزيد فيه أعمار الناس، ويتوفر فيه المزيد من الرخاء. عالم لو عاد اليه ابن القرن الثامن عشر ومن قبله لحسبوا انفسهم موجودين في غير الدنيا، وانهم انما هبطوا في عالم المعجزات.

● أكان الغاء الرق مصدراً للتمدن الحديث أم على العكس ؟

● تلخص معنا بالمقالين السابقين ان الغاء الرق جاء متأخراً عن ازدهار التمدن الحديث ، وان هذا الالغاء كان نتيجة لهذا التمدن لا باعثاً على ازدهاره ، كما توهم الاستاذ سلامه موسى .

ففي المقال الأول اتضح لنا جلياً ان البعث الاوروبي يعود الى القرن الخامس عشر ، وانه ما ان شب التمدن وترعرع حتى شرع اهل العلم ، منذ مطلع القرن السابع عشر ، يدرسون احوال المجتمع ، ويعنون باصلاح نظمه . وكان في جملة الاصلاحات التي عالجوها المساواة بين الافراد والطبقات ، وفي عدادهـــا تحرير المستعبدين .

غير ان مساعي هؤلاء المصلحين ، في صدد الغاء الرق ، لم تبد مثمرة الا بعد الثورة الافرنسية سنة ١٧٨٩ التي اعلنت ان الناس يولدون احراراً . ومع ذلك فان هذه الثورة وان وضعت اساس التحرير الا انها لم تستطع ان تطبق هذا المبدأ عملياً بدليل ان نابليون الأول لم يلبث ان اعاد نظام الرق ، في المستعمرات، الى سيرته الأولى بحجة ان هذه لا يمكن لها ان تعيش بدون الارقاء. وبدليل انه رغم ما اتخذته الدول الاوروبيـة من قرار في مؤتمر فينا سنة ١٨١٥ يقضي بالغاء الرق والنخاسة فان الرق الزراعي ظل سارياً من بعد حتى اقدمت الدول تباعاً على الغائه رسمياً : المانيا والنمسا في سنة ١٨٤٨ ، وروسيا سنة ١٨٦١ ، واميركا سنة ١٨٦٥ . وبذلك اصبح هذا الرق ملغياً في القوانين ، ولكنـــه ظل رغم هذا معمولاً به الى وقت ابعد ، وخصوصاً في روسيا وامريكا .

بل ان مظاهر هذا الرق لا تزال بارزة في بلاد اعظم دولة في العالم : فقد بلغ عدد الزنوج في الولايات المتحدة ثمانية عشر مليوناً من البشر ؛ ومع ذلك فهم لا يزالون يعاملون معاملة الارقاء رغم ما ادركوا من رقي في المجتمع ، وما بلغوا من شغف بالمساواة .
وقد اخبرني في شيكاغو الداعية لمذهب الشيخ احمد القادياني ان عدداً يربو على المليون ، في تلك الولاية ، اعتنقوا الاسلام نتيجة لهذا الارهاق وحباً بالمساواة ، وذلك بمساعي دعاة هذا المذهب .

هذا وفي المقال الثاني الذي استعرضنا فيه مصادر التمدن الحديث اتضح لنا ايضاً انه كان اهم اسباب ازدهاره اكتشاف الأميركتين والهند ، هذا الاكتشاف الذي جعل الاموال تتدفق على اوروبا كالوابل ، وتعينها على تحقيق امانيها العلمية والعمرانية .

وهذا التضافر بين المال والعلم افضى منذ بداية القرن التاسع عشر ، اي قبل استئصال الرق، الى ظهور اختراعات بدأت بالبخار فالكهرباء وانتهت الى الطاقة الذرية ، اختراعات كانت الباعث الحقيقي على ازدهار هذا التمدن .

والذي يستنتج جلياً من هذين المقالين ان الغاء الرق والنخاسة، كما ان ابطال الرق الزراعي كل ذلك جاء متأخراً كثيراً عن اختراع الآلة التي يعود اليها اكبر الفضل في ازدهار التمدن الحديث . كما يستنتج منهما ايضاً ان الغاء الرق لم يكن له ، في كثير ام قليل ، تأثير على نهضة أوروبا وامريكا وتقدمهما . ذلك لان الرق ظل معمولاً به عصر النهضة الكبرى، ثم لم يؤخر تقدمها .

وبعد هذا العرض التاريخي أليس من حقنا ان نتساءل من اين استقى الاستاذ سلامه موسى رأيه حينما قال : « **ان بعث النهضة في اوروبا كان بالغاء الرق الزراعي حين اصبح العامل مأجورا يكلف عمله مقداراً من المال ، فكان اختراع الآلة للاستغناء عنه .** » قال ذلك بينما ان بعث النهضة في اوروبا يعود الى سنة ١٤٥٣ ، وان ازدهار هذه النهضة يرجع الى بداية القرن التاسع عشر حينما كان الرق لا يزال موجوداً في سائر العالم .

اما وقد كشفنا الغطاء عن وجه خطئه في هذه الناحية فانه يطيب لنا ، استكمالاً للبحث ، ان نناقش قوله : «**ان اعظم ما أخر العلم عند العرب هو الرق الذي جمد حضارتهم .**»

أكان وجود الرق عند العرب مصدرا لجمود حضارتهم ؟

● **الرق عند العرب وفي الاسلام .**

● رافقت العبودية حضارات الامم ومشت جنباً الى جنب مع اتساع دولها لان هذا الاتساع وما تبعه من تدفق الثروة وكثرة الاسرى ، من مماليك بيض وعبيد سود ، كان اساساً لهذه العبودية . بل كانت العبودية عامة خلال تلك الازمان الأرستوقراطية التي قسمت الشعوب الى طبقات ، وجعلتها كلها مطايا للملوك والنبلاء ورجال الدين المستبدين .

وكان العرب في الجاهلية ، رغم ديموقراطية البداوة ، يتأثرون بالعوائد المرعية عند جيرانهم المعاصرين ومنها الرق على انواعه . غير انهم ، وقد الفوا الحرية وابوا ان يأخذوا بنظام الطبقات

الذي كان سارياً عند المعاصرين الفرس والروم كانوا يحسنون معاملة الارقاء فيجالسونهم ويواكلونهم ، واذا خاطب العبد مولاه قال ياعمي ، واذا خاطبت الجارية سيدتها قالت يا عمتي . ولا تزال هذه العوائد مرعية عندهم حتى الآن . كما انهم لا يزالون يشعرون بحرمة الحرية الفردية وبطبيعة المساواة حتى اذا خاطب احدهم ملكاً من ملوكهم خاطبه باسمه مباشرة ، وجالسه دون تكلف .

ولما نشأ الاسلام في جزيرة العرب نشأ على هذه المبادىء الفطرية التي تقوم على الحرية والاخوة الانسانية والمساواة بين العناصر والافراد والألوان . وشعاره في ذلك « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . وكم نجد في تاريخ صدر الاسلام من الأمثلة الكثيرة التي تدل على تحررهم ؟ ومنها كتابة عمر بن الخطاب الى عامله في مصر وقد اتاه احد اهل الزمة شاكياً : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً ؟ » .

وهي امثلة تبلغ حد الغرابة بالنسبة لنا حتى يشك الانسان في صحتها ، خصوصاً اذا كان لا يعرف طبيعة العرب وعاداتهم المألوفة في ذلك الحين .

غير ان الاسلام لم يقلب مع ذلك كل نظام الاجتماع المرعيّ وقتئذ رأساً على عقب لأن الطفرة وخيمة العواقب . فكان من الحكمة ، مراعاة للظروف ، الابقاء على مناسك الحج وشعائره وعلى تعدد الزوجات والرق . الا انه وان اقرها على حالها فقد تعهدها بكثير من الاصلاح . واما في ناحية العقائد فكان الانقلاب الذي قام به

الاسلام كاملًا اذ حارب الوثنية والشرك وحوّل جزيرة العرب عنهما الى وحدانية إله لا شريك له (كلما خطر في بالك فهو على خلاف ذلك). هذا فضلًا عن الدعوة الى مـكارم الاخلاق، والنهي عن التقاليد والعادات الوثنية المضرة كالوأد والزنا والربا والمسكر.

وكان في عداد الاصلاح الذي قام به الاسلام في قضية الرق الدعوة الى عتـق الارقاء، والأحسان اليهم ومعاملتهم بالحسنى اسوة بالاهل والجيران:

« واعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجـار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم، ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً. « الاية القرآنية ».

« لا يقل احدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي » (الحديث الشريف).

« ان اخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت ايديكم. فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليلبسه ممـا يلبس. ولا تكلفوهم ما يغلبُهم فان كلفتموهم ما يغلبُهم فاعينوهم » (الحديث الشريف).

كما انه حرم سبي العرب للعرب واسترقاقهم، فقال صاحب الرسالة.

« لا سبأ في الاسلام، ولا رق على عربي في الاسلام. »

هذا وبلغ من حرص الرسول على حسن معاملة الارقاء انه لم

ينسيهم وهو على فراش الموت . فقال وهو آخر ما قال : « الله الله في الصلاة ، والله الله فيما ملكت ايمانكم . ان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم . فما أحببتم فامسكوا ، ومـا كرهتم فبيعوا . ولا تعذبوا خلق الله . والله الله في النساء انهن عوان عندكم ملكتوهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . »

ولما خرج الاسلام الى العالم يبشر بدينه ، وذلك على اساس وحدانية الله ورسالة نبيه ، واتيح له ان يتوفق في فتوحاته حتى بلغ جوار الصين شرقاً والمحيط الاطلنتي غرباً كثر عدد الارقاء في بلاده من اسرى الروم والفرس والترك والبربر والسند وغيرهم. وكان اقبال هؤلاء على اعتناق الأسلام ، بالاضافة الى كثرة عتق الارقاء عملاً بتوصية الشريعة ، مؤدياً لا نتقال الارقاء من طبقة المماليك والعبيد الى مستوى طبقة جديدة : طبقة الموالي المحررة.

وقد انصرفت هذه الطبقة التي اختلط بهـا الدم العربي الى مزاولة الشؤون العامة على اختلافها ، فنجحت اي نجاح ، ولا سيما منذ رعاها الخلفاء العباسيون بعنايتهم كالمنصور والمأمون . فاذا بها في ميادين الثقافة تساهم في حمل راية العلم والادب، وفي مراتب الجندية تبلغ الذروة ، حتى اتيح لها، فيما بعد، ان تنتزع الحكم . وما مماليك مصر والعراق الا طبقة من هؤلاء الأرقاء . هـذا فضلاً عن ان الموالي انكبوا على مزاولة الشؤون الاقتصادية ، فكان منهم الصناع والزراع والتجار . وقـد ذكر احمد امين (فجر الاسلام ج ١ ص ١١٠) ان اكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي يحتكرون الحرف .

هذا وكانت توجد في البلاد التي فتحها العرب طبقة تعرف بطبقة الاقنان هي كالسيرف في اوروبا اذا اقطعت أرضاً، وبيعت الارض لاحد، أو دخلت في ملك احد بالفتح انتقل افرادها، نساء ورجالاً واولاداً ، الى حوزة المالك الجديد . فلم يتعرض لهم المسلمون ، في اول الامر ، خصوصاً وان الاسلام لم يرد فيه نص بشأن هذه الطبقة . ولكن لما استتب الامر للمسلمين واصبحت تقاليدهم مرعية في البلاد التي خضعت لهم تحررت هذه الطبقة تدريجياً من عبوديتها ، وتمتعت بالحرية ذلك لان تقاليد العرب الطبيعية كانت لا تتفق مع الاستعباد ، كما ان الشريعة الاسلامية كانت تدعو الى المساواة ولا تعترف الا بفئتين في بلادها المسلمين واهل الجزية من غير المسلمين . ولعل محمد تقي بهار الملقب بملك الشعراء في فارس، والذي كان وزيراً المعارف عدة مرات ، لعله اراد هذا في التصريح الذي ادلى به للشاعر العربي الكبير احمد الصافي النجفي .

فقد حدثني الاستاذ النجفي انه ابان ما كان في طهران خلال سنوات ١٩٢٠ — ١٩٢٧ جرى بينه وبين هذا الشاعر حديث حول العرب والفرس بمناسبة الحملات التي كان يشنها بعض الفرس على العرب ، وترديدهم بيتين من شعر الفردوسي في هجاء العرب نظمهما بلسان احد الاكاسرة ، وهما :

« بلغ الأمر بالعرب من شرب حليب النوق واكل الضب انهم صاروا يطلبون تاج كسرى ، تفٍ تفٍ عليك ايها الفلك الدوار . تفٍ . »

فقال المرحوم محمد تقي بهار :

« ان العرب وان ازالوا عرشنـــا ، ودوّخوا بلادنا ، ولكنهم ، في الواقع ، حررونا وعلمونا الحرية ، ذلك لانا كنا قبلهم مستعبدين من قبل اكابرنا . »

والى هذا فان العرب لم يتعرضوا ، خلال عهد الفتح الاسلامي ، للمزارعين واراضيهم ، سواء اكانت تلـــك المزارع وقعت في ايديهم صلحاً ام حرباً . ولما سولت النفس لبعضهم ان يجعل تلك الاراضي في جملة الغنائم ابى عليهم الخليفة عمر بن الخطاب وكتب الى سعد بن ابي وقاص فاتح العراق :

« اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر فيه ان الناس سألوك ان تقسم الارض بينهم مغانمهم وما افاء الله عليهم . فاذا اتاك كتابي هذا فانظر ما اجلب الناس عليك به من العسكر من كراع ومال فاقسمه بين من حضر . واترك الارضين والانهار بعمالها الخ »

ثم لما اقبل المسلمون على مزاولة الشؤون الاقتصادية بانفسهم ، ولا سيما في عهد العباسيين ، استعانوا عليها ، كما استعانوا على شؤون الدولة ، باهل البلاد وبالموالي المحرّرين ، فأصبح للزراعة شأن عظيم ، ولا سيما في سواد العراق وخراسان ومصر ، فضلاً عن اسبانيا .

على انّا وان كنا لا ننكر ان بعض مـــلوك العرب جروا مجرى من سلفهم وعاصرهم من الامم باقطاع الاقطاعات الى الامراء والعمال والمقربين ، ولكنا لم نر في التاريخ ان هـذه الاقطاعات كانت تقوم على اساس تملك صاحب الاقطاع المزارع مع فلاحيها

مثل ما كان يقع في اوروبا . وهذا لبنان الذي مارس نظام الاقطاع اكثر من سواه لم يشهد يوماً ما كان فيه الفلاحون ملكاً حلالاً لصاحب الاقطاع ، وان عاش هؤلاء في ظل الاقطاع اتباعاً لأسيادهم .

لذلك كله فان الاستاذ سلامه موسى لم يكن على صواب حينما ذهب الى القول :

« وكلاهما الرق بالنخاسة والرق الاقطاعي في الزراعة قد عمّ الأمم العربية اكثر من الف سنة فجمدها وحال دون اي ارتقاء علمي . »

هل صحيح ان اكتشافات العرب العلمية كانت لخدمة الطبقة الحاكمة ؟

• لقد تجنى ايضاً الاستاذ سلامه موسى على العرب حينما قال :

• « كل ما نجد من كشوف علمية عند العرب يرجع الى تلك الفنون التي تتصل بالطبقة الحاكمة مثل الخزف والحرير والورق فان مصانعها انشئت في العالم العربي ، ولكن للطبقة الحاكمة ، فصنعت المزهرية المزينة ، ولم يصنع الطبق للطعام . »

ويبدو ان هذه النظرية المغلوطة هي رأي مقرر عند الاستاذ حيال كل شيء عربي حتى ذهب الى القول في بحث جديد بأن «الادب المصري لم يكن ادباً شعبياً » بمعنى ان العقاد وطه حسين والمازني وهيكل والحكيم وشوقي والجارم كل هؤلاء ليسوا ادباء شعبيين ، ولكنهم بطانة ملوكية ، كما ذهب من قبل في بعض كتاباته السابقة الى القول ان كل ثورة تجدّدية بمصر الحديثة انما كانت

من عمل الخديويين . وهذه آراء حملت ادباء مصر على تفنيدها ، وكانت حافزة للاستاذ عباس محمود العقاد على الرد عليها قائلاً : « ان صاحبنا لا يعنيها ، ولا يلبث ان يتحول عنها اذا تحولت دواعيها. ولا اخاله يفهم معنى ما يقول ساعة ما يقوله، لان بواعث القول عنده غير الفهم وغير التفكير وغير الدراسة » .

والواقع ان الكشوف العلمية عند العرب كما انها لم تقتصر على الفنون التي خصّها بالذكر فهي كانت نتيجة تحقيق علمي لوجه العلم ؛ وكذلك فان ازدهار الصنائع المختلفة عندهم، انما جاء نتيجة لرواجها في الداخل والخارج .

فهم كانوا تجاراً تشق قوافلهم وسفنهم السبل البرية والبحرية من الهند والصين الى اوروبا ، ومن المحيط الاطلنتي الى اعالي المحيط الهادي ؛ وكانت مصانعهم تعمل للتصدير ، سواء ما كان منها لآسيا وافريقيا ، ام ما كان منها لاسبانيا . وحسب الاستاذ سلامه موسى الاطلاع على تاريخهم الاقتصادي ليبدل رأيه فيهم . وحسبه ان يقرأ اقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ، ونوهت بالصناعات منذ صدر نهضتهم التي كانوا يتبادلونها مع تلك البلاد النائية ليقدر لهم نشاطهم الاقتصادي. وهذا كتاب سلسلة التواريخ لسليمان التاجر وابي زيد حسن من ابناء القرن الثالث للهجرة ، وهو من اقدم الكتب التي استعرضت هذه العلاقات ، كفيل بان يرده الى الحظيرة، ويحمله على الاعتقاد ، مع سائر العالم ، ان نتاجهم الصناعي كان مما يصلح للتجارة على ما فيه من تحف يقبل عليها الخواص من الناس.

والدليل على ذلك يبدو فيما ادركته الصناعات العربية من رواج حتى اطلق الاوروبيون اسماء بعضها على المـــدن التي اشتهرت بتصديرها : فالدامسكوس نسبة لدمشق ، والموصلين نسبة للموصل، والكردني (صناعة الجلود) نسبة لقرطبة ،والكوفيات نسبة للكوفة ، وهلم جرا .

وهم بالاضافة الى كل ذلك لم يتقنوا التجارة عملياً فحسب ، بل جعلوا منها علماً لم يسبقهم اليه أحد؛ فكانوا، كما قال جرجي زيدان، « خير من كتب في التجارة وفي الاقتصاد السياسي . » وقد دلل على ذلك بقوله : « وبين ايدينا نسخة من كتاب الاشـــارة الى محاسن التجارة للشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من اهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه احد اليها ، وابحـــاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والاعراض ، وتحقيق اثمان الاشياء ما لا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر . »

واذا ما صح ان العرب لم يتقنوا صنع الطباق ، وانما اتقنوا القوارير (المزهريات) فهذا لا يصح ان يكون دليلًا على أنهم انما كانوا يتوخون من صناعاتهم ان تكون للطبقة الحاكمة . ولعل انصرافهم عن عمل المواعين يردّ الى كثرة ما كان بين ايديهم منها من مصنوعات الصين الفاخرة . وحتى في العصر الحاضر نرى بعض الأمم تهمل بعض الاصناف وتتقن غيرها ؛ ولا يأتي هذا الاهمال في ناحية من النواحي الصناعية برهانا على انها مقصرة في الصناعة على وجه عام .

نقول هذا على سبيل الافتراض بينما ان العرب خلّفوا بين انتاجاتهم الخزفية انواعاً من الطباق المختلفة التي نراها في كل المتاحف. وآخر ما رأيته من هذا القبيل هي صحون كثيرة في متحف دمشق . ولعل جمال هذه الطباق هو الذي اوهم الاستاذ سلامه موسى بانها صنعت للملوك فحسب .

وقد اشتهرت مالقه في اسبانيا بمعاملها الزجاجيـــة الفاخرة وفخارها النفيس اشاد بها صاحب نفح الطيب (٨٧٣ج٢) وروى «انه كان فيها معامل للزجاج الغريب وفخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص » ولعل الرواج على هذه الاواني هو ما حمل حكيم الاندلس العباس بن فرناس على استنباط صناعة الزجاج من الحجارة، وهو كان اول من قام بهذا الاختراع، كما كان اول من حاول التحليق في الهواء .

فترى لو كانت هذه الصناعات النفيسة انما تعمل من اجل الطبقة الحاكمة فقط فهل كانت تتعدد معاملها هناك وتكثر منتوجاتها ، على ما كان في غير مالقة من مصانع أخرى من هذه الانواع وغيرها تنافسها في جمال الصنعة واتقانها ؛ كما تنافسها في كثرة الانتاج ؟

● هل عزف العرب حقاً عن العقل والمنطق ؟

● لعل اشـــد ما تجنى به الاستـــاذ سلامه موسى على العرب ذهابه الى ان في جملة الاسباب التي اخرت العلم عنـدهم وجمدته عزوفهم عن العقل والمنطق واتّباع كثرتهم الغزالي الذي قال عنه انه « التزم العقيدة حتى انه حرم الجغرافيا لا لانها كاذبة ،

وانما لانها تنهض على العقل والمنطق . »

وقبل ان نناقش الاستاذ في هذه التهمة التي وجهها للعرب نود ان نذكّره بان العقيدة الاسلامية التي اعتنقها الغزالي واستحق من اجل ذلك توجيه النقد اليه ليست هي ضد هذا العقل والمنطق.

فالأسلام لم يقتصر على حث اتباعه على طلب العلم ، بل جعله في مصاف الفرائض حيث قال رسوله « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . » ورفع من شأن العلم الى حد تفضيله اياه على العبادة. فجاء في الحديث « ان مجلس علم خير من عبادة سبعين سنة . » هذا فضلاً عن انه جعل الحكمة مشاعاً بين الناس مسلمهم وغير مسلمهم ، ووصف المؤمن بانه من طلابها فجاء في القول المأثور « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها » .

ونود ايضاً ان نعدّل رأي الاستاذ سلامة في الغزالي هذا الامام الذي لم يلقب بحجة الاسلام إلاّ لما اشتهر به من التدقيق والتحقيق. فهو كان من اشد الناس حرصاً على ادراك الحقائق ، كما كان في طليعة الباحثين المعتمدين على العقل والمنطق .

والمعروف عنه انه كان شديد الشك قبل الايمان. وقد وصف نفسه ابان الفترة التي كان يتأرجح فيها بين شك وايمان فقال :

« فأعضل هذا الداء ودام تقريباً من شهرين انا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال . »

والى هذا فكان الغزالي واسع الصدر حيال العلوم الطبيعية والفلسفة ، وبلغ منه ذلك حداً جعله يثور على زملائه المتكلمين الذين تنكروا لعلوم الفلاسفة فقال :

« ولقد عظم على الدين جنـــاية من ظن ان الاسلام يُنصر بانكار هذه العلوم . وليس في الشرع تعرض لهذه العـلوم بنفي ولا اثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية . »

على اني قرأت حادثة وقعت لرجل مع الغزالي هي دليـل ، في جملة الادلة ، على ان هذا الامام مـــا آمن بشيء الا بعد ان تطرق اليه الشك فيه ، وعالجه على ضوء العقل والمنطق . وخلاصتها ان هذا الامام كان اذا خرج من المسجد بعد القاء درسه المعتـاد يفسح النـاس لموكبه الطريق للمرور . وفي يوم من الايام خرج الغزالي ، ولكن رجلاً غريباً ظل في مكانه ولم يحد . ولمـا انـّبه احد تلامذة الامام قال :

« ومن هو الغزالي ؟ »

فقال المؤنب : « هو الامام الذي جاء بألف دليل على وجود الله ووحدانيته » .

فأجاب الغريب : « لو لم يساور الغزالي الف شك في ذلك لما اتى بألف دليل . »

ولما نقل هذا الحوار الى الامام الغزالي اكد صحة مـا قاله الغريب وقرّبه اليه .

هذا وقد ذكر الشيخ يوسف بن طملوس الاندلسي المتوفي سنة ٦٢٠ هـ في مخطوطة له موجودة في مكتبة الاسكوريال باسبانيا تحت رقم ٦٤٩ ، وذلك في معرض كلامه عن اثر الشرق العربي على ثقافة الاندلس ، ذكر انه لما دخلت فلسفة كل من الغزالي والفارابي الى بلاده قابلها الجامدون بالنفور ، واتهموا مريديهـا

بالزندقة والمروق ، وكفروا من كان يحملها او يدرسها او يتناقلها . ثم خص بالذكر الغزالي فروى ان كتبه احرقت وطورد مشايعوها ومطالعوها (١). وابن طملوس كان من اكابر العلماء والاطباء في الاندلس .

لذلك نحن نسأل الاستاذ سلامه موسى أمن المعقول ان يكون قد حرم الجغرافيا من كان هذا شأنه عند الناس ، ومن كان حرصه على الحقائق يبلغ به درجة الشك قبل الايمان ، ومن كان يحمل على اهل الكلام في زمانه الذين تنكروا للفلسفة واهلها ؟

ونسأله ايضاً عن مقدار صحة زعمه « انه كان مما جمد العلم عند العرب اتباع كثرتهم للغزالي » .

وحسبي في النقاش مع الاستاذ سلامه في موضوع « ان الذي اخر العلم وجمده في عصر العرب هو عزوفهم عن العقل والمنطق » ان اوجه اليه ، والى من قد يقول قوله الاستفهام التالي . ولعل الجواب يغني عن التبسط في النقاش .

ألم يأتكم ، ايها الناس ، نبأ الفارابي وابن سينا وابن الطفيل وابن رشد وابن خلدون وابن النظام وابي هاشم البصري والجاحظ وابن الهيثم والبيروني وكثيرين غيرهم من علماء الحضارة العربية الذين اشتهروا بابحاثهم العلمية في معزل عن الدين ، واعتمدوا على العقل والدليل والمنطق ؟

---

(١) مجلة العرفان (م ٤٤ ص ٢٩٥) من مقال للسيد محسن جمال الدين الطالب الآن بجامعة برشلونه .

فابن النظام كان يعتمد على الشك في بحوثه وتجاربه ، وكان العقل وحده هو الحكم بينه وبين مـــا يعترضه من شكوك حتى شبهه احد الاجانب بالعلماء الطبيعيين في التمدن الحديث .

وابن الجاحظ سلك على غرار ابن النظام في التحقيق العقلي وفي اجتناب التسليم قبل ايمان العقل . وهذا ما كان حافزا له على مهاجمة بعض رجال الحديث لانهم « على رأيه » « جماعون لا يستخدمون عقولهم للتمييز بين الصحيح والباطل »

وابن الهيثم وضع الطريقة العلمية الحديثة القائمة على الاستقراء والقياس والاعتماد على التجربة والمشاهدة فـاعترف بعض المنصفين بانه سبق بيكون في طريقته الاستقرائية اثناء بحوثه وكشوفـه الضوئية . وقالت عنه دائرة المعارف البريطانيـة «كان ابن الهيثم اول مكتشف ظهر في علم البصريات» .

والشيخ الرئيس ابن سينا الذي عكف على دراسة اسرار قوس قزح، لم يكتف بالاعتماد في ذلك على عقله وعلمه، بل رجع الى تحقيقات من سلفه ، فآمن ببعض كشوفهم ، وشك في صحة بعضها : ولكن تواضعه ساقه لان يعلن :

«واما القوس فقد حصلت عنـدي من امره احـوال وبقيت احوال لم احققها بعد. ولا يقنعني ما يقوله اصحابنا المشاؤون فيها (الاغريق) . واما الالوان فلم يتصل بي ايضاً امرها بالحقيقة ، ولا عرفت سببها ، ولا اقتنعت بما يقولون؛ فانه كذب كله وسخف» .

وابو اسحاق الكندي فيلسوف العرب الاول ، الذي قال سيريليو ان مؤلفاته كانت مطبوعة بطابع العبقرية العجيبة ، اشتهر

باعتماده على العقل والمنطق ، وهو مع ذلك كان يعتقد ان الحقيقة كسب الاجيال ، ويدعو الى التقاطها حيث وجدت ؛ وكان يقول :

« وينبغي لنا ان لا نستحيي من استحسان الحق واقتناء الحق من اين اتى ، وان أتى من الاجناس القاصية عنا والامم المباينة لنا . فانه لا شيء اولى بطالب الحق من الحق نفسه ».

وابن رشد دعا في رسائله الى القياس العقلي وجعله في مرتبة واحدة شرعاً مع القياس الفقهي فقال :

« تقرر انه يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وانواعه ، كما يجب في القياس الفقهي . فبين انه كان لم يتقدم احد ممن قبلنا بفحص عن القياس العقلي وانواعه انه يجب علينا ان نبتدىء بالفحص عنه ، وان يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة . »

وخلص من هذا الى حد الاقتناع بما يلي : « فقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع . »

والبيروني كان اعتماده الوحيد على العقل والمنطق في العلوم الطبيعية والفلكية . فوصفه لذلك شاو الالماني بانه « اعظم عقلية عرفها التاريخ » .

فقوم هذا شأنهم في الاعتماد على العقل والمنطق ، وهذا مقدار حرصهم على تراث اسلافهم ، وهذه بعض شهادات اهل الفضل بهم أيصح القول فيهم انهم كانوا بعيدين عن التحقيق العلمي ، وان العلم كان متأخراً في عصرهم لاهمالهم العقل والمنطق ، وان عهدهم كان ، في الجملة ، عهد تجميد للحضارة والتمدن ؟

افتونا يا منصفين .

الفصل السادس

الشعوبية تتجاهل وجود مدنية عربية او اسلامية

نقاش مع الدكتور امير بقطر

كان من نتيجة وثبة العرب في عهد الاسلام قيام مدنية زاهرة اختلف المؤرخون في وصفها ، فاسماها بعضهم عربية لانها جاءت في اعقاب وثبتهم هذه ، وترعرعت في ظل حكمهم ، واستمدت قوتها من خلفائهم ، واعتمدت على لغتهم ؛ واسماها آخرون اسلامية على اعتبار انها ثمرة جهود المسلمين المتضافرة على اختلاف عناصرهم.

ولسنا نحاول هنا الترجيح بين الفريقين ، وانما نحاول الرد على الذين تعمدوا انكار وجود هذه المدنية لغايات شعوبية ، بالاضافة الى تعمدهم التنقيص من شأن مواهب العرب ومآثرهم .

فلقد قرأت مقالا في احدى المجلات العربية عني فيه كاتبه ، وهو من القائلين بالفرعونية في مصر ، باستعراض تطور التمدن العالمي . وقد جاء فيه : «**لقد مر بالحضارة الانسانية ثلاث مراحل. المرحلة الاولى عصر الانهار التي زهت فيها المدنية وترعرعت على ضفاف الانهر الكبرى في العالم القديم — الفرات ودجلة**

والنيل العظيم . والمرحلة الثانيـة عصر البحر المتوسط ، وهي الفترة التي ازدهرت فيها الحضارة الاغريقية والرومانيـة ، اي في سنة ٨٠٠ قبل الميلاد الى سنة ٤٠٠ بعده .

« ثم استولى على الحضارة الانسانية سبات عميق حينما ارخت عليها العصور المظلمة سدولها منذ سنة ٤٠٠ بعد الميلاد تقريباً الى سنة ١٣٠٠ ب م . ثم نهضت الحضارة من هذا السبات الطويل فجاءت المرحلة الثالثة ، وهي عصر الحضارة الاطلنطية التي تلالأت انوارها على جانبي المحيط الاطلسي منذ ١٣٠٠ ب م الى عصرنا الحاضر حتى ابهرت الابصار واذهلت العقول . »

وكاتب المقال ، الدكتور امير بقطر ، لم يكتف بانكار وجود المدنية العربية الاسلامية فحسب ، تلك المدنية التي كانت حلقة متينة في سلسلة الحضارات العالمية فوصلت بين التمدن القديم والحديث ، ولم يقتصر على ما زعم الاستاذ سلامه موسى بان عصر العرب كان عصر تجميد للحضارة، بل ذهب الى ابعد من ذلك فزج عصر العرب بين العصور المظلمة حيث استولى ، على قوله ، سبات عميق على العالم ابتداء من سنة ٤٠٠ م الى سنة ١٣٠٠ م »

وليس هذا الافتراء على العرب بجديد ، وانما يرجع الى صدر التمدن الحديث ابان ما كان التعصب الديني مستفحلاً في اعقاب الحروب الصليبيـة التي شنها الغربيون على كل من الشرق الأدنى والاندلس . فكان هذا التعصب حافزاً يومذاك لكتّاب الغرب على تجاهل كل حسنة للعرب والمسلمين، كما كان مصدراً لافتراءات وحملات على دينهم ونبيّهم .

وظل التحامل هذا فاشيا بقوة الاستمرار حتى القرن الثامن عشر على رغم ان هذا القرن كان موسوماً في اوروبا بعصر الألحاد والكفر . وكان يحمل علمه امثال كيمون وبراديه وشنكتون أرفنج مع فولتير الذي كان يعتبر زعيم الفكر الحر. فاذا قرأت التمثيلية التي الفها هذا الأخير وقدمها الى البابا بنوا الرابع عشر وجدتها محشوة بقواذع الهجاء للاسلام ورسوله . وحسبك ان تقرأ كلمة التقديم التي صدّر بها هذه التمثيلية لتحيط علماً بما ورد فيها من تحامل . قال :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع هو من اشد الناس اعجابا بالفضيلة اذ تجرأ فقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية . »

وكأن فولتير كان يتوخى بهذا التحامل تخفيف وطأة ثورة الكنيسة عليه والناس بسبب الحاده .

ولكن القرن الثامن عشر كان ، مع ذلك ، عصر انتقال من عهد التعصب الزميم الى عهد السماحة والتناصف لأن ما حدث فيه من تحرر فكري أتم، ورقيّ علمي اوفى، كان حافزا للمنصفين على تبديل ارائهم في الاسلام والعرب . فاذا بنا نرى بعض علمائه يتطوعون تباعاً للدفاع عن المسلمين والعرب . وكان في طليعتهم سيمون أكلي الانكليزي الذي عاش في بداية ذلك القرن . فقد سخر بكتابه «تاريخ المسلمين» من اولئك المغرضين الذين تعمدوا اهمال ما اسماه « ذلك الجزء من تاريخ المجد البشري » ، وهم فضلاً عن ذلك ارتكبوا جريمة تشويهه بتأثير التعصب . وانتهى الى

القول : «اني اعتزم تكريس حياتي لمحو ذلك العدوان الكبير الذي وجه عمدا للعرب ولحضارتهم . »

وجرى مجرى أكلي بعد ذلك علماء آخرون من شتى الأمم؛ فمنهم من دافع عن حضارة العرب ، ومنهم من اخذ على عاتقه الدفاع عن الاسلام ورسوله ، نذكر منهم : ريلاند الهولاندي وكانييه ولولانفليه الافرنسيين ، وغوتيه الشاعر الاعظم الالماني . وتبعهم كثيرون ، لا يحصى عددهم ، كان من اشهرهم دريبر وريمون لوردج وسديو ولامارتين وكارليل وتولستوي وكوستاف لوبون واستورس وبرنارد شو ويونغ .

وكانت الظروف قد اصبحت مؤآتية لهذا الانصاف ، ذلك لان الاستشراق فضلاً عن انه كشف الحقائق للعلماء فان حرية الفكر ، التي عاصرت هذا الاستشراق ، افسحت المجال للعلماء للادلاء بما يعتقدون . وقد بدأ الدفاع عن العرب والمسلمين في اوروبا بانصاف الرسول العربي ، وبالرد على الحملات الشعواء التي شنها عليه المغرضون . فاذا قرأت لامارتين في كتابه « تاريخ تركيا » تشعر بأنه كان يتألم كمسلم لما كاله اولئك المغرضون من الشتائم والمثالب للرسول . وبعد ان يشيد به يقول : « ان محمداً كان فيلسوفاً وداعياً الى الهدى ومشرعاً . وضع عقائد معقولة ، وعبادة خالية من الصور ، وهو فضلاً عن كونه مصدراً لقيام عشرين دولة دنيوية ، فقد انشأ دولة واحدة دينية . ذلكم هو محمد . ومن كان اعظم منه بالنسبة للمقاييس التي يقاس بها عظماء البشر ؟ »

واذا تناولت كتاب الابطال لتوماس كارليل وجدته يرى من اكبر العار في عصره المتمدن الاصغاء الى الزعم القائل بان الاسلام كذب ، وان محمداً خداع مزور ، وينتهي الى القول : « فلقد آن لنا ان نحارب ما يشاع من مثل هـذه الافتراءات السخيفة المخجلة . »

اما برنارد شو فقد ذهب الى أبعـد من ذلك في الدفاع عن الاسلام حتى عمد الى التنبؤ بمستقبله وقال : « لا بد ان تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية قبل نهاية هذا القرن . ولو ان محمداً بعث في هذا العصر ، وكان له الأمر المطاع ، لنجح تماماً في حل جميـع المشاكل العالمية ، وقاد الناس الى السعادة والسلام »

ثم تعدى دفاع علماء الغرب الناحية الدينية ، وانكب بعضهم على الدفاع عن المدنية العربية ، والاشادة بما كان لها من الأثر في نقل تراث الأقدمين والمحافظة عليه واصلاحه والزيادة عليه . وقد اوردنا من قبل في بعض المناسبات شيئاً من اقوالهم . ولذلك نكتفي بذكر ما جاء في كتاب « اثر الاسلام في مدنية الغرب » للمستر يونغ الاستاذ في جامعـة تورنتو بكندا حيث قال : « ان تراث المدنية الاسلامية يرجع الى الف سنة . وقد كان له اشد الأثر على حضارة الغرب : ففي بلاطات بغداد وبالرمو وقرطبة وجد علماء اوروبا ، في القرون الوسطى ، كنزاً ثميناً من العلوم يشتمل على تراث اليونان العلمي الذي احتضنه العرب ، ذلك التراث الذي اضافوا اليه ما اضافوا ، وظلوا سدنته الى ان خرجت اوروبا من ظلمات القرون الوسطى ، واقبلت عليه وشرعت تنتفع به . »

ولكن رغم هذا التحول الكبير الذي حدث عند الغربيين في صدد انصاف الاسلام والعروبة فان فئة من الشعوبيين تعيش في البلاد العربية ظلت تتبّنى في القرن العشرين مزاعم اهل القرون الوسطى ، فتبخس العرب والمسلمين فضلهم ، وتتنقص مآتيهم . بل ان بعض هؤلاء استرسلوا في الغلو الى ابعد من هـذا الحد فأنكروا وجود أية مدنيـة لهم . ومنهم الدكتور امير بقطر الذي حمله حرصه على تأييد الفرعونية على القول بان القرون التي أتت في الفترة بين التمدن الاغريقي الروماني وبين التمدن الحديث كانت قروناً مظلمة استسلمت فيهـا الحضارة الى سبات عميق .

وهذا الزعم ولئن كان لا يحتـاج الى رد ، ولكنه اعاد الى ذاكرتي جولة قمت بها في مكتبة الكونكرس بواشنطن اثناء زيارتي للاميركتين الشمالية والوسطى حيث انتهى بي المطاف هناك الى سدرة عالية تواجه قبة ذلك الصرح العظيم . اعاد الى ذاكرتي سقف تلك القبة المزدان برسوم جميلة يرمز كل واحـد منها الى مدنية من المدنيات السالفة وما شاهدت بين هذه الرسوم من صورة رجل قوي مندفع الى الامام اندفاع النمر يكاد الشرر يشع من عينيه . وما ان تفرست يومئذ فيما كتب تحت الصورة حتى علمت أنها تمثل محمداً رسول العرب ، وترمز بالتالي الى الحضارة التي انشأها قومه.

وعندما ذكرت هذا تساءلت عما اذا كان ارهاط المهندسين العلماء الذين وضعوا تصاميم زينة الكونكرس واختاروا ان تكون الحضارة العربية ممثلة في مجموعة الحضارات العالمية الشهيرة

كانوا على صواب ، ام انهم كانوا على ضلال ، والصواب هو ما شاء الدكتور امير بقطر ان يقرره ؟

وساقتني هذه الذكرى ايضاً الى قاعة جامعة برشلونة باسبانيا. فرأيت فيما رأيت التمثال الرائع لابن رشد الفيلسوف الاندلسي من عمل النحات الاسباني V. Vallemit . ثم ساقتني كرة اخرى الى موسكو فاذا بي امام رسم كبير لابن سينا مرفوع في الكرملين بين رسوم عظماء العالم . فقلت بنفسي : ان كانت امريكا قد وقعت في الخطأ حينما زجت حضارة العرب الى جانب حضارات مصر والاغريق والرومان والصين والهند فما بال الاسبان الذين كانوا في الامس خصوم العرب ، وما بال الروس الذين قضوا حياتهم الماضية في محاربة آل عثمان يقيم كل منهم التماثيل والرسوم للعرب اعترافاً بفضلهم على المدنية العالمية ؟ اترى كان كل هؤلاء عمي البصائر والقلوب ، وكان الدكتور امير بقطر على حق هو وامثاله الذين اذا وقفوا يستعرضون مواكب العالم في التاريخ لا يرون اثراً للعرب والمسلمين الا في عصور الظلمة حينما كان العالم في سبات عميق . ؟

وعند ذلك كان لا بد لي من استفتاء التاريخ ، لاطمئنان القلوب ، فاذا بالتاريخ يقول : ان العرب لم ينشئوا حضارة راقية كانت صلة الوصل بين المدنيات السابقة وبين التمدن الحديث فحسب ، بل استطاعوا ، زيادة على ذلك ، ان يطبعوا العالم بطابعهم خلال القرون الثلاثة التي تبتدىء بصدر القرن الثامن عشر للميلاد وتنتهي بنهاية القرن العاشر . وكانوا خلال ذلك ،

كما كانوا من بعد الى حين غير بعيد ، اساتذة الامم .

بلى وبينما كانت جامعات قرطبة وفاس والقيروان بالمغرب ، وجامعات المستنصرية والنظامية ببغداد والازهر بمصر ومدارس دمشق وطرابلس تعج عجيجاً بطلاب يتسابقون اليهـــا من كل صوب لتلقي العلوم والآداب والفنون ، كانت مكتبات قرطبة واشبيلية وصقلية وبالرمو ودار الحكمة بالقاهرة وآل عمـــار بطرابلس فضلاً عن سابور وبخارى كانت تزدحم بالمؤلفين والمطالعين من كل امة ، وهم يحجون اليها من كل فج عميق ، وكلهم طالب قبس من نور يدّخره لنفسه ، ام يعده لقومه .

واذا بالتاريخ يقول ايضاً : ان العرب الذين خفقت راياتهم مدة طويلة من شواطىء المحيط الأطلسي الى حدود الصين وسيبريا فدخلت في حوزتهم تركستان ومغوليا وباكستان بالاضافة الى الشرقين الأدنى والاوسط ، والذين ارتفعت اعلامهم من اواسط افريقيا الى جبال البيرانس Pyrenées ، بما في ذلك بلاد الواندال والويزيكوت باسبانيا ، وامصار الرومان بافريقية ، ان العرب هؤلاء لم يقتصر عملهم على تهديم الحواجز وعلى التقريب بين الأمم ، بل جمعوا بين فلسفة الأغريق وتشريع الرومان وحكمة الهند ، وثقافة فارس وعلوم السريان ، كما استعانوا بالصين والهنـــد والبيزنطيين المعاصرين لهم ، وصاغوا من كل ذلك تاجاً رائعاً زينوا به هامة الحضارة العالمية .

وهم الى ذلك لم يكونوا نقالين وجماعين ومعرّبين فحسب ، بل ادخلوا انواعاً شتى من التحسين والأصلاح على التمدن الى جانب

ما ابتكروه بانفسهم ، وما اخترعوه ، وما وضعوه ، فادركوا بكل ذلك مرتبة عالية ، واخرجوا للناس حضارة ، تنطق بلسانهم وتحمل طابعهم ، حضارة كانت من خير المدنيات بالنسبة لمن سبقهم.

اما وانا قد دللنا على كل ذلك في بعض فصول هذا الكتاب فاننا نكتفي هنا بالتنويه بكشوفهم العلمية التي لم يسبقهم اليها احد من المتقدمين .

ففي الفلك كان علم المثلثات يدرس عند الأقدمين على اعتبار انه جزء من علم الفلك . ولكن نصير الدين الطوسي عالج هذا الموضوع في كتابه المسمى « شكل الاقطاع » على اساس ان علم المثلثات هو علم مستقل ، وليس مقدمة لعلم الفلك . واستحدث البتاني خطوط المثلثات . هذا فضلاً عن ان العرب وضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وادخلوا تحسينات كثيرة على آلات الاختبار ، كآلات الرصد والزيج ، ودققوا الاقيسة الحسابية وصححوها ، وذلك ابتداء من محمد الخوارزمي في خلافة المأمون الى البتاني فالبيروني فالمجريطي . وكان كل واحد من هؤلاء يضع زيجاً جديداً يتمم فيه ما فات سلفه مستنداً في ذلك الى تقدم اعمال الرصد ، والى ما انتهى اليه حساب الاقيسة من ضبط في عصره .

واكتشفوا بعض الكواكب ولا تزال تحمل اسماء عربية ، واخترعوا الالات الفلكية لقياس الوقت بالساعات المنوعة ، وكانوا السباقين الى استعمال الساعات ذات الرقاص .

وفي الطب وضعوا دراسات على اساليب غير مسبوقة ارّخوا فيها الطب والاطباء ، ومن اشهرها « اخبار العلماء » للقفطي و « عيون

الانباء » لابن ابي اصيبعة ، و«طبقات الاطباء» لابن جليجل ؛ كما وضعوا كتباً خاصة في الادوية، وهي التي تسمى بـ«الاقرابازينات». وكذلك في البيمارستنات فهم كانوا اول من انشأ مدارس الصيدلة، ودكاكين لبيع الادوية ، كما كانوا اول من استعمل بعض العقاقير في الطب ، ومنها مـــا لا يزال يستعمل حتى الان ، واول من ركّب بعض الأدوية والمستحضرات من المعـــادن، واول من استخدم بعض المستعدنات في طبـابة العيون ابتداء من يوحنا بن ماسويه الى حنين ابن اسحاق . ويعتبر الخوازمي اول من استعمل كلمة «صم» للتعريف بالعدد التي لا جذر لهـــا ، واول مبتكر للغورتيمان .

وفي الكيمياء ، لا سيما فيما يتصـل باساليب التقطير والتبخير والتصعيد والبلورة وصهر المعادن ودبـغ الجـلود وتصنيعها ، أتوا بالمبتكرات : فاخترعوا الأمبيق وادوات التصفية والتبخير، ولا يزال اسم الكحول Alcool عربيـاً حتى الآن . واذا ذُكرت الكيمياء فـــلا يزال يذكر معها اسم جابر بن حيّان الذي يعتبر كأب لهذا المعلم .

وفي الفيزيا والميكانيكيا كشفوا عن اسرار احـكام الضوء ، وقواعد الموازين ، ومبادىء الثقـــل النوعي ، وقرروا نظرية سقوط الاجسام ونظرية رفع الاثقال . هذا فضلاً عما كان لهم من رأي قويم في طبيعة الجاذبية ، وما كان لهم في علم البصريات من اصلاح اخطاء اليونان. وكان لكل من ابن الهيثم المتوفي سنة ٤٣٠هـ = ١٠٣٨م ، الذي اخترع العدسة المكبرة المحدبة من الطرفين لتقريب

الابعاد، ولابي الفتح الخازن مخترع الميزان الذي يعدّ من عجائب الميكانيك، كان لهما القدح المعلى في هذه الكشوف مما حمل درابر على ان يقول : «لقد قرر العرب في الميكانيكيا نواميس سقوط الاجسام وطبيعة الجاذبية، وعللوا القوات الميكانيكية، واصطنعوا في الموائع وموازنتها الجداول الاولية للجاذبية النوعية ، وبحثوا في عوم الاجسام وغرقها في الماء ، واثبتوا اننا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب . »

وفي علم الرياضيات ولا سيما في معرفة التكامل والتفاضل كانوا اسبق من ديكارت وبيلر في حل المعادلات التكعيبية بوساطة قطوع المخروط ، كما انهم كانوا اسبق من سواهما في وضع قانون لمجموع الاعداد الطبيعية المرفوعة الى القوة الرابعة . هذا الى انهم قاموا بدراسات مبتكرة في علم الجبر ووضعوا لهذا العلم الاصول حتى اصبح ينسب اليهم ، وحتى بات يحمل اسمهم حتى الآن في اللغات الاجنبية . وقد كان ذلك موضع الاعجاب عند اخصائيي التمدن الحديث حتى قال كاجوري : «ان العقل ليدهش حين يرى مآثر العرب في علم الجبر .. وان حل المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط لمن اعظم الاعمال التي قام بها العرب . »

وفي التاريخ كانوا اول من اعتبر هذا العلم علماً مستقلاً ، وكتبوا في فلسفته ، واذا ذكر التاريخ يذكر معه ابن خلدون الذي قال عنه فلنت « انه واضع علم التاريخ » .

وفي الجغرافيا كان الرقم الذي توصل اليه العرب في قياس الدرجة الارضية اقرب الى الصحة من الارقام التي حددها اليونان :

فالزرقالي من جغرافيي عرب اسبانيا اعطانا طولا صحيحاً للبحر المتوسط ، والمراكشي قاس بنفسه ١٣٥ مكاناً من الارض قياسا دقيقاً . وكان ذلك حافزاً لكمبل على ابداء الاعجاب به ، وعلى التنويه بما ادركه فقال : « ان هذا العمل من اعظم مآثر العرب . » وفضلا عن ذلك فان النظرية القائلة بكروية الارض ترجع اليهم . وهي منسوبة لابن رستة .

وفي العلوم الطبيعية جالوا وصالوا وأتوا بالمبتكرات ، لا سيما في علم المستعدنات . فمحمد البيروني سبق دروين والقائلين قوله في مبدأ « تنازع البقاء وبقاء الانسب » اذ قرر في كتابه « الجماهر في معرفة الجواهر » نظرية تطور عالم الخليقة ، واشار الى الوزن النوعي للجواهر والاحجار على نحو ما اتى به حديثا كل من جرلاند في كتابه « تاريخ الفيزياء » وخودوبا في الميترالوجيا الحديثة . هذا فضلا عما نجده في رسائل « اخوان الصفا » من نظريات قيّمة في الجيولوجيا تذكرنا بنظرية يوحنا ولتر المعاصر في صدد تكوين الصحاري ، كما نجد في مؤلفات ابن سينا بحثا في تكوين النصول المعدنية بالصحراء لم يكن له سابق قبل ان ظهرت الدراسات الميترالوجية الافرنسية سنة ١٩٣١ .

وفي علم مقارنة الملل كان العرب اول من كتب إذ وجد العلماء والمفكرون في سماحة الحضارة العربية مجالا فسيحاً للتناظر وذلك امام كل الطوائف والملل والعناصر ، فألفوا في مواضيع الفرق والشيع والمذاهب . وقد ظهرت منذ اواخر الدولة الأموية نواة هذا العلم بما ثار وقتئذ من نقاش بين اليهود

والنصارى والخوارج، وبين سائر الشيع الاسلامية ومن مناظرات. ثم توسع هذا النقاش حتى اصبح علماً مستقلاً. وكان اشهر من كتب فيه ابن حزم والشهرستاني والنوبختي والمسعودي والبيروني.

وفي التأليف، على وجه عام، تطرقوا الى كل موضوع حتى لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة الا احصوها، من ذلك انهم الفوا في تقسيم الزمان والاوقات وفي النقود والقلع والحيوانات والحجارة الكريمة والنباتات، ثم لم يغفلوا التجارة والصناعة وغيرهما.

هذا الى انهم ولئن اخذوا عن غيرهم بعض الاختراعات كالنار اليونانية والأبرة المغنطيسية والنفط والبارود والورق والسكر والحرير والخزف والارقام فانهم تعهدوها كلها بالاصلاحات والزيادات، وتفننوا فيها حتى نسب بعضها اليهم كالأرقام التي اخذها عنهم الغربيون، وهي لا تزال تعرف عندهم بالارقام العربية.

وازاء هذه المبتكرات التي قام بها العرب والاختراعات والاصلاحات نظر المنصفون اليهم نظرة الاعجاب والتقدير، واعتبروهم سباقين في الميادين العلمية الى حد ان درابر لم يتردد عن ابداء عجبه من تفوقهم وسبقهم إذ قال في كتابه «تاريخ تطور اوروبا الفكري (١)»:

«والذي يثير الدهشة اننا كثيراً ما توهمنا بان بعض المحدثات هي من وضع عصرنا؛ ولكننا لا نلبث الا قليلا حتى نرى العرب سبقونا اليها. وحسبي، في التدليل على ذلك، ان اشير الى مذهب

---

(1) J.W. Draper. Histoire du développement intellectuele de l'Europe.

النشوء والارتقاء . فهذا المذهب كان يدرس في معاهدهم العلمية، ويطبق على الاشياء الآلية ، بل كان عندهم بمثابة المبدأ الرئيسي في دراسة الاجسام المعدنية ومظاهرها الطبيعية . »

على ان جورج سارتون لم يكتف ، في التدليل على ذلك ، بايراد الامثلة بل عني في كتابه « مقدمة تاريخ العلوم » (١)» باستعراض مجمل النظريات والتجارب التي قام بها العرب قبل سواهم من ابناء التمدن الحديث ، وبتعداد كتبهم في شتى المواضيع ، وانتهى به البحث الى القول :

« ان بعض المؤرخين يحاولون ان يستخفّوا بما قدمه الشرق للتمدن ، ويزعمون بان العرب والمسلمين اقتصروا على نقل العلوم القديمة ، ثم لم يضيفوا اليها شيئاً من عند انفسهم ، وهذا غير صحيح. وحسبها مأثرة عظيمة للعرب انهم نقلوا الينا كنوز الحكمة اليونانية بعد ان احتضنوها وهذبوها ، ولولا ذلك لمني سير المدنية بالتأخر . »

«وتلك الايام نداولها بين الناس» هذه سنة الله في خلقه. وعلى هذه السنة كان من الطبيعي ان تدول دولة العرب .

ولكن شعلة العرفان التي اشعلوها لم تنطفىء بعدزوال سلطانهم، بل اشتد ضياؤها في ايام الذين خلفوهم على السلطة في كل مكان ، ثم ظلت تنير الطريق طويلًا امام بناة التمدن الحديث . فكان بعض الطليعة من بناة هذا التمدن ينتهلون معارفهم من مؤلفاتهم مباشرة ، وبعضهم يقتبس اراءه من كتبهم المترجمة الى اللغات

---

(1) G . Sarton . introduction to the History of Science .

الأوروبية .

وليس المجال هنا فسيحاً لان نتبسط في هذا الموضوع . لذلك فانا نكتفي بالاشارة الى اثنين من اقطاب عصر النهضة الأوروبية واعني بهما دانتي وشكسبير . فبعد اربعة وثلاثين عاما مضت على ذلك اليوم الذي وقف فيه دون ميشل آسين بلاسيو في قاعة الاكاديمية الاسبانية يلقي محاضرته في موضوع « اثر الاسلام في ملحمة دانتي الكوميدية » نهض الآن فرانسيسكو جبريلي لتأييد ما دلل عليه بلاسيو ، فكتب مقالاً ضافياً في « مجلة الشرق والغرب » التي تصدر بروما برهن فيه على ان دانتي ، وان لم يكن يعرف العربية ، فهو قد اقتبس ، دون ريب ، اسلوب الكوميدية من قصة المعراج ، وذلك باعتماده على الكتب المترجمة عن العربية . وقد عدد الكاتب اسماءها .

واما شكسبير فقد كتب اكثر من واحد في موضوع اقتباساته من العربية ، وآخر ما رأيناه في هذا الموضوع مقالاً للدكتور صفاء خلوصي من بغداد ظهر في عدد حزيران ١٩٥٦ بمجلة اهل النفط البيروتية ، أورد فيه بعض الأمثلة على تلك الاقتباسات لا مجال هنا لايرادها ، وانما نكتفي بالاشارة الى هذا المقال .

وبعد فأن قوماً هذا شأنهم في خدمة العلم والانسانية ، وهذه مآثرهم في المساهمة بالمدنية العالمية هل يصح الافتراء عليهم ، تارة بالقول « ان عصرهم كان عصر التجميد » ، وتارة بالزعم « ان عهدهم كان في عداد القرون المظلمة ؟ »

اللهم هـذا منكر لا يصح السكوت عليه ، خصوصا وانه

يصدر عن فئة تعايش العرب ،وتكتب بلسانهم ، وتنطق بلغتهم، وتتخلّق بتقاليدهم وعاداتهم ، وتنعم بخيرات اوطانهم ، وهي بعد ذلك لا تتورع عن الكتابة بمنطق اجنبي مغرض محاولة محو العرب والعروبة بشطحة قلم .

على انا وان عارضنا هؤلاء المواطنين الافاضل في اجتهاداتهم واستنتاجاتهم بيد انه لا يسعنا ، في الختام ، الا التنويه بفضلهم علينا ، ذلك لانهم اتاحوا لنا الفرصة لوضع هـذا الكتاب الذي استعرض مآثر قومنا واياديهم البيضاء على المدنية العالمية ؛ خصوصاً وانه جاء متمماً لمؤلفاتنا السابقة في موضوع العرب والعروبة .

فهرست الكتاب

الفصل الاول

الفصل الثاني

الشعوبيون يستغلون ابن خلدون

الفصل الثالث

الهجوم على القومية باسم الانسانية

الفصل الرابع

من هم احق الناس بفلسطين ؟

تتمه النقاش مع الاستاذ جنبلاط

الفصل الخامس

هل كان عصر العرب عصر تجميد للمدنية ؟

نقاش مع الاستاذ سلامة موسى

الفصل السادس

الشعوبية تتجاهل وجود مدنية عربية او اسلامية

نقاش مع الدكتور امير بقطر

كتب المؤلف المطبوعة

●

الثمن ٣٠٠ ق.ل او ما يعادلها

مطابع دار الكشاف - بيروت